

أين الله
اعتراف ابن الشعب
مكسيم جوركي

- ♦ المؤلف: مكسيم جوركي
- ♦ Author : Maxim Gorky
- ♦ العنوان: أين الله: اعتراف ابن الشعب
- ♦ Title: The Confession
- ♦ ترجمة: نظير زيتون
- ♦ Translated by: Nazeer Zaytoon
- ♦ طبعة آفاق الأولى 2017
- ♦ Afaq's first edition: 2017
- ♦ تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
- ♦ Cover Design by: Amr El Kafrawy
- ♦ مستشار النشر: سوسن بشير
- ♦ Publishing Consultant: Sawsan Bashier
- ♦ المحرر العام: طارق هاشم
- ♦ General Editor: Tarek Hashim



رقم الإيداع:

٢٠١٦ / ٢٦٦٥٥

الترقيم الدولي : ISBN

978 - 977-765 - 084 - 7

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه. أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb

CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787

E-mail: afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية

ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

مكسيم جوركي

أين الله

اعتراف ابن الشعب

رواية

ترجمة

نظير زيتون

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

جوركي، مكسيم.

أين الله - اعتراف ابن الشعب - رواية - ترجمة: نظير زيتون

ط 1 القاهرة - دار آفاق للنشر والتوزيع - 2017

344 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 2016 / 26655

الترقيم الدولي 978 - 977 - 765 - 084 - 7

1 - الأدباء

2 - جوركي، مكسيم

مقدمة الطبعة الأولى

ليس مكسيم جوركي مؤلف هذا الكتاب نكرة في عالم الأدب العالمي فنعرّفه إلى القراء، فهو أشهر كُتّاب روسيا في عهدها القيصري والشيوعي، وأمير كُتّاب العصر الحديث وأعلام أدبًا وأعمقهم تفكيرًا وأصفاهم موردًا وأسماهم نزعة وأبعدهم نظرًا، وهو إلى هذا كله أشدّهم وطأة على الظلم والظالمين، وأجرأهم على الجهر بالحقائق ونشر التعاليم التي تجعل من الإنسان «رجلاً مفكرًا» لا آلة عمياء تحركها أصابع المدجلين والعتاة طورًا باسم الدين والعبادة وتارة باسم السلطة والقانون.

ولا غرابة بعد هذا أن تطير شهرة مكسيم جوركي في كل أنحاء المعمورة، وأن تتهافت الجماعات على مطالعة مؤلفاته، فتردها معيّنًا عذبًا تروي بسلسبيله ظمأها الفكري

الروحي، وتستقيها إكسيرا عجائبيًا يبعث الحياة في قوم
عاشوا أذلاء غرباء عن الحياة فلعنوا الحياة، وتلمسها علاجًا
شافيا يقيها شر التخم والتخّ - تخمة الخرافات والتقليدات،
وتخوخة العقائد والأضاليل - وتستضحّيها شمسًا تندفأ بها
وتظهر بحرارتها رجسًا روحيًا موروثًا وتستهدي بأنوارها
سواء السبيل في سديم الحياة.

ولد مكسيم جوركي في نيجني- نوفغورود من أعمال
روسيا وذلك في السنة ١٨٦٩، أما اسمه الحقيقي فهو ألكسيس
ماكسيموفتش بيشكوف، ولكنه اقتبس اسمًا ثانيًا عُرف به في
عالم الأدب وقد قرن فيه اسم أبيه مكسيم إلى جوركي ومعناه
المرّ، إشارة إلى ما كابده من شقاء الدنيا ونكدها.

ولكنه إذا كان روسي المولد واللغة، فهو عالمي النزعة
والروح، لا يعرف وطنًا خاصًا ذا تخوم سياسية، وإنما الإنسانية
وطنه الأكبر وإليها وحدها ينتمي. فهو من هذا القبيل رسول
عالمي يحمل رسالة الإنسانية العلوية التي لا تقيدّها حدود
ولا تصدّها حواجز ولا تقف في سبيلها لغات وسلالات
وملل ونحل.

نشأ جوركي فقيرًا معدمًا، وما بلغ التاسعة من عمره حتى
هاض اليتيم جناحه وأبى الدهر إلا أن يقسو عليه، فأذاقه من

ضروب الفاقة والشقاء والتعس ألوانًا وأشكالًا، إلى أن ضاقت
في وجهه الحياة وكشَّر له اليأس عن أنيابه، فعمد إلى الانتحار
بعد إذ رزح تحت وطأة القوارع ورمته الأرزاء بسهامها الدائمة،
بيد أنه نجا من الموت بعدما اخترق الرصاص صدره.

والقنوط إذا لم يقض على صاحبه أو يهوي به إلى الحمأة
يتمرغ بها، فلا مشاحة في أنه يجدد القوى الروحية الخفية
ويبعث في المرء نفسًا حرة جبارة تهزأ بالبلايا والنكبات
وتسخر بأعاصير الحياة، وكأن جوركي بعد أن حاول
الانتحار، ولد ولادة جديدة وانبعث وهو بين ميت وحيّ رجلًا
قويًا.

وبيديه بعد أن عانى ما عاناه من صروف الدهر وما
ذاقه من مرارة الحياة التي شرب كؤوسها حتى الثمالة، أن
يعطف على ذوي الفاقة والتعس ويدافع عن الفقراء الأشقياء
والمظلومين المنهوكين ويكافح الشريعة العمياء التي
أضحكت قومًا لتبكي آخرين وأسعدت نفرًا لتشقي شعبًا،
وحمت أفرادًا لتظلم مجموعًا.

فمكسيم جوركي إذن كاتب نائر وأديب متمرد، ونقّادة
دقيق الملحوظات، ومزراء بعيد الغور، يستعرض التقاليد
الفكرية والاجتماعية والدينية فيسخر بها ما شاء له بيانه
وبلاغته وفنه، ثم يجلوها ويصقلها بنقده ولواذعه، ولا يزال

يفندها ويمحصها على نور العقل إلى أن تتلاشى وتضمحل
فيتركها أثرًا بعد عين.

ولا يظن القارئ أن جوركي قصر همه على الهدم
والتدمير، كلاً فهو يهدم المغاور المظلمة والكهوف العفنة
والمعابد المدنسة والأسوار التي قامت سدًا منيعًا في سبيل
الراقي الفكري والكمال الروحي؛ ليبنى على أنقاضها الشامخة
وينشئ الحدائق الغناء ويشيد الهياكل المقدسة المضحاة التي
تسرح وتمرح فيها عذارى النور الفكري المنبثقة من شمس
الحق.

ليست هذه التأملات الفلسفية المطبوعة على غرار روائي
إلا قذيفة من قذائف جوركي الهدامة المحطمة التي أطلقها
على معادل التقاليد الاجتماعية الموروثة وحصون الألوهية
الكاذبة.

فإن كنت أيها القارئ ضعيفًا جبانًا لا طاقة لك بمكافحة
التضليل والكذب بحكم التربية التقليدية والبيئة، فلا تخف إن
أصابتك شظايا جوركي، فشظاياه كمبضع الجراح إنما تبتز
العضو الفاسد وتطعن الدمل، ومن ذا الذي يؤثر العلة على
الصحة، والضعف على القوة والشقاء على الهناء.

وإن كنت قويًا شجاعًا تنشد الكمال الفكري في الحقيقة،

فهذه الرواية تزيد في حصانتك وتستثير حماسك وجرأتك،
وتفتح لبصرتك كوى النور العلوي الذي يجعل من البشر
أنبياء يناجون الحق.

ونحن إذا كنا قد آثرنا نقل هذه الرواية الفلسفية إلى
اللغة العربية وفضلناها على سواها، من الروايات الغرامية
والقصص الخيالية والشرطية الملفقة مما يحرك الشعور
ويستفز العواطف ويهيج الخواطر، ولكنه يخدر الفكر ويقيد
العقل ويجنح بالنفس إلى التداني بدل التسامي، فلأننا نرى أن
أمة كأمتنا العربية هجعت في ظلمة التقاليد وتقيدت بأوهام
العصور وعصفت بها أعاصير الجهل والكذب، وهبت
عليها سموم التعصبات وغاصت في ثقب الجمود، واستبدت
بها سادتها من رجال الدنيا والدين فمزقوها شرّ ممزق، إن
أمة هذه حالها وهذا شأنها لهي أشد الأمم افتقاراً إلى ثورة
فكرية تحطم قيودها وتوقظها من رقادها وتبعثها من مدفنها
التقليدي، أمة حيّة قوية لها مقامها تحت عين الشمس.

نحن شعب زهد بألوهيته المدركة المحسوسة فباعها
بأبخس الأثمان، واستكان لقوم طغاة لم يتورعوا عن أن
ينصبوا له الأحابيل ويزنوا له الأكاذيب؛ ليستبدوه باسم
ألوهية مسيخة جامدة متقهقرة، فأصبحنا لا حول لنا ولا قوة

ولا مرجع ولا رأي، تحت انتدابين - سماوي وأرضي - وفي كليهما من ألوان العبودية ما يزهق النفوس ويشوه محاسن الحياة، فحاتم الجمود وإلام الاستسلام، ولماذا لا يسترد الشعب ألوهيته ويحطم الأصنام التقليدية التي استعبده بها رجال الدين باسم الله، والله بريء، وزعماؤه ورؤساؤه الإقطاعيون باسم القانون والشرائع الرجعية.

أمن العدل أن نشقى ونتقهقر في ميدان الحياة ليمجد إله المنافقين وتنفذ الشريعة الظالمة؟
أمن الحق أن نسام خسفاً وذللاً ليتبارك الاستعمار بألوانه المتعددة؟

أيها الشعب، لقد هدم أسلافك ما بناه أسلافهم فحطموا أصنامهم ونبذوا عاداتهم وتقاليدهم ونقضوا تعاليمهم؛ ليطهروا نفوسهم من الدنس الروحي، فعلام لا تقتفي خطواتهم وتثور ثورتهم لتحرر من سيطرة الخرافات والأضاليل والشرائع العمياء الجائرة.

لقد حان لك أن تكفر بهذه الآلهة المسيخة التي أذلكت واستعبدتك أنت سيد الآلهة.

إن الموت كل الموت في الجمود والاستكانة والاستسلام للظلم السياسي والاجتماعي، والحياة كل الحياة في الثورة الفكرية التي تبعث الشعب من مدافن الجهل والذل والخمول،

فينشد أغرودة الحياة الحرّة الطليقة ويتغنى بأنشودة التسامي .
الحياة كل الحياة في الثورة الفكرية التي تسترد للشعب
ألوهيته المغتصبة .

فمباركة أيتها الثورة البيضاء المباركة ثمرة تعاليمك !

نظير زيتون

سان باولو - تموز ١٩٣٤

الفصل الأول

أما الحياة فأمرها موكول إلينا

اسمحوا لي أن أقص عليكم تاريخ حياتي. حسن أن تقفوا عليه،
فاسمعوا!

أنا ذلك المخلوق الذي اصطاح الناس أن يسموه «ابن الخطيئة»
أي إني ابن غير شرعي، لقيطٌ مجهول الوالدين.

عندما قذفت بي أمي إلى هذا العالم، طرحتني هي أو امرأة أخرى،
فوق سلم المصلى القائم أمام ضريح السيدة لوسيف في قرية سو كول
التابعة لقضاء كرازنوغلنسكي.

وفي الصباح بينما كان البستاني دانييل فيالوف يتعهد الحديقة
عشر بي. رأى طفلاً صغيراً ملقى بين خرق وقُمط على إحدى درجات
المصلى وإلى جانبه هرّ أسود كأنه قائم على حراسته.

ولم يكن الطفل إلا أنا.

عشت في منزل دانييل البستاني أربع سنوات، يعلم الله كيف قضيتها وكيف تغذيت.

كان الرجل معيل كثير البنين، فإذا أدركني الجوع ولم أفز بما ألهو به عمدت إلى البكاء فأتباكي وأتباكي إلى أن يغلب عليّ النعاس فأنام على الطوى.

وفي السنوات الأربع التالية تولى أمري الشمس لاريون، وكان ناسكًا زاهدًا، رقيق القلب، فلما رأيته وحيدًا في هذا العالم أشفق عليّ وأتى بي إلى مأواه؛ كي لا أموت همًا وغمًا.

كان لاريون رجلًا قصير الجثة، مستديرها كالكرة، رحوي الوجه، أشقر الشعر، ناعم الصوت كالنساء، بيد أنه ذو قلب حساس محب لكل الناس.

وإذا بحثت عن مواطن ضعفه رأيته في الخمرة، كان يتلع الخمر والخمر تبتلعه.

كان يفيق من نومه كالحال الوجه متجهماً، مغمض العينين، متثاقل الخطى لا ينسب بنت شفة، بيد أنه لا يحتسي الكوب الأول على ريق النفس حتى يرفع رأسه المطأطأ، وتلمع عيناه وتبرق أسارير وجهه، ويبتسم ويهش لكل من يراه، ثم يأخذ بالغناء والترتيل ملء صوته.

ما أعظم تأثير الخمر في هذا الشمس!

كان لاريون يجتنب معاشرة الناس مؤثرًا العزلة، يعيش عيشة

الفقراء، ويهب ما يكسبه اتفاقاً للأبراشية، وكان يقضي أيامه صيفاً
وشتاء بالصيد، لا هم له إلا الصيد، وإذا ضجر منه عكف على نصب
الفخاخ للعصافير، فيلتقطها واحداً واحداً، ثم علمني هذا الفن الذي
برع فيه.

ومن غريب أمره أنه كان يحب العصافير والبلابل، وهي تحبه كأنها
تدرك ما ينطوي عليه قلبه من الرقة والشفقة.

كانت العصافير التي يربيهما في كوخه تلاعبه وتداعبه، فتجتمع فوق
رأسه تارة، وتبعثر شعره ضاربة فيه أو تحطّ فوق كتفه وتنقر رقبتة أو
تدغدغ بمناقيرها أذنيه ومنخريه.

ما أجمل هذه المشاهد!

وكثيراً ما كان يستلقي على ظهره ويتوسد يديه ثم يغري طيوره
بالحب يبعثره على رأسه ولحيته فلا تلبث أن تطير إليه مسرعة وتنتشر
فوق وجهه ضاربة مناقيرها الصغيرة في الحب فيضحك كأن يدّاً خفية
تدغدغه، ثم يبدأ بمحادثتها فتصغي إليه وتأنس به، ولطالما حسدته
على هذه الألفة التي استحكمت عراها بينه وبين العصافير والبلابل
التي كانت تهرب مني وتبتعد عني كأني باز أو شاهين.

والغريب أن الطيور كانت أعطف على لاريون من البشر.

إنني لا أزال أذكر أيام الشتاء الباردة العاصفة التي كنا نقضيها في
ذلك الكوخ الحقيق الموحش!

كان البؤس ينشب مخالفه فينا فيعوزنا الحطب وتنقصنا النقود
لابتباع القوت؛ لأن لاريون لا يهتم بما يأكله قدر ما يهتم بما يشربه،
فنضطر أن نتدثر بكل ما تصل إليه أيدينا طلباً للدفع في ذلك الكوخ
البارد المظلم كالقبر، أما تعزيتنا الوحيدة فكانت في مؤانسة الطيور لنا!
كانت العصافير تسلينا بزقزقتها، والبلابل والعنادل بتغريدها،
فننسى ما نحن فيه من الشقاء.

وكان لاريون يصفر لها نغمًا عذبًا شجيًا يحرك شجونها، فتسكت
وتنقطع عن الزقزقة والتغريد مصغية إلى صفير الشَّماس الحنون.
وكان إذا ملّ الصفير عكف على الترتيل والغناء، فلا تلبث هذه
الطيور الوديدة أن تبتهج وتغبط ثم تأخذ بالزقزقة والتغريد كأنها
تتحدى ترتيل الشَّماس، وهنا تبدأ المنافسة، فيحاول لاريون أن يعجزها
قوة صوته، ولكنها لا تلبث أن تقابله بالمثل، فترتفع التغاريد من كل
ناحية ويجهد الشَّماس نفسه إلى أن يتفصد وجهه عرقًا وتجحظ عيناه.
وكانت أحب التراتيل إليه ما يرتل في صلوات الجناز، فكنت
أصغي بخشوع ورهبة، وأسائل نفسي عن السبب الذي يحمله على
اختيار هذه الأنغام الشجية، وفي ذات مرة قلت له وقد بلغ مني الانفعال
النفساني مبلغه:

- لماذا تؤثر يا عماء أن ترتل صلوات الجناز؟

فتأملني مليًا وأجابني ضاحكًا: يا غلامي، الموت لا يبعث على

الخوف، إن أجمل التراتيل الدينية تلك التي ترتل في الجناز، فيها رقة وشفقة وشقور، ونحن تعلمنا أن نبكي على الموتى وحدهم دون سواهم!

إني أذكر كلماته وخطبه، ولكنني في ذلك العهد لم أكن أدرك مرماها، والبشر لا يفقهون معنى الطفولة إلا متى أدركتهم الشيخوخة. وأذكر أيضًا أنني سألته يومًا:

- إن الله قلما يحفل بمساعدة مخلوقاته، فلماذا؟

ففسر ما غمض عليّ قائلاً: إن هذا الأمر ليس من شأن الله. ساعد نفسك إذا شئت أن يكون مساعدًا، وإلا فلماذا أُعطيت الفهم؟
إذا قيل إن الله موجود فلماذا يخفف عنا شيئًا من هول الموت، أما الحياة فأمرها موكول إلينا.

وقد نسيت لسوء حظي هذه التعاليم بسرعة، وعندما تذكرتها كان الوقت قد فات، ولهذا ذهبت آلامي عبثًا. آه، ما أعظم هذا الرجل!
حينما كان يصطاد، يلوذ بالصمت فلا يصرخ ولا يتكلم لئلا يذعر السمك، وإذا عمد إلى القنص تحذّر كثيرًا، ولكنه لم ينفك مرة عن الصفيير ومخاطبة الطيور بلغتها، فكانت العصافير والبلابل تقع تباعًا في الفخاخ التي نصبها لها.

وكان هذا شأنه مع النحل، فإذا ساء أمر منه عمد إلى معاملته بقسوة، ولم يكن يحبه لأنه أفقد ابنته بصرها، وذلك أن صغيرته، التي

لم تتجاوز عامها الثالث، اقتربت من قفير النحل فثار عليها ولسعها في عينيها فتورمتا، ثم أصابهما مرض حاد انتهى بإعمائهما، وبعد مدة توفيت الطفلة فجئت أمها حزناً عليها.

وكان لاريون شاذاً عن سائر الناس لا يصنع ما يصنعونه وبرهاناً على هذا أقدم نفسي.

فقد كان حنوناً عليّ كأم، على حين أن واحداً من سكان القرية لم يحبني؛ ذلك لأن الأيام كانت قاسية عليهم فكيف يعطفون على غريب مثلي؟

وعلمني لاريون أن أساعده في أعماله، فكنت أرتل معه في الخورس وأنير الشموع، كما كنت أساعد أيضاً فلاسي قندلفت الكنيسة في تنظيفها وخصوصاً في أيام الشتاء، إذ يشتد القر وتعصف الرياح فأجد في المعبد ملجأ دافئاً.

على أنني والحق أقول كنت أؤثر صلوات الغروب على صلوات الفجر، إذ كانت ترتاح نفسي إلى مشاهدة الفلاحين في الكنيسة وقد عادوا من أعمالهم اليومية الشاقة، فطهر الشغل أفئدتهم وأرواحهم وأعدّها لاقتبال القداسة الحقيقية التي ينشدها أولئك التاعسون.

وكان لاريون يحب أن يقوم بالصلوات، فيقف أمام الهيكل بخشوع واحترام ويغمض جفنيه ويشرع في الترتيل وقد انصرفت أفكاره إلى عالم مجهول، فلا يزال يرتل إلى أن تلتبس عليه الصلوات ويسهو ويتوه، وكثيراً ما كان ينتقل على غير قصد من ترتيل الصلوات

إلى الغناء فيضطر الكاهن أن يتداركه بالإشارات أو ينبهه قائلاً:

كفى... كفى... ما هذا الغناء يا للشيطان؟

وكان يقرأ الرسائل وسواها بصوت عذب خلّاب ولهجة مؤثرة تترك في النفس وقعاً جميلاً.

نعم إن كاهن الكنيسة كان يتذمر منه ويقسو عليه بلواذع كلماته، ولكنه كان يقابل الكاهن بالمثل ويجيز له قوارصه من نفس البحر والقافية.

وقد سمعته مراراً كثيرة يقول: أهذا كاهن...؟! إن هو إلا طبل تضرب عليه الفاقة والعادة فيسمع لهما صوت بعيد!

أما أنا فقد خلقت حقاً للإكليركية، ولو كنت كاهناً لقمّت باحتفالات القداس والصلوات على شكل لا يستدرف دموع المصلين وحدهم، بل دموع الأيقونات أيضاً! لو كنت كاهناً لدخلت بتراتيلى إلى أعماق القلوب وحركت جماد الصخور المقدسة.

ولم يكن لاريون مغالياً في تحامله على كاهن الكنيسة، فهو ووظيفته ليسا في مستوى واحد فقد كان أفتطس الوجه أسوده كأنما حرقه البارود. وكان كبير الفم أدرد، ذا لحية كأنها حزمة من السنابل، ورأس أصلع غريب التركيب، وذراعين طويلتين، وصوت أجش متهدج كأنه أنين يرسله رجل رازح تحت عبء ثقیل. وكان علاوة على هذه الشوهة الطبيعية سيئ الخلق متلصصاً، لا يتورع عن سرقة

ما تصل إليه يده لينفق على عياله الكثيرة لأن الأبرشية فقيرة والأرض
مجدبة و التجارة اسم بلا مسمى .

وفي الصيف، في هذا الفصل الذي كان البرغش نفسه ينال حظه
من البجوحة والرخاء، في هذا الفصل الذي كانت الحشرات تغتتم
قوتها بسهولة، كنت أنا ولاريون نقضي الأيام والليالي في الغابات
طمعاً بالصيد والقنص .

وكان الكاهن إذا اضطر أن يقيم صلاة غير منتظرة، أرسل غلمان
القرية في طلب لاريون فتنشر في كل صوب وتنادي:
- لار.... يو... لا.... يو، أنت أين؟ احضر.....

فإذا لم يعثروا به، ثار ثائر الكاهن وقام يتهدد ويتوعد لاريون
فيضحك الشعب من الاثنين .



الفصل الثاني

إن شيطانكم هو البؤس والجهل...

كان للاريون صديق اسمه سافيلكو ميغون، وهو لص خبيث وسكير مدمن، وكثيراً ما كانت تتناول له الأيدي بالضرب تأديباً له، وكثيراً ما أُلقي في السجن، ولكن طبعه كان غلاباً عليه فلا يلبث أن يعود إلى السرقة والسكر.

كان هذا الرجل الغريب يرتاد كوخ لاريون حيث سمعته يغني ويروي القصص على أسلوب ترك في نفسي أسوأ أثر، ولا تزال نفسي ترتعش كلما ذكرت قصصه الهائلة.

أصغيت مراراً إلى حكاياته ولا تزال صورته ماثلة أمامي مع تقادم العهد به.

كان يحمل زجاجة العرق في جيبه، فإذا وصل إلى كوخنا انتزعها وأقبل هو ولاريون على الشراب يتنادمان، وبعض الأحيان كان لاريون يقدم الخمر لصديقه.

وبعد أن يحتسي الاثنان شيئاً يشرع لاريون في الغناء فيصغي إليه سافيلكو كل الإصغاء ولا ينبس بينت شفة، ولكن حواسه تصاب بشيء من التخدير ونفسه بالانفعال الشديد، فيضحك تارة وتنهمر دموعه أخرى، ولكنه لا يلبث أن يستعيد جأشه ويلتفت إلى لاريون صارخاً:
- حقاً إن تغاريدك جميلة... وإني أكاد أحسد الله لشدة إعجابي بها...

والآن أخبرني يا لاريون، ما هو الرجل؟ وما عسى أن يكون شأنه مهما يكن صالحاً نبيل الشعور كبير القلب؟ إن رجلاً شريفاً لا يخشى أن يمثل أمام الله ولا يخاف أن يقول له: «لا تعطني شيئاً أيها السيد، أما أنا فأهبك كل روحي».

فيجيبه لاريون واعظاً: لا تجدف...

فيرد عليه قائلاً: «أنا.. إني لا أجدف ولم يخطر لي أن أجدف يوماً... وإلا فهل أهنت الدين وطعنت فيه؟ كلاً لم أصنع شيئاً من هذا، وكل ما هنالك أنني أغبط الله وأبتهج به، ولكن دعنا من الموضوع واسمع ما أنشده.

ثم يقف على رجليه ويمد ذراعيه ويغني.

كنت أتأمله في موقفه هذا فيعتريني الذعر وتستولي عليّ كآبة عميقة، حقاً إن منظره آنئذٍ كان شديد التأثير.

وبعد أن ينتهي يشرع الاثنان يغنيان معاً، ثم يحسبان الكؤوس

ويتنادمان إلى أن يجرر الليل ذبوله أمام جحافل النور.

وكان سافيلكو إذا غلبته الخمرة وأخذ منه السكر، عمد إلى قص الحكايات السخيفة المجونية أبطالها كهنة وملاكون وملوك، وكنت أنا ولا ريون نسمعه يقصها ونضحك ضحكًا متواصلًا بلا انقطاع.

وكان سافيلكو في أيام الأعياد والآحاد يغني غناء يثير الشجون ويحرك الجماد، يرسل صوته القوي في الفضاء، فلا يكاد يسمعه الفلاحون حتى يلتفتوا حوله فيقفوا أمامه بخشوع واحترام، فإذا سكت سألوه أن يغني أغنية أخرى ويقدموا له ما يشربه من الخمر.

ومما يروى عنه في القرية أنه سرق مرة متاعًا أو شيئًا، ولما أحس به الفلاحون قبضوا عليه، وقال له أحدهم: لا تحاول أن تبرئ نفسك! فما أمامك إلا الموت، لقد آن لنا أن نستريح منك.

فرد عليه قائلاً: اسمعوا ما أقوله واصنعوا بعدئذٍ ما شئتم؟

- لقد انتزعتم من يدي ما سرقته، وعلى هذا لم تخسروا شيئًا، وباستطاعتكم في كل حين أن تقتنوا أملاكًا جديدة. ولكن رجلاً نظيري أين تجدونه وكيف تحظون به؟ من هو الذي يسليكم ويؤنسكم ويطربكم إذا قتلتموني؟

أعندكم غيري يحرك عواطفكم؟

فأجابه الفلاحون: دعنا من الكلام المنمق، لقد أشبعتنا هذرًا.

ثم هجموا عليه واقتادوه إلى الغابة ليشنقوه.

وفيما كانوا سائرين طفق يغني، فأخذ الفلاحون يسرون الهوينا
بعد إذ كانوا يسرعون الخطى، وما زالوا كذلك حتى أدركوا الغابة،
فأعدوا الحبل وانتظروا ريثما ينتهي من أغنيته الأخيرة، ولكن بعض
الفلاحين أخذوا يشعرون بشيء من الارتياح إلى صوته العذب الحنون
فقالوا لرفاقهم:

- دعوه يغني أغنية أخرى، إن أنشودته ستكون صدى دمائه
واحتضاره، فليغن!

فبدأ سافيلكو ينشد أغرودة جديدة ثم أتبعها بأخرى فأخرى إلى أن
مالت الشمس نحو المغيب.

كان سافيلكو ينتظر الموت وعلى ثغره ابتسامة كأنه غير حافل
بالمشقة المنصوبة، غير أن الفلاحين تطرق إلى قلوبهم التردد والحيرة
وأخذ بعضهم ينظر إلى بعض متسائلًا:

- ماذا نصنع؟ إذا قتلناه لا نسلم من تقريع الضمير إلى الأبد، أيجوز
أن نلطح أيدينا بدم هذا الرجل؟

ثم انتقلوا من التردد إلى الجزم، فقرروا أن يعفوا عن سافيلكو
ويصفحوا عن سرقاته قائلين: إننا نحني رؤوسنا احترامًا لعبقريتك،
ولكن علينا أن نعاقبك جزاء سرقاتك، فلا تمد يدك بعدها إلى مال
الآخرين.

ثم انهالوا عليه بالضرب الخفيف وعادوا به إلى القرية.

وأنا لا أثق كل الثقة بهذه الرواية وأعتقد أن فيها مغالاة، فالفلاحون ليسوا كرامًا إلى هذه الدرجة، وسافيلكو ليس بالعقري الذي يستطيع أن يستهوي بفنه قلوب العشرات والمئات، ويستمطر على جمر انتقامهم برد أغانيه وسلامها.

وكانت تدور بين لاريون وسافيلكو أحاديث ومطارحات متعددة المواضيع، دون أن يغفلا حتى الشياطين، وأنا لا أزال أذكر ما قاله لاريون لرفيقه في ذات يوم عندما سأله عن الشيطان:

- الشيطان هو مثال الشر، هو المرأة التي ينعكس عليها الجهل الروحي.

فقال سافيلكو: إذا قلنا الجهل الروحي عينا الحماقة أليس كذلك؟

- نعم، الحماقة بعض معاني الجهل الروحي.

فأجابه سافيلكو ضاحكًا:

- لو كان الشيطان مخلوقًا حيًا لا صطحبته معي من عهد طويل...

ولم يكن لاريون يؤمن بالشياطين أو يعتقد بوجودها. وفي ذات يوم كان يجادل الفلاحين في أمر الأبالسة ومما أذكره قوله لهم:

- لا ينبغي أن نتكلم عن أعمال الشيطان وإنما عن القسوة والعنف، الخير والشر هما في طاقة البشر، إذا أردتم الخير فإرادتكم تأتي بالخير، وإذا شئتم الشر، فمشيئتكم تنتج الشر، الخير مصدره أنتم، والشر مصدره أنتم، وذلك لأن الله لا يرغمكم على اقتراف الشر أو صنع الخير.

لقد خلقكم بإرادته أحرارًا مستقلين، وأحرارًا مستقلين تصنعون ما يحلو لكم، أما الشيطان، شيطانكم الذي تتحدثون عنه فهو البؤس، نعم هو البؤس والجهل، شيطانكم هو ظل الشريعة العاتية المستبدة في القلوب!

لماذا يصورون الشيطان بقرنين ورجلي ماعز؟ ذلك لأنه مبدأ الحيوان في الرجل. إن الخير إنساني، لأن الإنسانية مصدرها الله، أما الشر فلا يأتي عن الشيطان، ولكن عن الحيوانية.

وكان لاريون إذا تحدث عن يسوع أطنب به وأطلق لسانه في تسبيحه.

وكثيرًا ما كنت أبكي عندما أسمعه يقص الحظ العاثر التاعس الذي رافق ابن الله. وكنت أتخيل المسيح، منذ جادل الشيوخ في الهيكل إلى يوم الجلجلة العصيب، ماثلاً أمامي كأنه طفل جميل نقي في حبه غير المتناهي للشعب، في ابتساماته العذبة للعالم، في جماله الإلهي وطهارته المشرفة.

كان لاريون يقول: لقد جادل يسوع شيوخ الهيكل وهو طفل، ولهذا كانت معرفته الساذجة تبدو لهم تفوقه عليهم.

ثم يلتفت إليّ ويعظني بقوله: لا تنس يا ماتفي ما أقوله لك، احتفظ على الدوام بكل ما في روحك من منازع الطفولة، ضع هذا الأمر نصب عينيك فإن فيه كل الحقيقة.

فسألته: ويسوع، أيعود قريباً؟

فأجابني: نعم، يعود قريباً؛ لأن الشعب على ما يترأى لي يبحث عنه.

وإذا أعدت إلى الذاكرة كلمات لاريون، لاح لي أنه يرى في الله الخالق الأعظم المبدع الذي برأ أجمل الأشياء.

وهو يعد الإنسان مخلوقاً شاردًا أضل سبل الحياة الأرضية. يعد وارثاً جديرًا بالشفقة لأنه غير كفء للتمتع بالخيرات العظيمة التي أورثه إياها الله على الأرض.

وكان سافيلكو يشاركه في هذا الاعتقاد.

ولا تزال عالقة بذاكرتي حادثة الأيقونة العجائبية التي ظهرت في القرية، وها هو ذا تفصيل الخبر:

في صباح يوم من أيام الخريف ذهبت إحدى النساء إلى بئر تستقي، وما كادت تطل على الماء حتى رأت في قعر البئر شيئاً لامعاً غريب الشكل... فركضت مدهوشة ودعت أهل القرية إلى مشاهدة ما في البئر، فلبى الدعوة كثيرون بينهم كاتب العدل والكاهن ولاريون أيضاً، ثم هبط إلى قعر البئر أحد الرجال فانتشل أيقونة لإحدى القديسات، كانت هذه الأيقونة تضيء فينبعث منها نور لطيف يحير الأبصار، وبديهي بعد هذا أن تُتلى الصلوات وتقرع الأجراس، ويتحمس الفلاحون، وتنتشر بينهم دعوة إلى تشييد كنيسة حول البئر...

وكان الكاهن يحضهم على التبرع لبناء المعبد قائلاً لهم:

- أيها المسيحيون المؤمنون، قدموا هباتكم!.

وقد شاء رئيس الشرطة الريفية أن يشترك في هذه الدعوة، ف تبرع لمشروع الكنيسة بثلاثة روبلات من جيبه الخاص، وما عثم الفلاحون أن حذوا حذوه فمدوا أيديهم للعطاء، وكانت النساء أشد تحمسًا فاندفعن إلى مساعدة هذا المشروع الديني بكل ما في قلوبهن من حرارة وإيمان، وعمت الغبطة والبهجة كل سكان القرية التي لبست حلة العيد، وكان سروري يفوق الجميع.

بيد أنني لحظت من لاريون ما حيرني وأدهشني، كان عابثًا متجهّم الوجه لا يلتفت إلى أحد ولا يكثر ث لهذا الحادث العظيم، فما السبب يا ترى؟

وفي المساء ذهبت إلى البئر لمشاهدة صورة القديسة الملتهبة كما سموها، فرأيت نورًا مزروعًا يفيض حولها منتشرًا كالبخار، كأن يدًا غير منظورة ألقت فوقها بلطف وهدوء شعلة تنيرها وتدفعها، فكنت أشعر أمام هذا المشهد الجميل بارتياح نفسي عظيم.

وبعدما عدت إلى الكوخ سمعت لاريون يخاطب سافيلكو بلهجة حزينة:

- ليس بين العذارى كهذه العذراء الجديدة!

فأجابه سافيلكو ضاحكًا متهمكًا:

- موسى جاء قبل المسيح بزمان طويل.. يا لهم من خيلاء! أهذه أعجوبة...؟ ما أحقق الفلاحين.

ثم همس لاريون قائلاً:

- أتعلم؟ إن الكاهن ورئيس الشرطة يستحقان الزج في السجن جزاء هذه الخديعة، إنهما لم يتورعا عن خدمة مصالحهما ونفوذهما تحت نقاب ديني، وقاما يوطدان أركان الدين في قلوب البشر إرضاءً للمنافع الشخصية!

فلم ترتح نفسي إلى هذا الحديث، ولما سألت لاريون أن يوضح لي الأمر أبى أن يجيبني، غير أن سافيلكو لم يسكت فقال للاريون:

- وأنت يا لاريون ماذا تصنع؟ أنت الذي تشكو جهل الشعب وحقاقته وتتذمر من هؤلاء الفلاحين الأغبياء، ألا تستحي أن تصنع من مانفي أيضاً غيباً أحقق؟ ولماذا؟

ثم وثب عن مقعده بسرعة وخاطبني قائلاً:

- أترى عيدان الكبريت هذه؟ إني سأمرغ كفي فتأمل يا مانفي ما أصنع، أرايت؟

والتفت إلى لاريون وقال: أطفئ القنديل.

وبعدما انتشرت الظلمة في الكوخ بسط كفه أمام عيني وسألني ماذا أرى؟

فرايت كفه يلمع في الظلام ويضيء بنور مزروق متبخر كالنور

المنبعث من قديسة البئر. وعلى الأثر أغمضت عيني ولم أشأ أن أقابل
بين ما صنعه سافيلكو والقديسة الملتهبة...

وكان سافيلكو لم يرض عن استيائي من جلاء الحقيقة، فأخذ
يحدثني بما يؤيد نظريته، ويظهر لي الفرق بين الأعجوبة الحقيقية
والوسيلة الخداعة التي يتذرع بها رجال الدين لإيهام الشعب، غير أنني
أبيت أن أصغي إليه فارتيميت على مضجعي وقد سددت أذني...

وبعد يومين أو ثلاثة على ظهور الأيقونة العجائبية وصل إلى القرية
كبير من الكهنة ورجال الحكومة فانتزعوا الأيقونة وخبأوها وأقالوا
رئيس الشرطة من منصبه وهددوا الكاهن بإقامة الدعوى.

أما أنا فكان يصعب عليّ أن أصدق ما يعزى إلى الكاهن ورئيس
الشرطة، وأن أقتنع بأنهما اخترعا مسألة العجيبة اختراعاً ولفقاها تلفيقاً
طمعاً بابتزاز دريهمات الفلاحين ونسائهم.

عندما بلغت السادسة من العمر شرع لاريون يعلمني القراءة
والكتابة باللغة الإكليريكية، وبعد عامين فُتحت في القرية مدرسة ابتدائية
فأرسلني لاريون إليها. وبالنظر إلى انصبابي على الدرس اضطرت أن
أبتعد عن لاريون، وقد كان في بعض الأحيان يسألني إعادة المسائل
التي تعلمتها في المدرسة فيبدي ارتياحه ويثني على اجتهادي.

وفي ذات مرة بعد أن سألتني أسئلة كثيرة تتعلق بدروسي وأجبتة
عنها بمتهى التدقيق، فاجأني بهذا الثناء الغريب:

- إن في عروقتك دمًا طيبًا مما يدل على أن أباك لم يكن رجلًا
خاملاً!

فسألته: وأين هو؟ أترأه أحد الفلاحين...؟

فأجابني: إن كل ما أستطيع أن أوكدّه هو أن أباك كان رجلًا! أما
الطبقة التي ينتمي إليها أو العترة التي يمت إليها، فهذا ما لا أدريه...
ولكنني مع هذا لا أخاله فلاحًا، نعم لا أخال أباك فلاحًا، يدلني
على هذا وجهك وبشرتك وخلقتك، صفات لا تعهد إلا في أبناء السراة
الأشراف.

وقد انطبعت كلماته في ذهني ونُقشت في لبي، بيد أنها لم تأت
بنتيجة حسنة. وكان رفاقي في المدرسة يهزأون بي ويدعونني «لقيطًا»
فلا ألبث أن أصرخ في وجوههم غاضبًا لكرامتي قائلاً:

- أأنتم أبناء الفلاحين تهزأون بابن السيد النبيل؟

والغريب أنني أقنعت نفسي كل الإقناع بأنني ابن سري شريف،
وبهذه الوسيلة كنت أدافع عن كرامتي أمام تهجمات رفقائي التلامذة.
ونشأ عن كبريائي أن التلامذة أخذوا يمتقنونني ويطلقون عليّ
نعوتًا قبيحة، فكان جوابي عنها الصفع واللطم، ولا بدع فقد ترعرعت
واعتقدت كل الاعتقاد أنني أمت إلى عترة نبيلة.

وبديهي أن يشكو التلامذة أمري إلى آبائهم، وهؤلاء طلبوا من
الشماس أن يؤدبني، فدعاني لاريون وقال لي:

- ربما كنت يا ماتفي ابن قائد من القواد، ولكن هذا لا شأن له
فالناس كلهم يلدون بصورة واحدة، وعلى هذا فالشرف واحد للجميع.
غير أن هذه الموعظة جاءت متأخرة إذ بلغت آنئذ الثانية عشرة من
العمر وتعودت رد الإهانات بشراسة وعنف.

وبعد سنة أي في الثالثة عشرة أنهيت دروسي، فأخذ لاريون يسأل
نفسه عما يصنعه بي، أيرشحي للإكليركية أم للجندية أم للخدمة؟
وكان يسألني عما أوثره فلا أجيب، ولكنه مع هذا التردد يشجعني
قائلاً:

- لا تثبط عزائمك وسواء أدخلت هذا الباب أم ذاك فلا بد لك من
الصعود، وكل ما عليك أن تتجنبه هو أن تبتعد عن الخدمة العسكرية،
ليس ما يفسد الرجل كالجندية المأجورة...

وبعد بضعة أشهر ذهبت أنا ولاريون كعادتنا إلى الصيد في بحيرة
ليوبوشين. كان زورقنا قديماً صغيراً مفككاً، وكان لاريون كعادته
يحمل زجاجته من الخمر فيشرب الجرعة إثر الجرعة. واتفق في هذه
المرة أنه أتى بحركة عنيفة في الزورق فمال بنا وانقلب وسقطنا كلانا
في الماء.

ولم تكن هذه أول مرة مال بنا فيها الزورق وهوينا إلى الماء، ولذلك
أخذت أسبح ولما عمت رأيت لاريون يسبح إلى جانبي، ثم سمعته يقول
لي:

- اذهب إلى الشاطئ، وأنا سأجر الزورق.

كانت الضفة قريبة منا فأخذت أسبح مطمئناً وفيما أنا كذلك إذ شعرت فجأة كأن شيئاً يشد رجليّ، وإذا بي أرى الزورق وحده دون لاريون.

فأحسست كأن جلمود صخر سقط على رأسي، وانتابني خوف شديد، واهتز جسمي اهتزازاً عنيفاً، وارتخت أعصابي فهويت إلى قاع البحيرة.

واتفق آنئذ أن مرت مركبة تيتوف أحد موظفي الحكومة وكانت متجهة إلى الحقل، وتيتوف رأى الزورق ينقلب ولاريون تبتلعه لجج البحيرة، وعندما شاهدني أغوص في عباب الماء خلع ثيابه وانتشلني من مهاوي الغرق، ورد إليّ حياتي بعدما كدت أفقدها.

أما لاريون، لاريون المسكين فلم يعثر على جثته إلا في المساء. لقد طارت روحه الطاهرة النقية إلى السماء وودعت الحياة الأرضية غير آسفة.

ما أظطع ما دهاني به القضاء، وما أقسى ما خطته لي الأقدار!

كنت أرى العالم أسود حالكاً، والحياة شوكاً يدمي الفؤاد.

فقدت مهذبي ومن كان لي بمقام أبي، فقدت صديقي ومرشدي ومن كان يحن إليه قلبي. دهمته يد المنون فجأة فتحولت أفراحي إلى أتراح، واسودت الدنيا في عيني وتبعثرت آمالي على شاطئ تلك

البحيرة المشؤومة! أترأه انتحر أم مات قضاء وقدرًا؟

وعندما دُفنت جثة لاريون في بطن الأرض، كان المرض آخذًا
مأخذه مني، فلم أتمكن من مرافقتها إلى مقرها الأخير، وبعدما نقيت
خرجت إلى المقبرة لأزور الضريح الذي ضم رفات ذلك الرجل
الإنساني النبيل الشعور، فجلست إلى جانبه وقد تقطع قلبي حزنًا وألمًا
وحاولت أن أروي تراب القبر بدموعي، فخانتني عيناى وانحدرت
عبراتي الملتهبة إلى قلبي المتفجع فزادته حرقة وجوى.

كان صوته لا يزال يرن في أذني، فيخيل إلي وأنا جالس على قبره أني
أسمع خطبه ومواعظه وتعاليمه ثم أغمضت عيني وانصرفت بي الأفكار
إلى تلك الأيام الهنيئة التي قضيتها بقربه، ما كان أسعدني في ظله، آه! لقد
مرت تلك السنوات العذبة على خشونتها وضيقها كأنها حلم ذهبي بددته
أنامل اليقظة.

وفيما كنت مرخيًا لتأملاتي العنان إذ شعرت فجأة بيد تقبض على
يدي فرفعت رأسي ورأيت تيتوف أمامي يقول لي:
- هلم نذهب، فليس لك ما تصنعه هنا.

ثم قادني بيده فتبعته صامتًا وبعد مسيرة خطوات قال لي:
- إنك رقيق القلب يا بني، لم تنس الرجل الذي أحسن إليك.
غير أن هذه الكلمات لم تكف لتعزيتي فتابعته سكوتي، وعطف
تيتوف على عبارته قائلاً:

- كنت أنوي أن أتولى أمرك منذ عشر بك البستاني على المصلّى،
بيد أنني وصلت متأخراً، ولكن يلوح لي أن الله شاء أن أتعهدك، فأتاح
لي هذه الفرصة، فتعال يا غلامي وعش معي....

كنت آنئذٍ لا أحفل بشيء ولا أكثرث لأمر، فسواء لدي الحياة أو
الموت، سواء لدي عشت مع من أشاء أو عشت مع سواه.

وما عسى أن أنتظر وقد تلاشى حلمي وعشت يد القضاء بشعوري.
وهكذا انتقلت من حالة إلى أخرى دون أن أنتبه أو أهتم، لولا تلك
الذكريات العاطفية أو تلك اليد التي أحسنت إليّ...



الفصل الثالث

قلب يتفتح على الطهر والخير

بعد أن قضيت مدة في منزل تيتوف أخذت أهتم بما يكتنفني...
كان تيتوف ضخم الجثة كث السبال حليق اللحية والرأس متأنقاً
في ألفاظه، لا يكاد يخرج يديه من جيبه، وإذا أخرجهما شبكهما وراء
ظهره.

كان هذا الرجل مكروهاً وقد طالما نظر إليه الفلاحون شزراً، وفي
إحدى المرات هجموا عليه وأشبعوه ضرباً، أما قرينته نسطاسيا فكانت
امرأة جميلة طويلة القامة، رقيقة الجسم، شاحبة اللون، ذات عيين
نجلادين يفيضان نوراً وصفاء.

وكانت ابنتها أولغا جميلة كأُمها وهي أكبر مني سنّاً بثلاث سنوات.
قطنت هذه الأسرة في منزل يحيط به السكون، فالسجاد المفروش

في الغرف والأروقة يلاشي صوت الخطوات، والقناديل والشموع المضطربة ليلاً ونهاراً أمام الأيقونات لا يسمع لها أنين أو شكوى أو توجع.

وكانت جدران البهو والغرف مزدانة بالرسوم المتعددة، هذا يمثل يوم الدينونة وذاك استشهاد الرسل، وسواه قديسة أو قديساً، وهناك عدد من التماثيل الفنية الجميلة التي كان صمتها أبلغ من نطقها.

في هذا المنزل الهادئ الساكن، كنت أجدد ذكرى لاريون هذا الرجل المحسن الذي لم يبرح فكري يوماً واحداً.

أما عملي فكان مقصوراً على ما يتعلق بمكتب تيتوف حيث كنت أطلع أوراقاً لا تحصى، وغلب على ظني أن تيتوف كان يراقبني سرّاً كأنه يحذر أن آتي أمراً إداً، وقد كان لهذه المراقبة وقعها المؤلم في فؤادي فعشت في منزله تاعساً.

نعم، أنا لم أكن ضحوكاً لعباً طوال حياتي، ولكني في مدة إقامتي هناك غلب علي الحزن والكآبة، لم يكن لي ثمة صديق يواسيني ويسليني ولا من أستأنس به أو أبثه ما بقلبي، وكنت إذا سألتني تيتوف أو قرينته عن لاريون أعمد إلى السكوت فلا أجيب عن السؤال إلا بكلمات وجيزة.

وكان ذلك السكوت المكتنف منزل تيتوف وأسرته يبعث فيّ شيئاً من المرارة المقرونة باللهفة، ولذلك رأيت أن أفتش عن التعزية والهدوء الفكري في الكنيسة، فكنت أذهب إليها كل يوم وأساعد

القندلفت فلاسي، وبعض الأحيان الشماس الجديد الذي حل محل لاريون.

كان هذا الشماس شابًا جميل الطلعة غير أنه لم يكن حارًا في صلواته وترانيمه كلاريون، وفضلًا عن هذا كان يتملق الكاهن فيقبل يده ويتبعه أينما سار.

ولا أزال أذكر الانتقادات المرة التي كان يوجهها إليّ في أثناء خدمة القداس، وما ذلك إلا لأنني كنت أحافظ على الطقوس الدينية وأقوم بها أجمل قيام، أما هو فكان يجهل الطريقة المثلى والأصول المرعية. في هذا الوقت شعرت بعبء الحياة الثقيل وذقت مرارتها فبدأت أحب الله.

وفي ذات يوم بينما كنت أضع الشموع أمام أيقونة العذراء قبل الابتداء بالصلاة، ترى لي أن مريم وابنها الطفل يسوع يرسلان إليّ نظرات ملؤها الحنان والعطف، فأخذت أبكي ثم جثوت على قدمي وشرعت أصلي.

لأجل من صليت؟ لأجل لاريون، صديقي ومعلمي...

لا أدري كم استغرقت من الوقت صلاتي، ولكنني أذكر أنني نهضت وقد امتلأ قلبي تعزية وغبطة، وتزحزح عن عاتقي ذلك الحمل الثقيل.

وبعدما أنهيت صلاتي جئت أساعد القندلفت، فتأملني مليًا وقال

لي:

- إن محياك يفيض سرورًا فهل عثرت على قطعة من النقود؟

فاغظت وحسبته يهينني ولكني لم أشأ مناقشته وقلت له:

- إني صليت إلى الله!

فسألني متهمًا: وإلى أي إله، إن الآلهة عندنا يعدون بالميثاق،
فإلى أيهم صليت؟ والإله الحي أين هو؟ أين هو الله؟ أين هو الإله
الحقيقي، الإله غير المصنوع من الخشب... أين هو، اذهب وابحث
عنه!

أما أنا فلم أحفل آتئذٍ بهذه الكلمات التي حسبتها إهانة ومذمة،
ذلك لأن فلاسي القندلفت كان رجلًا مشوه الجسم بطيء الحركة واهن
القوى ضعيف الساقين كثير الاهتزاز، وكان فضلًا عن هذا دميم الوجه
أدرد كالأطفال كالح البشرة ذا عينيْن جاحظتين كأنهما مجفلفتان...

وعلى إثر وفاة لاريون بدأت ألحظ فسادًا في عقله. فمن ذلك قوله:

- أنا لست حارسًا للكنيسة، إنما أنا حارس لقطعان الماشية،
خلقت لأكون راعيًا، وسأموت راعيًا. ولسوف أترك الكنيسة لأرعى
الماشية.

والناس كلهم يعلمون أن فلاسي لم يحرس المواشي قط ولا كان
راعيًا.

وكان يقول أيضًا: الكنيسة والجبانة شرعٌ، فالموت يرفرف فوق
الاثنيين على السواء، وأنا أحب أن أتعهد شيئًا حيًّا، إني أحب الحقول

ورعاية المواشي، لقد كان أسلافي كلهم رعاة، وكنت أنا راعياً حتى الثانية والأربعين.

وكان لاريون يتهم عليه عندما يسمع كلماته فيقول:

- كان للأقدمين إله للماشية يدعى فولوس، أتستبعد أن يكون جدّ جدّك؟

فيحييه القندلفت:

- هو ما تقول، لقد شعرت منذ زمن طويل بأني حفيد هذا الإله، ولكنني لم أجسر على إعلان الأمر خوفاً من الكاهن، فإياك أن تطلعه على حقيقة نسبي، إني سأكنم السر إلى أن تحين الساعة! ولم يستطع أحد أن يتزعزع من دماغه هذا الاعتقاد.

وقد كنت أنظر إليه نظرة ملؤها الشفقة والحزن واجتنب مناقشته وأحذره بقولي: حذار يا فلاسي، حذار من عقاب الله!

فيرد عليّ قائلاً: وكيف أخشى العقاب وأنا إله؟

أما أنا فقد شعرت بميل شديد إلى تقديس الكنيسة وما يلحق بها، كان كل شيء في نظري مقدساً، من الأيقونات إلى الأناجيل إلى القناديل والمبخرة، فحم المبخرة كان في اعتقادي نفيساً ثميناً، فإذا لمست آنية كنائسية، تخشعت وتحسست كأني ألمس شيئاً إلهياً منزلاً من السماء، وإذا صعدت درجات الهيكل، وقف قلبي عن الخفقان وشعرت كأن عين الله التي لا تنام ولا تغفل، ترمقني وتسدد خطواتي وتمدني بقوة

عظيمة وتنشر أمام بصيرتي نورًا ساطعًا.

وكنت في بعض الأحيان أنفرد في الكنيسة فيكتنفني الظلام من كل ناحية، أما قلبي فكان يسطع فيه النور الإلهي ويبدد منه آلامي وأوجاعي وما يعترى البشر من المصاعب.

[كلما اقترب الإنسان من الخالق ابتعد عن الناس] غير أنني لم أكن أفقه آنئذ معنى هذه التعاليم.

عكفت على مطالعة الأسفار الدينية التي تيسرت لي، فكان قلبي يمتلئ بالكلمات الإلهية، وتنتهل روعي من معينها العذب كوثر التقى والطهارة.

وكنت بعض الأحيان أدخل الكنيسة قبل الشروع في الصلاة فأركع أمام أيقونة الثالوث الأقدس واستمطر من عيني دموع الوضاعة والتخشع دون أن أصلي، وما عسى أن أطلب من الله في صلاتي، وأنا الذي أعبد عبادة نقية مجردة عن المصالح والغايات؟

كنت أخاطب ربي قائلاً: اللهم إني أصلي إليك لا طمعاً بنعيم ولا خوفاً من جحيم، ولكن اهتداء إلى صراطك المستقيم.

وكنت دائماً أذكر كلمات كان لاريون ردها على مسامعي، وهي:

إذا صليت بشفتيك فإنما تصلي إلى الهواء لا إلى الله، ليس الله كالإنسان. الناس يصغون إلى الكلمات، أما الله فيعني بالأفكار لا بالألفاظ.

وقد كنت أجثو أمام الأيقونة خالي الذهن نقي القلب، صافي
الضمير فأتزعم بأغنية مبهجة، ذلك لوثوقي بأنني لست وحيداً في هذا
العالم، وبأن الله كان قريباً مني يرعاني بعين عنايته.

آه، ما أجمل هذا العهد وما أحلاه، ما أعذب تلك التأملات الروحية
وما أسعدني بها!

ولكن هذه الغبطة الروحية التي ملأت قلبي كان يشوبها بعض
الأحيان شيء من الامتعاض والاستياء، بسبب ما كان يقذفه قندلفت
الكنيسة من السخافات والتجديف كقوله معكراً صفائي:

- ليس لي ما أصنعه هنا. أخلقت يا ترى لخدمة الكنيسة؟ كلا،
كلا، أنا إله، أنا راعي كل المواشي الأرضية، غداً أسير إلى الحقول،
لماذا نفيت إلى هذا المكان المظلم البارد؟

كانت هذه العبارات وما شاكلها مما يردده القندلفت تثير غضبي
عليه؛ لأنني كنت أعتقد أنها تشوه طهارة الهيكل وتُسخط الله.

وقد لحظ الجميع شدة تعبدي وتقواي، فإذا لقيني الكاهن هَشَّ لي
وباركني فأضطر أن أقبل يده الباردة، ومع أنني لا أحترمه ولا أخافه فقد
كنت أحسده لأنه تعمق في الأسرار الإلهية، كما كان يترأى لي..

وكانت عينا تيتوف لا تنفكان عن مراقبتي، كما أن القرويين كانوا
يحذرون كل الحذر أن يسيئوا إليَّ، وكثيراً ما سألتني أولغا ابنة تيتوف:
أأنت قديس؟

وفي ليالي الشتاء الباردة كنت أقرأ بصوت جهوري شيئاً من الكتب المقدسة فيصغي إلى قراءتي تيتوف وامرأته وابنته، وبعد أن أنتهي يسود السكون في البهو، فلا تلبث نظرات نسطاسيا قرينة تيتوف أن تتحول إليّ مقرونة بابتسامة عذبة.

ولكنني لم أحفل بما يكتنفني، بل تنصرف بي الأفكار إلى التأمّلات الدينية، فأراجع في ذاكرتي أعمال القديسين الشهداء الذين مجدوا اسم الرب في حياتهم ومماتهم. هؤلاء الشهداء كانوا أحبّ الناس إلى قلبي. وكنت أيضاً أحب رجال البر والإحسان الذين استعذبوا التضحية وأنكروا أنفسهم في سبيل محبتهم للقريب، بيد أنني لم أكن أفقه عمل أولئك الذين هجروا العالم باسم الله وقطنوا في الصحارى والمغاور... هل أحسنوا بعملهم هذا إلى الله أو القريب؟ هذا سؤال لم الجواب عنه، ثم أنتقل بالفكر إلى مسألة الشيطان محاولاً جلاء الغامض.

كان لاريون ينكر وجود الشيطان، بيد أنني، بعد الوقوف على حياة القديسين، رأيتني مضطراً إلى الاعتراف بوجود الشيطان.

وهناك نقطة لا يجوز إغفالها وهي سقوط الإنسان من الفردوس، فكيف يتيسر لنا فهم هذا السقوط إذا أنكرنا وجود الشياطين؟

كان لاريون يرى في الله الخالق الفرد الكلي القدرة، فمن أين نشأ الشر إذن؟

إن حياة القديسين تدلنا على أن الشيطان مصدر كل شر، واستناداً

إلى هذا اقتبلت في فكري اختصاص الشيطان بالشر.

الله خلق الورود والأزاهير، والشيطان صنع الأشواك.

الله خلق البلبال والعنادل، والشيطان البوم.

ومع أني افترضت وجود الشيطان فلم أكن لأومن به وأخافه، وإنما كان فرض وجوده ضروريًا لتعلقه بمنشأ الشر، ولكن مسألة الشيطان كانت تزعجني كثيرًا لأن وجود الشيطان يكشف شيئًا من شمس جلالة الخالق العظيم، وهذا ما أريده ولذلك كنت أتجنب زيادة التمحيص والتعمق في هذه المعضلة لئلا يطرأ على إيماني بعض الفتور.

أما تيتوف فكان يحاول دائمًا أن يصرف أفكاري إلى الخطيئة وإلى سلطة الشيطان، وكثيرًا ما كان يوجه إليّ أسئلة غامضة مبهمة لا أدري كيف أجيب عنها، وأذكر أنه قال لي ذات مرة بينما كنت أقرأ قصة داود الملك هذه العبارات:

- كان داود ملكًا مع هذا استولى عليه الخوف بعد ارتكاب الخطيئة أي أن الشيطان كان أقوى منه. كان داود نبيًا من أنبياء الله غير أن الشيطان انتصر عليه ودفعه إلى ارتكاب المعاصي والخطايا فماذا نتوقع نحن البشر؟ أنؤمل الانتصار على الشيطان وقد أعجز الملوك والأنبياء؟

لكي نجيب عن هذا السؤال! يجب أن نسأل سؤالًا آخر؟ لماذا خُلقنا؟

لقد خلقنا الله لكي نعبده.. وأيضًا الملائكة تعبده ولكنه يُسرّ بنا

نحن المخلوقين من تراب في عبادته عن تلك الصادرة عن النورانيين
أي الملائكة وذلك لأنه خلق لنا [روح منه + جسداً تريباً] وهذا الجسد
الترابي ميالاً إلى الخطيئة؛ لأن الشيطان قد دفعه الله إلى الأرض قائلاً
له أنت إله هذه الأرض؛ لذلك فإن مسرة الله تتجلى في أن تنتصر نزعة
الخير وهي الروح على نزعة الشر فينا المقيدة بالجسد الترابي الشيطاني
النزعة، وبذا يكون الإنسان قد انتصر بروحه على جسده أي على
الشيطان ويؤكد هذا قول بولس الرسول:

ويحي أنا من هذا الجسد!... كلما أردت أن أفعل الحسنى وجدت
الشر حاضراً عندي.

الخلاصة:

إذن... الشيطان موجود وهو أزلي (بإرادة الله) ودفعه إلهاً لهذه
الأرض؛ لكي ما يورثنا الشر والخطيئة.

فوقعت هذه الكلمات وقعاً سيئاً في قلبي الهادئ الساكن فاضطرب
وثار.

وأنكى من هذا أن تيتوف كان يطلب مني أن أصلي لأجله فيقول
لي:

- صلّ إلى الله عني وعن أسرتي وسله بحرارة أن يغفر لنا، صل
لأجلنا، فصلاتك تكافئ جميلي الذي أسديته إليك...

لقد كنت أرسل صلواتي طائشة دون هدف أو غرض، كانت

صلواتي كأغرودة الطير التي ترسلها إلى الشمس، مع هذا شرعت أصلي لأجل تيتوف وامرأته وابنتهما أولغا وقد كانت آنئذ صبية فتانة. كنت أتلو مزامير داود وسواها من الصلوات التي تعمها بالصلاة لأجل تيتوف فأقول: رب، تعهد عبدك تيتوف بشفقتك ورحمتك...

بيد أنني لا أكاد أشرع في الصلاة حتى يعتريني انفعال نفساني شديد وأشعر أن جبينني يندي خجلاً أمام الله فأمسك عن متابعة الصلاة وأغمض جفنيّ لئلا تقع نظراتي على وجوه القديسين المرسومة صورهم على الأيقونات، ثم أنهض وقد انشطر قلبي بين الأسف والخجل، وأحس أن غبطتي الروحية التي فاض بها قلبي بدأت تزول وتتلاشى بسبب تيتوف الذي لا تستطيع طهارتي أن تغسل موبقاته..

الفصل الرابع

على شاطئ الحياة، بين الحقائق والأحلام...

إذا جاءت الآحاد وخرجت من منزل تيتوف، أخذ الناس ينظرون إليَّ بعين الفضولي، فكان البعض يرافقونني ضاحكين وسواهم يحدجونني بنظراتهم الجافة، فلا أخطو بضع خطوات حتى يشيروا إليَّ قائلين: هذا هو الشقي!

أو يسألونني: أعزمت إذاً على ترشيح نفسك للقداسة؟
فيرد عليهم آخرون: إنه ليس بكاهن وهو إنما يؤمن بالله حباً للدرهم.

ويقول سواهم: ألم يقم بين القديسين رجال كانوا فلاحين؟
ويتهكم عليَّ البعض قائلين: ولكن ماتفي ليس فلاحاً إنما هو لقيط نبيل.

وهكذا يختلط المدح بالقدح والإكرام بالشتيمة. أما أنا فلم أكن أعبأ بما يقولون وأتابع سيرى.

كنت في هذه الأثناء راغبًا كل الرغبة في مسألة الناس لأعيش بهدوء وسكينة، غير أن الأشرار كانوا ينصبون لي الشراك ويحولون بيني وبين رغبتى، وكان أشدهم مضايقة لي سافيلكو، فهذا الرجل كثيرًا ما كان يجثو أمامي ويسألني متضرعًا ساخرًا:

- السلام عليك يا صاحب القداسة! صلّ لأجلي. لأجل سافيلكو وتضرّع إلى الله فلعله يستجيب صلاتك. علمني أن أكون حبيبًا إلى الله، قل ما ينبغي لي أن أصنعه لأنال حظوة في عينه! أأسرق فوق ما سرقت وأقترف من المعاصي أضعاف ما اقترفت ثم أحرق شمعة للقديسين؟

كان سافيلكو ماضيًا في حديثه والشعب حولنا يضحك ويقهقه، أما أنا فقد أصابني انفعال نفساني عميق مؤلم لم أعرف له نظيرًا.

وتابع سافيلكو خطابه هازئًا متهمًا: أيها النصارى المؤمنون، أحنوا رؤوسكم أمام هذا القديس الشاب الحامل نور الحق!

هو يسرق الفلاحين الفقراء ويبتز أموالهم في مكتب تيتوف، ولكنه يكفر عن خطاياهم في الكنيسة، إذ يقرأ الأناجيل ويتلو الصلوات ويجثو أمام الأيقونات المقدسة، وهكذا تتبخر دموع الفلاحين الأشقياء وتضيع صرخاتهم وأناتهم سدى في الفضاء، فلا تصل إلى مسامع الله ويظل التعس ملازمًا لهم!

كان عمري آنئذٍ ست عشرة سنة، فباستطاعتي إذن أن ألطم سافيلكو وأشج رأسه، ولكنني كظمت غيظي ابتعادًا عن الشر، فما كان من سافيلكو إلا أنه طغى وتجاوز الحدود فنظم أنشودة غناها في الشوارع على الكمان، وهذه الأغنية ترمي في الدرجة الأولى إلى تحقير تيتوف وتحقيري أنا.

وبديهي أن يثور ثائري ويساورني عامل انتقام من هذا الرجل الشرير، بيد أنني كبحت جماح غضبي، وكنت إذا تبعني سافيلكو منشدًا أغنيته الهجائية أنظاها بالتصام؛ لكي لا يشعر أحد بغیظي. ماذا أصنع لأتلافى الشر؟

عكفت على الصلاة بحرارة وخشوع؛ لأستمد بها حماية وقوة، غير أن صلاتي في هذه المرة كانت مملوءة شكوى وتذمرًا.

كنت أصلي قائلاً: «ربي وإلهي، ما هو الذنب الذي اقترفته حتى نبذني والدي وتركاني تحت رحمة الأقدار هارين مني، كأني حيوان أجرب؟».

الناس يولدون في مستوى واحد لا فرق بين هذا أو ذاك وكل منهم ينصرف إلى عمل. والعادة أو الاصطلاح هو الذي يهيئ الشريعة ويسنها، ومن الصعب أن يفهم البشر الهدف الذي يسددون إليه نصالهم، من الصعب أن يميزوا الأسباب التي تحرك هذا على ذاك، وتؤيد الواحد لتسحق الثاني.

هذا اللغز العويص كان يقلق فكري لذلك عزمت على درسه.

كان قسطنطين نيقولايفتش صاحب المقاطعة التي يديرها تيتوف رجلاً غنياً وملاكاً كبيراً، وكان في نظر أسرته ابناً مشؤوماً، فأمه شنقت في مقاطعتنا، وجده سقط عن فرسه فمات، وامرأته هربت وتركته على أحر من الجمر، وأنا لم أشاهده إلا مرتين، فرأيته بديناً طويل القامة ذا نظارتين مذهبتين، شرساً قاسي القلب.

وهو إلى هذا عالم متبحر له مؤلفات شتى، غيور على القيصر محب له، وقد أساء معاملة خوله تيتوف مراراً عديدة، وطالما تهدده بالضرب، ولكن إذا كان تيتوف كنعامة أمام قسطنطين، فهو أمام الفلاحين أسد وسيد مطلق يأمر وينهي.

أما المقاطعة التي كان يديرها فمنها ما كان يزرع فيه القمح وآخر مؤجر للفلاحين، ولكن صاحب الأراضي رأى بعدئذ أن يعدل عن تأجير حقوله طمعاً بزراعة الكتان، وذلك لأنه أنشئ بالقرب من المقاطعة مصنع للحياكة.

وكان رفيقي في المكتب يدعى إيفان ماكاريتش ينحصر عمله في المراسلات وعقد وثائق الإيجار مع الفلاحين وتقييد الحسابات، وكان كنوماً لا يبوح لأحد بما يأتيه من الأعمال المتعلقة بالمكتب.

غير أنه كان سكيراً خميراً مدمناً، وفي ذات مرة احتفل الفلاحون بعيد سيدة قازان وأسكروه فمات شهيد الخمرة. وعلى الأثر أسند إليّ تيتوف شؤون المكتب كلها، وعين لي مرتباً سنوياً قدره أربعون روبلاً وأوصى ابنته أولغا بمساعدتي في الكتابة وضبط الحسابات.

و كنت قبل أن أتسلم أعمال المكتب عالمًا بما ينطوي عليه، فهو لم يكن في نظر الفلاحين إلا الأجبولة أو الفخ الذي ينصبه الصياد للذئب. يدور الذئب حول الفخ، ويراه يدرك أنه شرك منصوب له، ولكن الجوع يغلب عليه وشهوته تشتد عندما يشاهد الفريسة التي يستهويه بها الصياد، فلا يلبث أن يهجم عليها مؤثرًا الوقوع في الفخ على أن يبيت على الطوى.

وهذه حالة الفلاحين أمام مكتب تيتوف.

ما مضت أيام على تسلمي الدفاتر حتى كشفت القناع عن أمر كنت أجهله كل الجهل، وهو أن المكتب قصر همه على سرقة الفلاحين وابتزاز أموالهم بأساليب شيطانية، إذ إن الفلاحين المستأجرين كانوا يدفعون الفوائد الفاحشة فتتراكم عليهم الديون ويضطرون أن يشتغلوا لا لأنفسهم بل لتيتوف وحده.

مساكين هؤلاء الفلاحون، لقد كانت عيونهم مملأى بالدموع، يكدون ويجتهدون ويعانون شظف العيش لدفع الديون التي كانت تطوقهم بسلسلة حديدية.

وعندما اطلعت على حقيقة أمرهم تندى وجهي خجلًا وحياء، وفهمت الأسباب التي حملت سافيلكو على إشراكي في تحقير تيتوف، مع هذا لم أعتقر له إساءته لأنني لست بالمذنب.

ورأيت أيضًا تيتوف يحتال على صاحب الأراضي ويبتز أمواله

بأساليب مختلفة، وقد انتبهت إلى أنه بحاجة إلى مساعدتي، فأخذت
أعامله معاملة الند للند قائلاً في نفسي: إنه يحتاج إليّ ليخفي سرقاته
عن عين الله!

وكان في هذا الوقت يدعوني «ابنه العزيز» وكذلك امرأته، ولم
يخلا عليّ بالملبوسات الطريفة الأنيقة مما لم أعرفه قبلاً. ولهذا يقضي
عليّ الواجب بعرفان الجميل.

غير أن هذا العطف لم يملأ نظري ويشبع قلبي، ولم يكن ليحببهما
إليّ، في حين أنني كنت أشعر بميل شديد إلى ابنتهما أولغا، فتستهويني
ابتسامتها النقية وصوتها الحنون وحديثها اللطيف وشعورها الرقيق.

وكان تيتوف وامرأته منكسي الرأس كفرنسين يحملان حملاً ثقيلاً،
فلا يشك من يراهما في أنهما يحاولان أن يخفيا في مطاوي سكينتهما
خطيئة أشر من السرقة.

وكانت يدا تيتوف تخيفانني وتقلقان راحتي. يا الله! لماذا يخبيئ
هذا الرجل يديه؟ ألعلما اقترفتا جريمة فظيعة؟ ربما كانتا مصبوغتين
بالدماء...

وكان الرجل وزوجه يرددان على مسامعي العبارة التالية:

- ماتفي، صلّ إلى الله ليغفر لنا نحن الخطاة المساكين!

وفي ذات مرة غلب عليّ الفضول فسألتهما:

- عجباً، أيجوز أن تكونا أكثر خطيئة من سائر الناس؟

فتنهت نسطاسيا وخرجت، وأدار زوجها ظهره دون أن ينبس بحرف.

وكان تيتوف شديد الوطأة على الفلاحين قاسي الفؤاد لا يلين لشكواهم ولا تأخذه عليهم شفقة، وقد نصحت له مرة أن يتساهل فردَّ عليَّ غاضبًا:

- إياك أن تلين أو تتساهل وإلا هلكت.

وأراد مرة أن يرغمني على تقييد حساب مزور فقلت له:

- إن ما تطلبه مستحيل لأنه ذنب لا يغتفر.

فرد عليَّ بقوله: وماذا يعينك ما دمت أنا الذي أرغمك على ارتكاب الذنب، ما هي خطيئتك ما دمت أنت مسيرًا لا مخيرًا. قيد ما طلبته منك ولا تقلق. فلن تؤخذ بذنب سواك. لا تخف فأنت لست مسؤولًا، واعلم بأنني لا أستطيع أن أعيش بمرتب عشرة روبلات في الشهر، لا أنا ولا سواي، أفهمت؟

فقاطعته مغتاظًا: كفى كفى، يجب أن تضع حدًا لأعمالك الشائنة، وإذا كنت لا تكف عن سرقة الفلاحين الفقراء، فأنا أعلن أمرًا للقرية! فنظر إليَّ تيتوف نظرة ملؤها التهكم والازدراء وسألني: أجاد أنت أم مازح؟

- إني جاد كل الجدد.

فقهقه ساخرًا وأجاب: حسن أيها القديس الصغير، سأتناقضى

الديون ريبالاً ريبالاً، عندما لا يبقى لي ما أسرقه، اشتغل بشرف. ثم خرج غاضباً ودفع الباب بشدة.

ويلوح لي أن تيتوف كف منذ هذا اليوم عن تقييد الحسابات المزورة، وهذا أمر لا أوكد، بيد أنني لا أذكر أنه طلب مني بعدئذ أن أساعده في سرقة الفلاحين.

وكان تيتوف لا ينكر على نفسه طلباً، ولا يكبح لشهواته جماحاً، كان يدرك قيمة المال، ويستهنئ اللحم الغريض، ويستمرئ النساء فلا ينفك عن العبث بهن والاعتداء على عفافهن بوقاحة غريبة، أما العذارى فكان لا يمسهن بسوء خوفاً من النتائج الوخيمة. وأذكر أنه حرصني مراراً على الحذو حذوه قائلاً:

- لماذا تتجافى؟ ألا تعلم أنك تحسن إلى المرأة إذا مددت إليها يدك؟ ليس في القرية امرأة واحدة لا تتحسر وجداً على من يداعبها وتتنهد جوى على من يلاعبها، وأنت شاب جميل قوي البنية، فلماذا لا تنعم باللذات؟

هذا المخلوق السافل كان يحسن الإغواء فيصور أفكاره الشريرة وميوله الحيوانية صورة جميلة تستهوي رائيها. وفي ذات مرة سألتني قائلاً:

- قل لي يا ماتفي، ما هي قيمة الرجل المستقيم في عين الله؟
أظننها عظيمة؟

فغضبت وأجبتة محتدماً: لا أدري.

وبعد أن سكت قليلاً تابع قائلاً:

- إن الله أخرج لوطاً من سادوم وأنقذ نوحاً من الطوفان، وأهلك عشرات الألوف بالنار والماء. لقد جاء في الوصايا الإلهية «لا تقتل».

وبعض الأحيان أقول في نفسي إن هذه الألوف إنما ماتت لأن ليس بينها رجال صالحون. وقد أراد الله، على ما في وصاياه من الشدة والقسوة، أن يعيش البعض عيشة ملؤها الطهر والنقاء. وإذا كانت سادوم خلواً من رجل صالح، فكان على الله أن يدرك ما في وصاياه من الشدة، ولو أنه يدرك هذا الأمر لخفف شيئاً من قسوة شرائعه بدلاً من أن يهلك ألوفاً من البشر استحال عليهم العمل بأوامره ونواهيته.

يقولون إن الله رحيم شفيق ولكن أين رحمته وشفقته...؟

أما الهدف الذي رمى إليه تيتوف من وراء كلماته فهو أن يحلل لنفسه ارتكاب الخطيئة ويزين لها ارتكاب المعاصي.

فرددت عليه والغضب أخذ مني مأخذه:

- دعك من الكفر والتجديف، أراك تخاف الله، ولكني لا أراك تحبه.

- ربما كنت مصيباً، وعلى كل فأحسبكم أنتم الأتقياء المتعبدین مقياساً لله في محاكمة الخطاة والأشرار، ولولاكم لتعذر على الديان أن يميز بين الصالح والخاطئ، وأن يحدد الخطيئة ويقدرها...

وبعد هذه المناقشة اقتصر تيتوف في أحاديثه على الشؤون المتعلقة بأعمال المكتب دون أن يتعدها إلى سواها، أما أنا فحقدت عليه حقاً شديداً ملأ روحي.

وازداد سافيلكو قحة وفضولاً حتى مجّته نفسي وكرهته كل الكره، فلم أستطع احتماله.

وكان إذا خطر تيتوف في ذاكرتي عندما أصلي مساءً، ينتابني ما يشبه الحمى وتثور كوامن غيظي، فلا ألبث أن أتمرد وأصلي إلى الله قائلاً:

«ربي وإلهي، إني لا أحب أن تشمل بعطفك ورعايتك لصاً دنيئاً، أتضرع إليك أن تعاقبه وتؤدبه، فلا يبتز الفقراء التاعسين ولا يمد يده إليهم بسوء».

وقد تضرعت إلى الله بحرارة وخشوع وجثوت على قدمي وأغمضت عينيّ وتصورت في مخيلتي العقاب الشديد المعدّ لهذا الرجل.

ومثل سافيلكو ذات يوم في المكتب وأخذ يتهكم عليّ ويسخر بتقواي وورعي، فلم يسعني إلا أن أقبض على عنقه وأضغطه فصاح متألماً ومد يده وأزاح أصابعي قائلاً:

- ارفع يدك فلا طاقة لي باحتمال الألم، وعلاوة على هذا ألا تدري أنك بعملك هذا تخالف تعاليم الإنجيل!

فأجبتة محتدماً غيظاً: ويل لك أيها الخبيث، بماذا أسأت إليك
حتى تزدريني؟ ألأن أبويّ عقّاني وتبرّآ مني؟

فقال: دعنا من الرياء والمراوغة، نحن نعرف الحقيقة. أنت تأكل
الخبز المسروق، وتعلم أنه مسروق...

- كذبت يا منافق يا خبيث، إنما آكل الخبز الذي أربحه بعرق
جيني بعلمي.

- هذا ما أعتقد، السارق يحتاج إلى العمل عندما يسرق، ولو
كانت سرقة دجاجة...

ثم أخذ يحدّثني بنظرات ملؤها التهكم والازدراء، وبعد قليل غير
لهجته ورمقني بعطف قائلاً:

- إنني أذكر يوم كنت صغيراً يا ماتفي، وأذكر نقاء قلبك وصلاحك،
واليوم وقد أصبحت عالماً وتقيّاً زائفاً وتخلقت بأخلاق اللصوص،
عمدت إلى الاستتار بنقاب الدين ودللت بعملك على أنك كسائر
الناس لا تعفّ إذا سنحت الفرصة...

وما طرقت عباراته مسامعي حتى طرده من المكتب. لقد أهانني
وعدّني تقيّاً كاذباً، وأنا أحسب نفسي عبداً صالحاً وخادماً أميناً لله.

وما إن غاب ظله الثقيل حتى ارتميت على مقعدي وقد شعرت
بوهن شديد ولهفة قوية.

كنت في ذلك العهد ابن ثمانين سنة، شاباً في فجر الحياة

أشعر بما يحسه من كان في سني . أردت أن أتقرب إلى أولغا ابنة تيتوف
ولكنني لم أجسر ولم يكن لي من الجرأة ما يشجعني، وكانت النساء في
القرية يتهمن عليّ ويزدرين حياتي حتى أولغا كانت تضحك مني !
وفي ذات يوم خالجتني فكرة غريبة فأخذت أقول في نفسي :

- ما أسعدني رجلاً إذا استطعت أن أقترن بأولغا!

كنت أمني النفس بالسعادة وأحلم الأحلام الذهبية ولكن مع هذا
لم أتجرأ أن أكاشف أولغا بمكنونات قلبي .

كنا نقضي الأيام معاً في المكتب دون ثالث أو رقيب، مع هذا لم
أجرؤ على الاسترسال معها في الحديث .

كانت أولغا نحيلة الجسم بيضاء البشرة كالزنبقة، كانت عيناها
الزرقاوان تفيضان ذكاء وكآبة فتبدو لي أجمل المخلوقات وأفتنهن .

وفي أحد الأيام سألتني : علام كآبتك يا ماتفى ؟

وقد كان هذا السؤال فاتحة عهد جديد، إذ تمكنت أن أبسط لأولغا
شيئاً من أسباب حزني ومرارة روحي، وقد كنت قبل الآن أكتم كل
الكتمان ما يغشاني من الكآبة العميقة .

قصصت على أولغا حقيقة أمري، ولم أكتم عنها سر ولادتي وما
نالني من العار والخزي وسردت لها كل ما أشعر به من التعس والشقاء
ثم أوردت لها اشمزازي من سلوك أبيها الشائن فلم أشك سوء حظي
ولا رثيت لما انتابني، بل بثت لها ما في صدري وعبرت عما أشعر به

في داخلي وختمت كلامي قائلاً:

- إنني سأصبر على أمري، فأوي إلى أحد الأديار حيث أنال السلام الداخلي.

وكان لقصتي وقعها المؤثر في قلب أولغا الحنون، فما إن أتيت عليها حتى خفضت رأسها وأطرقت مغتمة صامتة.

وبعد ثلاثة أيام أسرت إليّ قائلة: لا تحزن ولا تكتئب، أنت اليوم وحيد، ولكن هذه الوحدة لا تلبث أن تزول إذا تزوجت فتعيش كسائر الناس هنيئاً في مراتع العائلة وبين جدران بيتك.

أما أبي فلا تغضب عليه، الكل يمقتونه وأنا أعلم هذا، ولكني لا أراه أسوأ من سواه. هل رأيت بين الناس من لا يحب نفسه؟ الغيرية وعدم المبالاة ومحبة القريب وسواها من الفضائل ليست إلا أساطير خرافية في هذا العصر.

وقد جاءت كلماتها بلسماً لجراحي وتعزية لروحي، فاغتنمت الفرصة وبحث لها فوراً بسري المكنون وقلت لها: أتريدين أن تكوني زوجاً لي يا أولغا؟

فاصطبغ وجهها بقرمز الحياء ثم أطرقت وأجابتنني بصوت منخفض: نعم، أريد.



الفصل الخامس

الفأس التي صرعت الخير لتشييد منزلاً وأسرة...

في صباح اليوم التالي قابلت تيتوف وقلت له إنني راغب في
الاقتران بأولغا وإن كلينا «مرتبط» بعهود الحب، فابتسم وأخذ يلعب
شاربيه وأجابني:

- يلوح لي يا ماتفي إن إرادة الله توفر الأسباب لتكون ابنًا لي، علامَ
الإنكار؟ أنت شاب قوي المبدأ متواضع تتمتع بصحة حسنة، فضلًا
عما تزدان به من الفضائل النفسية، فلا أغالي إذا قلت إنك كنز ثمين.
ولكن مصاعب الحياة كثيرة ومن شاء أن يذلها فعليه أن يكون
خبيرًا في أدوارها عالمًا بأسرارها، وأنت على ما يبدو لي لا تدرك شيئًا
من أمر الحياة العملية، وهذه أول عقبة تحول دون مرامك.

أما العقبة الثانية فهي إنك بعد سنتين مضطر إلى الانتظام في السلك العسكري، فلو كنت وفرت خمسمائة روبل مثلاً، لاستطعت التملص من الجندية وأنا نفسي أدبر الأمر، بيد أنك لا تملك شيئاً من المال ولذلك يتحتم عليك أن تلبّي دعوة الحكومة، وتسافر إلى حيث تمارس الخدمة العسكرية وتغادر أولغا وتركها لا هي متزوجة ولا أرملة ولا أيّ...

وقد وقع جوابه في قلبي وقوع السهم وخصوصاً عندما أتى على ذكر الخدمة العسكرية التي كنت أكرهها كرهاً أعمى. فأنا لم أشعر قط بميل إلى حمل السلاح ولم أفكر يوماً أن أنخرط في السلك العسكري. كانت ثكنات الجنود في نظري بؤرة فساد وشر ورذيلة وأنا لا أطيق المعيشة في هذا الأتون وأحاول بكل قوتي أن أبتعد عنه، فلما رأيت تيتوف يلوح به متوعداً أجبته:

ما دام الأمر كما ذكرت فأنا أنتظم في سلك الرهبانية.

فرد عليّ ضاحكاً: لقد فاتك الوقت وأضعت الفرصة المناسبة، فالاندماج في الرهبانية لا يتم من يوم إلى آخر، أما الإخوة المتبتلون فهم يساقون إلى الجندية كسائر الشبان دون أن تكون لهم ميزة. نعم يا ماتفى، لا منقذ لك من الجندية إلا المال، المال وحده هو الذي يقيك... فأجبهته دون تفكير: أما والحالة على ما ذكرت، فاعطني شيئاً من المال، إنك غني كبير ولا يصعب عليك أن تقدم لي ما يعوزني...

فرد عليّ ضاحكًا: ما أشد سذاجتك يا ولدي! إنك ترى الأمر سهلًا وما هو بالسهل، أنت تستسهل الطلب، ولكنك لا تعلم كم عانيت في سبيل حشد المال... تأمل مليًا... ربما كنت قد جمعت ثروتي بارتكاب الجرائم واقتراف الذنوب والمعاصي... نعم، من يدري، ربما كنت أضطر بعض الأحيان إلى أن أبيع روحي للأبالسة طمعًا بنيل الثروة.. فهل ترى من العدل بعد ما ارتكبت ما ارتكبته أن أتلطخ أنا بسعفة العار والخطيئة، وتعيش أنت بحسابي شريفًا نقيًا بعيدًا عن الشبهات والظنون بريئًا من الجرائم؟ ليس هذا من الإنصاف في شيء يا عزيزي ماتفي!

إن الصالح يستحل الدخول إلى الجنة على أكتاف الخاطيء، بل ليس بين الناس من يرفض الجنة إذا وجد خاطئًا يحمله إليها... أما أنا فلست بالرجل الذي يصلح ليكون مطيتك، ولا أَرْضَى أن أكون سلمًا تصعدُها أنت للوصول إلى السماء.

أتريد المال؟ ارتكب الخطايا والمعاصي، اقترب الذنوب والله يغفر لك، أنت الذي نلت غفرانه سلفًا...

فصعدت نظراتي في تيتوف وخُيِّل إليّ أنّي أنه تسامى إلى الذرة العليا وتركني في أسفل الهاوية، تراءى لي حينذاك أنه أرفع مني وأناي منطرح على قدميه ذلاً وخنوعًا، بل تمثل لي أنني دونه ذكاء وصلاحًا... فأمسكت عن الكلام بعد ما أعجزني وهدم آمالي.

وعند الأصيل أطلعت أولغا على ما قاله أبوها، فانهمرت الدموع من عينيها وأجابني كئيبة: إن الرياح تسوق شراع آمالنا إلى غير ما

نشتهي...

فكان لهذه العاطفة التي أبدتها أولغا وقعها القوي في فؤادي
وأجبتها فوراً:

- لا تحزني، فستجري الرياح على ما تمنى.

وقد كانت هذه العبارة التي لفظتها عفو الخاطر دون تفكير، بمثابة
عهد قطعته على نفسي أمام أولغا، فمن البديهي أن أبذل ما فوق طاقتي
للقيام به.

ومنذ هذه الدقيقة شرعت في العمل وتذرعت بالخطايا والذنوب
للوصول إلى الغاية التي تنيلني الفوز بأولغا.

كنت في ذلك العهد مضطرباً حائراً لا يقر لي قرار، كنت كالأعمى
الخابط في دياجير الظلام، بل كنت أتسكع في داخلي كما تتسكع
الحمامة في دخان كثيف اندلعت فيه ألسنة النيران.

إني أحب أولغا وأريدها قرينة لي، بيد أن والدها يأبى إلا أن
يحملني ما فوق طاقتي، وقد هالني أن أعترف له بقوة مراسه ومضاء
عزيمته وصلابة إرادته.

كنت أحتقره وأشمئز من أعماله المنكرة وخصوصاً سرقاته
وابتزازه أموال الفلاحين الفقراء، ولكن مع احتقاري له لم يسعني إلا أن
أعجب بقوة إرادته ومقدرته على تسخير الناس طبقاً لمشيتته، فما عسى
أن أصنع أمام هذا الخصم العنيد؟

وزاد في آلامي النفسانية أن القرويات أخذن يزدرينني ويتهكمن عليّ؛ وذلك بعدما شاع في القرية أنني خطبت أولغا وردني أبوها خائبًا. وكنت وقت الصلاة أتمثل تيتوف واقفًا ورائي ييث في أفكاره، فيشتد قلقي وأنضرع إلى الله قائلاً:

- أغثني يا رب وساعدني! سدد خطواتي في طريقك القويم واحفظ نفسي نقيّة من أدران الخطيئة. أنت يا رب عظيم رحيم، فابعد الشر عن عبدك أيها الكلي القدرة وامنحه القوة؛ ليكافح التجربة ويسلم من الوقوع في حبال الأشرار.

يا الله! رأفتك وحلمك، فلا يتطرق الشك في محبتك إلى قلبي. وعلى هذه الصورة كنت أدعو الله إلى الهبوط من أعالي مجده ليدافع عن مصالحني الشخصية الحقيرة. كنت أدعوه ليسقط إلى الدرك المادي الأسفل، ليحقق رغباتي الأرضية! تبّاً لي...

وكانت أولغا تذوب كآبة يومًا فيومًا كالشمعة التي يذيبها اللهب ولم تكن أمها أقل حزنًا منها، إني أذكر نظراتها وتنهداتها، وأقابل بينها وبين زوجها الذي كان يحوم حولي كما يحوم الغراب حول كلب يحتضر حتى إذا دنت الساعة فقأ عينيه بمنقاره والتمهما.

ومضى شهر على هذه الحالة خلّتني فيه واقفًا على شفا جرف هار لا أدري كيف أنجو من السقوط في الهاوية العميقة الماثلة أمامي.

وفي ذات يوم دخل تيتوف المكتب وخاطبني بصوت يشبه الهمس قائلاً:

- اصغ إليّ يا ماتفي، لقد جاءتك فرصة سانحة فانتزها إذا شئت
أن تكون سعيدًا، وبالتالي رجلًا!

ثم أخذ يشرح لي المقصود بالفرصة السانحة، وإنما هي كناية عن
سرقة يجني تيتوف من ورائها مائتي روبل، ويخسر الفلاحون مقدارًا
كبيرًا، وبعد أن أطلعني على الأمر سألني: والآن ماذا تقول؟ ألك جرأة
على هذه الصفقة الرباحة؟

وقد غرّني بالغرار الذي طبع عليه هذه «الفرصة السانحة» فأجبتة:
- أجرة على السرقة؟ إن ما تطلبه مني لا يسمى جرأة، وإنما يدعى
سفالة وحطة، فلنسرق وليكن الأمر كما تشاء.

فأغرق في الضحك وسألني: والخطيئة؟ أنسيت الخطيئة؟
فأجبتة محتدماً غيظًا: أنا نفسي أحل نفسي من خطاياي.
فارتاح إلى جوابي وقال: اعلم إذن أن يوم خطبتك على أولغا
قريب.

آه! ما أشد بلاهتي وغباوتي، لقد نصب ليّ الفخاخ فسقطت فيها
على أهون سبيل، ثم باشرنا أعمالنا اللصوصية وشرعنا نبتز القرويين،
وكنت أنا وتيتوف كلاعبي شطرنج إذا هجم هجمت وإذا استدرجني
إلى خدعة كشفتها واستدرجته إلى سواها.

لم يكن أحدنا يكلم الآخر غير أن النظرات التي نتبادلها كانت
تكفي للتفاهم.

تيتوف انتصر عليّ فخسرت كل شيء، بيد أنني لم أرض لنفسي أن
أكون خلفه حتى في الأعمال السيئة!

كنت أتسلم نتاج الكتان من الفلاحين فأتلعب في تقييد الوزن
وأسرق ما أشاء. وأقيد على الفلاحين غرامات مالية متذرعًا بما ألحقته
مواسيهم من الأضرار في حقول صاحب الأرض. ولا أغفل بابًا من
أبواب السرقة، فاستل من القرويين المساكين أموالهم فلسًا فلسًا،
وامتص دماءهم نقطة نقطة، بيد أنني لم أقبل أن أقبض هذا المال الحرام
السحت بل تركت أمره لتيتوف.

كنت في تلك الأثناء كالوحش الضاري الذي لا يعبأ بفريسته.

وكنت إذا فكرت في الله شعرت كأن في عنقي حبلاً مشدودًا لخنقي
فأذوب حسرة ولهفة وأوجه لومي إلى الله قائلاً: لماذا لا تمدني يا رب
بقوتك وتحول دون سقوطي؟ لماذا تعرضني للتجارب التي تفوق
قوتي؟ ألا ترى يا رب أن نفسي بدأت تضل وتتلطخ بأدران الخطيئة.

وكان يعتريني في بعض الأحيان انفعال نفساني شديد فأمقت نفسي
وأولغا معًا، وأنظر إليها في داخلي نظرة الاشمئزاز والغضب قائلاً:

- يا شقية، لولاك لما تلطخت روحي بسعفة الأوزار وتعرضت
للهلاك! ولكني لا ألبث حتى أندم ويستولي عليّ الخجل، فأدنو من
أولغا متجنبًا مفكرًا عن إساءتي الفكرية. والحقيقة أنه كانت تغلي في
صدري مراحل الحنق وتتذوق روحي مرارة الحياة، لا شفقة عليّ أو
على ضحاياي من القرويين، بل كمدًا وهماً وقهراً لأنني لم أستطع أن

أنتصر على تيتوف، هذا الرجل الذي قادني بقوة إرادته إلى حيث شاء
وسخرني لتنفيذ مشيئته، وكنت إذا ذكرت كلماته في صدد الصالحين
الأبرار تعتريني قشعريرة واهتز حنقًا وسخطًا. وفي ذات يوم جاءني
تيتوف وقال:

لقد حان أن نفكر في مستقبلك أيها الرجل القديس، أنت مقدم
على الزواج فمن الواجب أن نهتم بتدبير منزلك.

يا سبحان الله لماذا دعاني «الرجل القديس» لا أدري.

وبعد أيام استطاع تيتوف أن يستوهب من صاحب الأراضي
لوسيف بقعة من أملاكه، وذلك بعد أن توصل إليه وتضرع واستعان
بكل الذرائع التي تسترق القلوب، وكانت البقعة جميلة تقع بالقرب من
القرية. وعلى الأثر أمر تيتوف بتشييد منزل صغير فيها يصلح لسكنانا.

كان النجاح حليفنا في أعمالنا الصيرفية فامتلات الخزانة بالأموال
المبتزة من القرويين المساكين.

وبعد مدة قصيرة انتهى البناءون من تشييد المنزل الجديد، ولم يبق
إلا القليل حتى ينجز العمل.

واتفق في أصيل ذات يوم أنني بينما كنت عائداً من جاكيموفكي
حيث ضبّطت مواشي الفلاحين المديونين، إذ رأيت ألسنة النار تندلع
على مقربة من القرية.

فأسرعت واجتزت الغابة المحيطة بالقرية وأرسلت نظراني فرأيت
النيران تلتهم المنزل الذي بناه لي تيتوف.

فانفطر قلبي حزناً وألمًا وشعرت أن الله شاء معاكستي، فاحترمت
غيظًا وتمنيت لو أنني قادر على قذف السماء بحجارة غضبي وحنقي
إذن لرميتها وثأرت لنفسي، وكيف لا أتميز غيظًا وتثور مراحل الحقد
في صدري وقد رأيت أمام عيني ثمرة سرقاتي ونتاج خطاياي يتحولان
بين لحظة وأخرى إلى رماد؟

رفعت بصري إلى السماء وخاطبت الله قائلاً: «أتريد أن تبرهن
لي على أنني آثرت الرماد والدخان على نقاء النفس والصلاح؟ أتريد
أن تقول لي إنني بعت دنيائي بديني؟ كلاً، فأنا لا أؤمن بك، ولا أَرْضَى
هذه الوضاعة والذل. إن البيت لم يلهب بإرادتك، الفلاحون هم الذين
أحرقوه مدفوعين بعامل الموجددة على تيتوف وعليّ.

إذا كنت أنكر حنقك يا أله فما هذا لأنني لا أستحق غضبك، بل
لأنه يشينك ولا يستوي مع عظمتك!

أنت، أنت المذنب وأنت وحدك المسؤول عما اقترفته لا أنا، وإلا
فلماذا لم تمدّ إليّ يد المعونة والغوث في ساعة التجربة؟ لماذا سددت
في وجهي سبيل الخلاص وأبيت أن تمدني بالسلاح لمحاربة الخطيئة؟
لقد استسلمت للمعاصي والذنوب كذاك الذي أوغل في غابة كثيفة فتاه
ولم يهتد إلى الطريق الأمين!«.

ولكن هذا التجديف لم يسكن تأثري ولا أخمد نيران حنقي بل
زادها تأريثًا. والتهمت النيران البيت قبل أن تسكن عاصفة ثورتي
النفسانية.

كنت مستنداً إلى شجرة أشاهد خيبة أمالي وتبعثر أمانِي، فأغمضت عيني، وتمثلت أولغا أمامي وقد شحب وجهها المشرق حزناً ولهفة واغرورقت عيناها بالدموع وتفجرت من صدرها التهنيدات والتأوهات، فثارت روحي وتمردت على القدر الأعمى الذي بطش بي وأنا لا أزال بضيق اللحاء فرفعت رأسي وأرسلت بصري إلى السماء وقلت لله: (إذا كنت أنت قوياً فينبغي لي أن أكون قوياً أيضاً بهذا يقضي الحق والعدل).

وبعد قليل خمدت النيران وغمرت الظلمة والسكينة تلك البقع، ولم يبق هنا وهناك إلا بعض الألسنة النارية فوق أكوام الرماد كأنها نشجات طفل نهكه البكاء.

كانت الغيوم الكثيفة تحجب وجه السماء فيبدو الجدول الناء في الحقول كنصل سيف صقيل، فوددت لو تناولته بيدي وأطلقتته في الهواء ليشق جوف السماء!

وعند منتصف الليل عدت إلى القرية فرأيت أولغا وأباها ينتظراني على باب البيت وما إن دنوت حتى ابتدرني تيتوف قائلاً:

- أين كنت بعد هذه الغيبة الطويلة؟

فأجبته: كنت على الجبل أشاهد النار.

- ولماذا لم تسرع لإخماد اللهب.

- وهل تحسبني قديساً يصنع العجائب. إن النيران لا تنطفئ ببصقة ألقها فوقها.

وبعد أن أطرق تيتوف مفكرًا قال: والآن لا أدري ماذا أصنع؟
فأجبتة: يجب أن تهتم بترميم المنزل أولاً.

كنت واضحًا نصب عيني تذليل كل العقبات لإعادة بناء منزلي المحروق، وكنت أشعر بقوة غريبة في داخلي تدفعني إلى العمل، ولو استطعت لشيدته بيدي. لقد عصيت الله وأغضبته ولكني مع هذا كنت أريد أن أعرف أهو معي أم عليّ؟

كنت أعلم علم اليقين أنني ضحيت بهناء الكثيرين وأنزلت دموعهم وأبكيتهم، كنت أدري أنني اختطفت الخبز من أفواه تاعسين كثيرين، كنت أعرف أنني قسوت على الأطفال وتركتهم تحت رحمة الأقدار؛ لأنال مأربي وأفوز بغرضي، ولكني مع هذا كله، مع كل ما جررته من الويلات على أولئك القرويين المساكين، لم أنفك عن السرقة والاحتيال.

أما اليوم فأخجل من نفسي عندما أفكر في هذه الأعمال الشائنة التي ارتكبتها ولطخت بها نفسًا نقية.

كنت في تلك الأيام استحيي أن أمثل أمام صور القديسين، فإذا وقع نظري على إحداها خفضت الطرف حياء وخجلًا بل خوفًا من السهام الحادة التي كانت تسدها إلى صدري عيون القديسين في الأيقونات.

واتصل الأمر بي إلى أنني حللت لنفسي حتى السرقة المباشرة، ففي ذات مرّة رأيت على مكتب المدير العام نصف روبل فمددت يدي إليه

ووضعتة في جيبي كأحد اللصوص.

إذا كان الذين أثروا ممتصين دماء الشعب مبتزين أمواله بشتيت الأساليب قد نزهوا النفس عن السرقة فأنا لم أنزه نفسي عنها.

وفي أحد الأيام جرت لي حادثة مؤثرة تركت في نفسي وقعاً قوياً.

جاءتني أولغا فطوقتني بذراعيها وقالت لي بلهجة عذبة رقيقة:

- ماتفي، أسأل الله أن يكون معك، إني أحبك حباً جماً، ولا أؤثر عليك شيئاً في الدنيا!

لفظت أولغا كلماتها بسذاجة تشبه سذاجة الأطفال عندما ينادون «ماما» فشعرت آتئذ بسعادة لا توصف وأحسست بقوة جديدة بعانقتها عناقاً طويلاً وضممتها إلى صدري بحرارة تشبه حرارتي في صلواتي السابقة!

وبعدما انتهى البنّاؤون من ترميم البيت المحروق اقترنت بأولغا في حفلة حافلة ضمت أكابر رجال المقاطعة كالكاهن ومحرر العقود وضباط الشرطة وسواهم من هم دونهم شأنًا. واندفع تيتوف بعامل الجذل فشرع يحتسي الكأس تلو الكأس إلى أن أخذت منه الخمر فأخذ يقهقه ويعربد، أما قرينته فكانت تارة ترسل إلينا نظراتها وتبكي دون أن تنبس ببنت شفة، وطورًا تبتسم لنا والدموع تنهمر من عينيها، فلا يلبث زوجها أن ينتهرها قائلاً: دعي البكاء يا امرأة واغتبطي بالصهر الذي ساقه إلينا الحظ إنه رجل مستقيم قديس.. ثم يقهقه مبتهجاً أو ساخرًا.

وكان الفلاحون قد تجمهروا تحت النوافذ لمشاهدة الحفلة، وبعد أن انتهت صلاة الإكليل أخذ سافيلكو يغني وهو يعزف على قيثارته فاستعذبت غناؤه وأصغيت إليه وسررت بنكاته ودعابته اللطيفة وصفق له القرويون واستعادوا الغناء.

وكانت أولغا تتمنى أن تنتهي الحفلة وينصرف المدعوون فنستيرح من قيود التشريفات وثقالة الضيوف، إلى أن منّ الله علينا بالفرج فخلوت بأولغا وأخذنا نبكي كلانا.

تعانقنا على السرير وسكرنا بخمرة الحب المقدس، وتعاطينا كؤوس السعادة مترعة على سمر أرق من النسيم، وأعذب من الراح، ورحنا بنبي العاللي والقصور حتى أدركنا الصباح.

قالت لي أولغا وقد ضمتني إلى صدرها: ما أعذب الحياة بين ذراعيك أيها الحبيب، إنني أرجو أن نكون أصدقاء أحياء لجميع الناس فتم ههنا.

فاغبت نفسي السكرى بخمرة السعادة غير الموصوفة وأجبتها:

- قسا عليّ ربي إذا قسوت عليك يا أولغا، يا حبيبة قلبي.

فقالت بلهجة ملؤها الحنو والرقّة:

- سأكون لك امرأة وأمًّا يا زوجي المسكين، فأعزبك وأسليك وأشاطرك الهناء والشقاء!

الفصل السادس

القلب الذي يخلو من الخير يسكنه الشقاء

مرت الأيام هنيئة كأنها أحلام ذهبية تملأ النفس ابتهاجًا، فلا يكاد ينتهي العمل حتى أهرع إلى البيت وأعانق امرأتي بحرارة وأنحدرت إليها وألقي في أذنيها أنشودة الحب.

كنت أذكر طفولتي، فأجوب الحقول والغابات برفقة أولغا لاصطياد العصفير فما مضى إلا القليل حتى غطت الأقفاص جدران الرواق، وأولعت أولغا بالطيور ولوعًا شديدًا فكانت تعتني بها كل العناية وتصغي إلى تغاريد البلابل والعنادل جذلة.

وكنت أقضي ساعات الليل بالحديث عن طفولتي فأقص على أولغا أخبار لاريون وسافيلكو والمجادلات التي تدور بينهما حول الله. يستحيل عليّ أن أصف السعادة التي ظللتني في حياتي الزوجية بعدما ذقت مرارة الحياة وشربت كأس أتراحها، وكثيرًا ما كنت أسائل

نفسى: أفي يقظة أنا أم في منام؟ من يصدق أن في الحياة الدنيا جمالاً
وغبطة لا يُحْدان؟

آه، ما أحبّ الحياة إليّ بين ذراعي أولغا.

كنا نذهب معاً إلى الكنيسة فنزوي في أحد جوانبها في الصلاة
بحرارة فأوجه إلى الله آيات الحمد والاعتراف بالجميل مختلاً زاهياً،
كأنني انتصرت على القدرة الإلهية التي أرغمتها على أن تفتح لي سبيل
الهناء والسعادة وتسبل عليّ وشاح النعمة والغبطة، فلما أذعنت لي
شكرتها وحمدتها قائلاً: «لقد أحسنت يا رب وأصبت وأنصفت وقمت
بما يجب أن يكون».

آه! ما أسوأ أفكارى!

ومرّ الشتاء دون أن أشعر به، مرّ كأنه يوم مشرق تلالأت شمسهُ
وصفاً أديم سمائه واعتل نسيمه واعتدلت حرارته.

كنت ثملاً بخمرة الحب، لا أرى حولي إلا الأزاهير والرياحين.

ما أعظم قوة الحب وما أشد تأثيره في القلب!

وفي ذات يوم أعلنت لي أولغا أنها حبلى، هذه البشرى ضاعفت
أسباب مسراتنا وأفراحنا، رباه! ما أكرمك وأغزر آلائك.

وخطر لي آنئذ أن أهتم بالمستقبل فعزمت على إنشاء خلايا لتربية
النحل باسم لاريون تيمناً وتبركاً، وقررت أيضاً أن أعتني بالزراعة،
وهذان الأمران لا يجلبان ضرراً لأحد.

بيد أن تيتوف عذلني وقال لي بلهجة المتهمك: ما أسرع ما تحولت إلى خمرة عذبة! فانتبه لنفسك لئلا تتحول إلى خلّ أنسييت أنك ستصبح أباً في خلال الصيف؟

كنت قبل أن أسمع هذا التقرّيع من تيتوف أشعر بميل شديد لأصارحه بما أحسه فأميط له اللثام عن الحقيقة على ما أدركها، ولذلك اغتنمت هذه الفرصة ورددت عليه قائلاً: لقد اقتربت من الذنوب والمعاصي ما يفوق طاقتي، وهبطت إلى المستوى الأدنى وتمرغت معك في حمأة الرذيلة، أما أن أهبط إلى دون مستواك فهذا ما لا أقبله أبداً!

فأجابني: لا أدري ما ترمي إليه، فكل ما أريد أن ألفت نظرك إليه هو أن مرتبك الاثنين والسبعين روبلاً لا يكفي لنفقاتك السنوية، وأنا لا أرضى أن تنفق من بائنة «دوطة» ابنتي لتعيش، هل أدركت ما أعنيه؟ وهل علمت أنني أذكى منك؟

إن كل معارفك مقصورة على كرهى وبغضى، بيد أن حقدك هذا لا يفيدك ولا يفيدني. ولا تنس أننا كلنا قديسون أطهار متى نام عنا إبليس. وقد كتمت غيظي وملكت عواطفى رافة بأولغا فلم أناقشه وأجادله. وبعد قليل انتشر في القرية خبر التنافر الواقع بيني وبين حمى، فأخذ القرويون ينظرون إليّ بعين العطف.

وكانت السعادة التي تجلببتها بعد الزواج قد هذّبت نفسي وصقلت

خلقي وأولغا بدورها كانت رضية الأخلاق نقية القلب. ولذلك أخذت
أعوض على الفلاحين وأجاملهم وأعاملهم بالحسنى، فأساعدهم بما
أقوى عليه وأغض الطرف عن إساءاتهم، غير أن القرية كانت كالبيت
الزجاجي، كل يرى ما يصنع جاره، وهذا ما أثار ثائرة تيتوف فقال لي
غاضبًا: أتريد أن تجدد عهدك لله؟

فعزمت على مغادرة المكتب وقلت لأولغا:

- إنني أستطيع أن أكسب شهرًا ستة روبلات فما فوق في صيد
العصافير.

فحزنت وأجابت: اصنع ما يحلو لك، ولكن حذار من الوقوع في
برائن الفاقة، إنني أرثي لأبي فهو يرجو لك الخير، وقد اقترف خطايا
كثيرة في سبيلنا.

وفي اليوم التالي أطلعت تيتوف على ميلي إلى الاستقالة من
خدمته في المكتب فسألني مازحًا: ألعك تنوي الانخراط في السلك
العسكري؟

فأدركت حالًا ما يعنيه وتصورت الخطر المحقق بي، لقد كان
ذا صلات حسنة برجال الجيش، فإذا شاء لم يصعب عليه أن يقيدني
بالخدمة العسكرية وهذا ما كنت أجتنبه وأخشاه.

وبديهي بعد هذا أن يشدد عليّ الضغط فأشعر كأني في رقبتني حبلاً
مشدودًا لخنقي. أما امرأتي فكانت تبكي سرًا وتذرف الدموع الحرة

حزنًا وكمدًا، فإذا سألتها ما بك، أجابت لا شيء.

وفي حزينان وضعت أولغا طفلًا، آه، كم قاست من آلام المخاض والولادة، كانت تصرخ ألمًا فiftت قلبي، ويلاه، أنى لي أن أنجدها وكيف يتيسر لي تخفيف أوجاعها؟

وكان تيتوف ساعتئذٍ مستندًا السلم وقد غارت عيناه واكمدّ لونه، فإذا بلغت مسامعه صرخات أولغا وأنينها هاجت عواطفه وقال: إذا ماتت ذهبت مجهوداتي كلها سدى، اشفق عليها يا رب وانقذها! وأنت يا ماتفي لا تدرك لواعجي ولا تفقه حياتي إلا إذا أصبحت أبا.

وقد رثيت لحاله ودبت في قلبي الشفقة على هذا الأب، وكنت أنا بدوري أروح وأجيء قائلاً في نفسي: ما هذا يا رب؟ أتهددني بسيف نقمتك، أترفع يدك لتحطمني يا الله؟ خير لك أن تصبر عليّ وتمهلني لأعود إلى صراطك القويم، خير لك أن تساعدني وتؤازرني وتهديني سواء السبيل..

حقًا إنني كنت آنئذٍ غيبًا أحمق بليد القلب.

وبعد أن وضعت أولغا الطفل ونهضت من فراش المخاض اعترأها تغيير عظيم فتضخم جسدها وصوتها وأصبحت تنظر إليّ نظرات الريب، وقبضت يدها عن الحسنات وكانت لا تنفك عن إحصاء ما لنا من الديون وأسماء المديونين، ولا تترك أمرًا مهما يكن سخيًا، فقلت في نفسي، إن هذا التغيير لا يلبث أن يزول.

كانت تجارتي بالعصافير ناجحة، ففي الشهر أغادر القرية إلى المدينة مرتين حاملاً أقفاصي لبيعها فأعود بخمسة روبلات فصاعداً، أي أن أرباحي الشهرية أنافت على العشرة روبلات وهكذا ابتعت بقرة واقتنيت الدجاج وهل أطمع بأكثر من هذا؟

غير أن أولغا كانت تنظر إليّ شزراً، لقد تبدلت طباعها وخلاقتها وعادت غير أولغا السابقة. فكنت إذا جلبت لها هدية ما، غضبت وانتهرتني قائلة:

- وما هي الفائدة من هذا؟ خير لك أن تخبئ الدراهم من أن تنفق فلساً منها على الهدايا.

وقد وقع في نفسي أسوأ وقع هذا التغيير العنيف، فغدوت كاسف البال وعكفت على الصيد أتسلى به وألهو وأتناسى همومي.

كنت أمضي إلى الحقول والغابات فأنصب الفخاخ للطيور وأستلقي على الأرض مرخياً لتأملاتي وأفكاري العنان، وهكذا أقضي ساعاتي طوالاً في أحضان الطبيعة أمتع الطرف بمشاهدها الفتانة وأجلو لقلبي غوامض الحياة.

لم يكن عندي الله في تلك الساعة إلا السماء الصافية والأفق المزروع والمطرزة بالخيوط الذهبية، أو هيكل الشتاء المفضل والسهول والأودية والجبال، الأزاهير والنجوم، هذه كانت الله، هذه كانت القوة العليا الإلهية، فكل جميل إلهي هو، وكل إلهي منشأ من منشأ الروح نفسها.

كنت إذا فكرت في البشر يهتز قلبي اهتزاز عصفور تائه مذعور،
أحاول أن أجلو غوامض الحياة فلا أهتدي وأقول في نفسي: إن جمال
الله لا يمتزج ولا ينسجم مع الحياة البشرية المظلمة الباردة، إن الله
الكلي الإشراق يعيش بجبروته وقدرته بعيداً عن الناس. والناس مثله
يعيشون بعيدين عنه لاهين بالمنفى الأرضي والأعمال.

لماذا استسلم أبناء الله لأصفاد الكآبة والجوع؟ لماذا يعيشون
وضعاء أذلاء وقد عقرهم التراب فتمرغوا فيه كالديدان؟ وكيف يسمح
الله أن يشقى أبناؤه ويسقطوا في حمأة الذل والألم. وما هو السرور
الذي يخامر الله إذ يرى مخلوقاته تتسفل، ما هي اللذة التي يشعر بها
إذ يشاهد من بثقهم من روحه يتلطخون بالخزي والمهانة ويتذوقون
ضروب الألم؟

وأيّن هم أولئك الذين أشرقت عليهم الأنوار الإلهية وتمتعوا
برحمته وشفقته؟

إن ظلمة الفاقة أعمت الروح البشرية فسدت على البصائر حجاباً
كثيفاً.

يعدون القداسة ضرباً من ضروب الفرح، والغنى حسنة من
الحسنات.

يبحث البشر عن حرية ارتكاب الخطيئة، على حين إنهم لا يملكون
حرية الابتعاد عن الخطيئة.

وأين تشاهد بينهم قوة محبة الله الآب؟ وأين هو كمال الله؟ وهل الله حي؟

هذه أفكار كانت تساورني وخواطر تزدهم في لبي فأتساءل وأتساءل محاولاً جلاء الغامض، وبعد أن أجهد فكري وقلبي أعود بالخيبة.

وما إن احترفت صيد العصافير حتى شرع الفلاحون يهزأون بي ويزدرون قدري، لا شأن للصيادين في نظرهم، وكانت أولغا ترسل التنهدات العميقة لأنها لا تذهب مذهبي في الحياة، وحمي بدوره كان يلقي عليّ المواعظ فكنت أسمعها دون أن أجادل أو أردّ. كان فصل الخريف قريباً وكنت آمل أن أنجو من الخدمة العسكرية.

وبعد مدة شعرت أن القلق مستولٍ عليّ أولغا فأخذت أسائل نفسي عن السبب دون أن أهتدي، ولما قلت لها ما بك يا أولغا، رفضت أن تطلعني على أمرها، لقد كانت حبلى، وحبلى الجديد أقلق فكرها. وفي أحد الأيام عانقتني باكية وأسرت:

- إن آلام المخاض ستقضي عليّ هذه المرة. خلدي يحدثني.
فساءني تشاؤمها وأخذت أعزّيها وأسليها، ولكن تعزيتي لم تجدها نفعا.

قالت لي حزينة كئيبة: ستعود كما كنت سابقاً وحيداً في هذا العالم دون نسيب أو صديق يؤانسك ويسليك، دون أن يكون لك من يحبك،

أنت رجل متجبر عنيد، فأسالك باسم أولادنا، أن تتساهل وتلين، ألا تدري أن كل البشر خطاة أمام الله، وهل أنت إلا واحد منهم؟

وقد أعادت عليّ مرارًا هذه العبارات التي كانت تقع في قلبي وقعًا مؤثرًا، لقد كنت أشفق على أولغا وأتألم لألمها، كانت توسلاتها تدمي فؤادي، فكيف لا أجيبها إلى طلبها، وكيف لا أعمل بإشاراتها؟

وعلى الأثر عقدت شبه اتفاق جديد مع حميّ وعدنا إلى الاحتيال على الفلاحين. وما عسى أن أصنع..؟ لقد كانت أيام الضيق على الأبواب وعما قريب أصبح أبا للمرة الثانية ثم تأتي القرعة العسكرية، فهل ينقذني غير المال؟

ها قد بدأت الحفلات التقليدية المأثورة التي اعتادت القرية أن تقيمها للشبان البالغين السن العسكرية، جاءني هؤلاء الشبان وطلبوا أن أنضم إليهم فرفضت، فما كان منهم إلا أنهم انتقموا مني بكسر الألواح الزجاجية في نوافذ منزلي.

ثم جاء يوم السفر إلى المدينة لسحب القرعة العسكرية، فلم تستطع امرأتي أن ترافقني لأن يوم الولادة قريب، فرافقني حميّ وكان يعدد عليّ في الطريق ما كابده من العناء في سبيلي وما عاناه من المصاعب وما أنفقه من الأموال لأجلي، وما صنعه لخيري، وبعد أن انتهى أجبته: ومن يعلم النتيجة؟ ربما ذهبت مجهوداتك كلها عبثًا.

وبعد ما وصلنا إلى المدينة سحبت قرعتي فرافقني الحظ ونجوت من الخدمة العسكرية وكاد حميّ لا يصدق فغلب عليه الجذل وقال:

- حقاً إن الله معك! حقاً إن الله نصرك!

وكان جذلي بنجاتي من الخدمة العسكرية يفوق التصور؛ لأنني لا أطيق الانتظام القهري في سلك الجيش بل أمقته كل المقت. وبعدها عدت إلى القرية ازداد سروري بغبطة أولغا التي كانت تضحك وتبكي معاً وتهنئني وتعانقني كأني قتلت دُباً أو رجعت ظافراً من إحدى المعارك.

كان تقول: مبارك هو الله، إذا مت فأموت مطمئنة البال.

ويلاه! لماذا غلب التشاؤم على أولغا؟ إن ترديدها الموت ينغص عيشي ويحرمني لذة فرحي. كان يدور في خلد أولغا أن ساعتها قرية، وهذا الاعتقاد الذي رسخ في ذهنها يلاشي فيها القوة الحيوية وهكذا يصح حدسها، فأخذت أنتزع من قلبها هذه الفكرة فأشجعها وأسليها ولكن على غير طائل.

وبعد ثلاثة أيام بدأت آلام المخاض. آه، كم قاست أولغا وكم تعذبت، مرّت عليها ثماني وأربعون ساعة عانت في خلالها من الآلام المبرحة ما لا يحتمل وفي اليوم الثالث وضعت طفلاً ميتاً وعلى الأثر لفظت أنفاسها الطاهرة بعد أن كابدت من الأوجاع ما يفتت القلوب.

هصرت المنون غصن أولغا الرطب فأفضت إلى ربها نقية طاهرة مستشهدة. ويلاه! ما أتعس أيامي!

لا أذكر ماتم أولغا؛ لأنني لم أعِ بعد وفاتها على شيء، كنت آنئذ

كالأعمى الأصم، لا أسمع ولا أرى إلى أن أيقظني من ذهولي العميق
تيتوف.

كنت جالسًا على ضريح أولغا مطرقًا أندب سوء حظي فإذا تيتوف
أمامي يقول لي:

- هذه ثاني مرة نلتقي فيها حول الأموات يا ماتفي، لقد نشأت
صداقتنا بين القبور فلنجددها.

فالتفت حولي مدعورًا كأني سقطت من السماء ولما رأيت تيتوف
صرخت غاضبًا:

- ماذا تريد، اغرب عني...

فأجابني: أريد أن تدرك مقدار ألمي وحزني، أعتقد أن الله فجعني
بابتتي قصاصًا لي على إطلاق حريتك.

فشعرت آئنذ كأن الأرض هوت بي إلى الدرك الأسفل، وثار ثائري
وانقضضت على تيتوف فرميته على الأرض وصرخت وأنا كالبعير
الهائج:

- لحاك الله، لعنك الله أيها القاسي.

وعلى الأثر اعتراني ما يشبه الإغماء، حاولت أن أرفع رأسي فلم
أقو كأن يدًا قوية ألصقت جسدي بالأرض وشلّت أعصابي.

آه كم قاسيت آئنذ من الآلام النفسية، وكم تذوقت من المرارة
الروحية.

ثرت على الله وتمردت على القدر الأعمى، أين هو الله لأناقشه الحساب؟ أين هو لأجاده وأعارض حكمه؟

كان عليّ كمؤمن تقي أن أستغفر وأستدم فأقل: «حسن ما صنعت يارب، يدك قاسية ولكنها عادلة، سخطك عظيم ولكنه مبارك» كان عليّ كمتدين ورع أن أبارك الرب ولكن ضميري لم يطاوعني وأبى علي أن أظهر غير ما أبطنه وأبطن غير ما أظهره، وأنى لي أن أكذب شعوري وأقف أمام الله كالمرائي أمام الحاكم الظالم؟ كنت أقول في نفسي مخاطباً الله:

ألعلك أغمدت سيف نقتك في صدري لأنني كنت أشك سرّاً في وجودك؟

بيد أن هذا التعبير لم يرتح إليه خاطري، فأخذت أنتحل العذر كأني أسترضي الله وقلت: إني ما ارتبت في وجودك، وإنما شككت في شفقتك ورحمتك لأنك على ما يبدو لي ترضى أن تنكل بعبيدك دون أن تمد إليهم يد المساعدة، دون أن تهديهم الصراط المستقيم أو تنشلهم من هوة الشقاء.

ولكن هذه القوارص لم تشف لي غليلاً، وهذه التأملات ليست بالزفرات التي كانت تملأ صدري وتعذب روحي، إن ما أكنه في قلبي كان يقلق خاطري فلا أستطيع النوم ولا أقوى على الإتيان بعمل، وفي الليل كانت تترآي لي الأشباح والخيالات التي تزيد في تعذيبي ومرارة روحي، فأنخيل أولغا أمامي باسطة ذراعيها فيشتد لهفي ويتجدد حزني

ويأسي.

ولما رأيت أن لا طاقة لي باحتمال هذه الآلام الفادحة عزمت على الانتحار.

كان الوقت ليلاً، وكنت مستلقياً على السرير بشيبي، ساورني الأرق فلم يغمض لي جفن.

أخذت أتحدث إلى نفسي فإذا بذاكرتي ترسم أمامي صورة أولغا طاهرة نقية، تمثلت لي أولغا بعينيها الزرقاوين اللامعتين اللتين تفيضان حنواً وحباً، وتخيلت أنني أسمع صوتها العذب يناديني.

كانت أشعة القمر تخترق النافذة فتتشر فوق الغرفة وشاحها الفضي، فينسل الظلام إلى روعي ويملاً قلبي.

أغمضت عيني لكي لا أرى صورة أولغا، ولكن كيف يتسنى لي أن أطرد خيالها وقد طبعت صورتها في ذهني؟

نهضت عن السرير وتناولت حبلاً ثخيناً وبعد أن عقدته ربطته بحلقة في سقف الغرفة، ثم حركته بشدة وتناولت كرسيًا وقفت عليه ثم خلعت معطفي وانتزعت طوقي استعداداً لشنق نفسي، وفيما كنت أهيمُ الحبل لأدخله في عنقي، إذ بدا لي فجأة على الجدار وجه غريب فظيع أجمد الدم في عروقي، فكدت أصرخ خوفاً ورعباً، لولا أنني لاحظت أن الوجه الذي بدا أمامي لم يكن إلا وجهي المنعكس على مرآة أولغا المستديرة!

رأيتني آنئذٍ ذا سحنة قبيحة مخيفة، وجه متجدد شاحب وشعر
متبعثر وأنف مهشم وفم كأنه مدخل مغارة مظلمة وعينان تفيضان مرارة
وألماً.

أشفقت على هذه الصورة البشرية ورأفت بجمالها السالف. ويلاه
كيف تنقلب الوجوه البشرية بين ساعة وأخرى وكيف يتحول جمالها
إلى قبح.

ثم جلست على المقعد وأخذت أندب سوء حظي وأبكي عليّ أنا
نفسي كأحد الأطفال، فانهمرت دموعي بغزارة، وبللت وجهي فأنشعت
فيه الحياة كما يرطب الندى الأزاهير الملفوحة.

وبعد أن مسحت دموعي شعرت كأنني ألقيت عبئاً ثقيلاً عن ظهري
فتجددت قواي وتمثل لي الانتحار عملاً شائئاً ملؤه الخزي، وعددت
نفسي مازحاً لا جاداً، وحالاً مددت يدي وتناولت الجبل وشدته بعنف
ثم رميته في إحدى الزوايا، الموت سر مجهول أيضاً، وأنا أبحث عن
حل أسرار الحياة.

والآن ما عسى أن أفعل؟ مرت الأيام دون أن أقوم بعمل، وبعد أن
أعملت فكرتي لاح لي أن أخلد إلى التوبة، فهرولت إلى منزل الكاهن
قارعاً سن الندامة.

كان الوقت مساء واليوم يوم أحد، وعندما دخلت رأيت الكاهن
وقريته حول المائدة يتناولان الشاي وقد أحاط بهما أولادهما، فهش
لي الكاهن واستقبلني مرحباً ثم دعاني إلى الجلوس وشرب الشاي.

وكان البهو يتلأأ بالأنوار الساطعة التي تنعكس على المرايا فتزيده
إشراقاً وراقني ما شاهدته من النظافة والنظام في ترتيب الأثاث والأمتعة،
فتذكرت إهمال الكاهن لشؤون العبادة وقلت في نفسي:

- هنا هيكل الكاهن في عرفه، وسواه لا شأن له.

ثم التفت إليّ وقال: لا مرء في أنك حزين على فقد امرأتك.

- نعم يا أبت، إني حزين حتى الموت.

- ينبغي أن تقيم عن نفسها الصلوات والقدايس مدة أربعين يوماً،
قل لي هل تظهر لك في الحلم؟

- نعم يا أبت.

- إذن اصنع ما قلته لك فلا مندوحة عنه.

فلم أنبس ببنت شفة ولذت بالسكوت، لم يكن باستطاعتي الكلام
أمام امرأته التي أكرهها وأحتقرها، وقد كانت بدينة مستديرة الوجه
غليظة الرقبة صغيرة الأسنان لا تخجل أن تقرض الأموال بربا فاحش.

ولما رأي الكاهن ساكتاً عطف على كلماته السابقة قائلاً:

صلّ، صلّ إلى الله بحرارة، ولا يأخذك الحزن وتعبث بك اللهفة،
سلم أمرك لله وعليه اتكل فهو يعرف ماذا صنع.

فلم أتمالك نفسي عن سؤاله: أهو يعرف ماذا صنع؟

فأجاب مغتاضاً: ما هذا السؤال؟ أنا أعلم أنك متغطرس تتكبر على
البشر ولكن حذار أن تدفعك غطرستك إلى مس الشرائع الإلهية خشية

أن ينالك القصاص الشديد، لقد غرس لاريون فيك هذه البذور فنمت على ما يلوح لي، جنى لاريون على نفسه واستسلم للخمرة إلى أن قادت خطاه إلى هاوية الموت!

وشاءت امرأة الكاهن أن تشترك في الحديث فقالت:

- كان ينبغي أن يزج لاريون في أحد الأديار، ولكن زوجي أبى عليه طيب عنصره وصلاحه معاقبته فلم يرفع عليه شكوى.
فما طرقت عباراتها مسامعي حتى رددت عليها قائلاً:

- كلا أيتها السيدة، إن كلامك عين الخطأ، لم تصدقي في قولك إن زوجك لم يشك لاريون. لقد شكاه واتهمه بالإهمال مع أن زوجك أيتها السيدة هو المشهور بإهماله وقلة عنايته لا لاريون.

كان ردي عليها فاتحة للجدال والمناقشة، فعنفني الكاهن واستشهد بآيات أعرفها كل المعرفة، غير أنني استغربت سبكها في قالب جديد، وانتهى الأمر بالكاهن وقرينته إلى شتمي وإهانتي.

قال لي الكاهن: حموك وأنت لصان خبيثان لقد سرقتما الكنيسة وانتزعتما منها «حقل الأغادو» مع أن هذه الأرض تخص الأبرشية على ما يعلم الجميع، وقد عاقبكما الله عقاباً شديداً وأنزل بكما البلايا جزاء هذه السرقة..

فرددت كيده إلى نحره وقلت: هو ما تقول، ولكن إذا كنا قد انتزعنا الحقل ظلماً وعدواناً، فأنت قد سبقتنا إلى السرقة، كانت الأرض ملكاً

للشعب ولكنك أنت ضممتها إلى الأبرشية وغصبت حقوق الفلاحين..

ثم نهضت لأخرج، فإذا بالكاهن يصرخ بي قائلاً:

- انتظر، أين النقود لإقامة الصلوات عن نفس امرأتك؟

فنظرت إليه بازدياء وقلت: وهل تعتقد أنني أحفل بعد الآن

بصلواتك؟

وفيما أنا خارج قلت في نفسي: لقد ضللت السبيل يا ماتفي!

وبعد ثلاثة أيام أصابتنى كارثة جديدة، وذلك أن ابني حسب

الزرنبيخ سكرًا فتناوله وتسمم وعلى الأثر قضى نحبه، فما جزعت ولا

حزنت، بل ما تأثرت ولا حفلت بهذه الفاجعة لأن مصابي السابق ملأ

نفسي مرارة ويأسًا، فلم يبق بها فراغًا لألم جديد. هذه كانت حالتي

عندما مات ابني البكر.



الفصل السابع

القلب التائه الذي لم يهتد إلى الطريق...

عزمت على مغادرة القرية والرحيل إلى المدينة حيث كان يقطن رئيس الكهنة وهو رجل مشهور بصلاحه وتقواه وتضلعه من العلوم الإلهية، فأعلنت عزمي لحميّ وطلبت منه أن ينقذني مائة روبل مقابل تخليّ عن منزلي وسواه مما يخصني فرفض وأجاب: أنا لا أحفل بمثل هذه الصفقة، فإذا شئت أن أنقذك مائة روبل فعليك أن تمضي سنًا لسته أشهر بقيمة ثلاثمائة روبل.

فأمضيت السند وتسلمت النقود وحملت جواز سفري ومضيت إلى المدينة.

كنت أسير على قدميّ لعلّي أرمي على الطريق حمل قلقي الثقيل، كانت روعي مضطربة حائرة لا يقر لها قرار، فشرعت أعرّف أمام نفسي بيد أنني لم أفكر بالله.

كنت أجري وقد تنازعني عاملان هما الذعر والاستياء. كان
الخوف آخذًا مأخذه مني وفي الوقت نفسه كنت غير راض عن نفسي.
وكانت أفكاري مرتبكة، متراخية متقطعة متمزقة كأنها نثير تذرية
الرياح.

وبعد أن وصلت إلى المدينة قصدت إلى منزل رئيس الكهنة
فاضطمت بمصاعب متعددة والدليل أن ناموس الرئيس ردني خائباً أربع
مرات، ولم يسمح لي بمقابلة معلمه ولكنه في المرة الخامسة قال لي:
- أنا ناموس سيادته، أعطني ثلاث روبلات أمهد لك السبيل.
فأجبت: ولا ثلاث كوبيكات أي «نحاسات».

ولما رأى الناموس أنني مصر على مقابلة معلمه كلف الأمر ما
كلف، فتح لي الباب وقال: ادخل، لقد شئت أن أداعبك وأمازحك،
ادخل.

ثم قادني إلى بهو هادئ تصدره الكاهن الكهل الذي هجرت القرية
لمقابلته والاسترشاد بقبس تقواه وورعه.

دخلت وأنا أقول في نفسي: «لقد تربيت تربية دينية طاهرة ثم طراً
علي ما طراً، وعصيت الله وأغضبته، أفلا يستطيع هذا الإكليركي أن
يعيد الطمأنينة إلى روحي؟».

ولما شاهدني الكاهن سألتني: ماذا تريد؟ ما الذي حملك على
المجيء؟

فأجبتة: أحمل في جوارحي روحًا قلقة حائرة مضطربة يا أبت.

وما أتممت عبارتي حتى همس الناموس قائلاً:

- لا تقل يا أبت وإنما قل «يا صاحب السيادة».

فألقيت عليه نظرة ملؤها التهكم ثم التفت إلى الكاهن وقلت له:
الأفضل أن تأمروا هذا الشاب بالخروج، إن الحياء يغلب عليّ إذا أردت
الاعتراف.

فصعد الكاهن نظراته فيّ وبعد أن أمر خادمه بالخروج، تابع كلماته
فقال:

- تكلم، ما بك؟

فأجبتة: إني أشك في شفقة الله.

فنظر الكاهن إليّ شزراً ورفع يده إلى رأسه وسألني غاضباً:

- ماذا تقول أيها الغبي؟

فلم أحفل بوصفه ولا اكرثت للإهانة بل تابعت قائلاً:

- إني ألتمس من سيادتكم أن تصغوا إليّ.

ثم تناولت كرسيّاً وحاولت الجلوس فإذا بالكاهن يرفع يده مغتاضاً
وهو يقول:

- وقوفاً وقوفاً، كان عليك أن تمثل أمامي راکعاً أيها الوقح.

فسألتة: علام الوقوف والركوع؟ إذا كنت مذنباً فأمام الله لا أمام

سيادتكم!

فحقن ورد عليّ بقوله: وأنا من أنا؟ من أنا أمام الله؟ وأمام الله من أنا؟

فخجلت أن أناقشه في هذا الموضوع ورأيت أن أركع عملاً بإرادته، أما هو فرفع يده مهدداً وقال: سأعلمك أن تحترم رجال الدين. فسأني هذا التهديد ورغبت في المناقشة وأخذت أعبر عن أفكاري بصراحة وجلاء، كانت العبارات تتدفق من فمي تدفقاً كأن في صدري بركاناً ثائراً، فاحتدم الكاهن غيظاً وقال: اسكت اسكت أيها الشقي!

ثم وقف أمامي وهو يهتز ويرتجف وتابع قائلاً:

- أندرك ما تقول أيها الجلف الوقح، اسكت أيها الملعون. أنت لم تأت للاعتراف وإنما أرسلك الشيطان لتجربني أيها الخبيث.

وقد شعرت أن الخوف أخذ منه مأخذه لا الغضب، فأردت أن أزيل ما علق بذهنه وقلت له:

- أخطأتم يا صاحب السيادة، إني أؤمن بالله ولم أكن يوماً من المجدفين.

- كذبت أيها الكلب الأجرب.

ثم شرع يتوعدني بالغضب الإلهي، والانتقام السماوي. كان الإله الذي يستصرخه قاسياً جافياً شديداً البطش لا يرحم ولا يشفق، بل ينكل بالناس تنكيلاً كالإله القديم الذي صورته التوراة، فلذلك اعترضت

عليه قائلاً:

يلوح لي يا صاحب السيادة أنكم ضللتكم السبيل وسلكتم طريق
الجهلة، أهذا هو الإله المسيحي؟ أهذا هو الله الحقيقي؟ ويسوع ماذا
تصنعون به؟ لماذا تسلبون البشر صديقهم وظهرهم المدافع عنهم؟
لماذا تولون عليهم قاضياً قاسياً بدلاً من يسوع شفيق رحيم؟
فأنشب الكاهن أظافره في شعري وصرخ بصوت ملؤه الغضب
والحنق قائلاً:

- من أنت أيها الملعون؟ من أنت؟ سأسلمك إلى الشرطة لتقتص
منك، سأبعثك إلى أحد الأديار، سأنفيك إلى سيبيريا...

وما طرقت عباراته مسامعي حتى ثاب إليّ رشدي فقلت في نفسي
إن هذا الكاهن يستعين بالشرطة ليؤيد إلهه القاسي الشرير عنوة،
فالاثنان إذن ضعيفان لا يملكان ذرة من الصلاح، أفأطمع منهما بعد هذا
بالطمأنينة الروحية!.

ثم وقفت وقلت للكاهن:

- اتركني، دعني أذهب، ليس لي عندك ما أتلقنه، ليس في تعاليمك
ما يجعلو ظلمات الشك، بل إنني لم أسمع منك إلا الهرطقة والتجديف
على الله.

فأعاد تهديده ووعيده بالشرطة ليدب الخوف في قلبي، فلم أكرث
له ولا حفلت بالشرطة وقلت له: إن الملائكة هم الذين يسهرون على

مجد الله لا رجال الشرطة.

فاشتد غضبه وصرخ:

- إلي يا أليكسي «اسم خادمه» اطرده هذا المعلنون من أمامي.

وعلى الأثر جاء أليكسي فتناولني بيدي وأخرجني إلى الشارع ثم أغلق الباب.

كان الليل مرخيًا سدوله، والشعب يجري في الشوارع مبتهجًا مغتبطًا، فأخذت أسير متثاقلاً متأملًا تلك الوجوه الضاحكة المشرقة، ثم هممت أن أصرخ قائلاً: أيها الشعب، لماذا تضحك مغتبطًا؟ ألا تعلم أن الأكليروس شوه محاسن إلهك؟

وشرعت أسير على غير هدى، هائمًا على وجهي في شوارع المدينة، إلى أن رأيتني في الضواحي حيث قامت المساكن الحقيبة أمام الحقول الواسعة.

كان الهواء ينثر الثلوج ويذريها في الفضاء فلا تستقر حتى يعيد الكرة كأنه يلعبها ويداعبها في تلك الليلة الليلاء القارصة. وكان العطش قد أخذ مني مأخذه فوددت لو انتهلت من الخمرة ما يسكرني وينقع ظمأي. وفيما كنت أتأمل الطريق إذ برزت أمامي امرأة حاسرة الرأس متدثرة بحرام صوفي وبعد أن تأملتني سألتني: ما اسمك؟

فحسبت أنها تداعبني على ما جرت العادة في ليلة عيد الميلاد إذ تكشف الفتاة اسم زوجها القابل من اسم الرجل الذي تفاجئه فأجبتها:

- لا أقول لك لأنني رجل تاعس.

فضحكت وقالت: غداً عيد الميلاد فعلام تفكر في الشقاء؟

ولم أشأ أن أطيل الحديث معها فسألتها:

- إني أشعر ببرد قارص، فهل بالقرب حانة ألجأ إليها؟

فحددت المرأة ناظريها وأجابتنني بصوت ملؤه الرقة والعذوبة:

- هناك في المنحدر حانة، ولكنك إذا شئت دعوتك إلى منزلي

وقدمت لك الشاي فتدفاً...

فلم أتردد وتبعتها، وبعد قليل رأيتني في بهو صغير ينيره قنديل ذو

نور وهاج وفي إحدى الزوايا امرأة طاعنة في السن جلست بين رسوم

القديسين.

وقد أتاح لي النور أن أتأمل المرأة التي قادتني إلى منزلها بكلمة

واحدة فرأيتها في عنفوان الشباب ذات وجه مشرق.

كانت ممشوقة القوام رشيقة الحركات ذات نهدين بارزين وعينين

نجلوين صافيتين وابتسامة عذبة هادئة تقع في النفس وقعاً جميلاً.

وبعد أن دعتنني المرأة إلى الجلوس أخذت أفكر قائلاً في نفسي:

من هما هاتان المرأتان؟ وما الذي أتى بي إلى هذا المكان، لقد تبعت

المرأة دون تفكير.

كانت العجوز تلقي علي نظرات الفضول والاستطلاع فخفضت

بصري والتفت إلى المرأة التي قادتني وسألتها: ماذا تصنعين وكيف

تعيشين؟

فضحكت وأجابتنني: أصنع أعمالاً يدوية وبعض الأحيان أطوف
سعيًا وراء الحياة...

فانتهرتها العجوز وقالت: ألا تستحين يا تاتيانا؟

وقد نبهتني عبارة العجوز إلى ما لم أكن أدركه ف وقعت في حيرة .
هذه أول مرة أرى فيها أمامي امرأة ضالة. وهؤلاء النسوة كنت أتصورهن
بأقبح الصور وأعدهن أسفل المخلوقات البشرية.

ثم التفت تاتيانا إلى العجوز وأخذت تضحك وبعد ما أشارت إليّ
قالت:

- أ رأيت أيتها العجوز بترفنا كيف اصطبغ وجهه بحمرة الخجل!
فاستولى عليّ الاستياء وقلت في نفسي: ما هذه الهاوية التي
سقطت فيها، أخرجت من الاعتراف لأقع في الدنس؟
والآن ما عسى أن أصنع؟ وكيف يتسنى لي الخروج من هذا
المأزق؟

وفيما كنت أفكر في أمري إذ بدأت تاتيانا تبدي دلائل الضجر
فخلعت معطفها وفكت عرى قميصها متأففة من شدة الحر. ثم نهضت
العجوز فأحضرت زجاجة من الخمر وضعتها على المائدة فقلت:
أشرب كأسًا من النبيذ وأدفع الثمن ثم أنصرف حرًا طليقًا.
ورأت تاتيانا ما يساورني من القلق والحيرة فقالت لي:

- علام أنت حزين صامت؟

فما استطعت أن أكتُم السبب وأجبتها: ماتت امرأتي.

فسألتنِي همسًا: أَمِنْ زَمَنْ طَوِيل؟

مضت على وفاتها خمسة أسابيع.

وما لفظت عبارتي حتى رأيت يديها ترتفعان إلى عرى القميص
لتحكما شدها سترًا لصدرها العاجي، فوق عملها في نفسي أجمل وقع
إذ دلني على حشمتها وأدبها أمامي، مع أنني كنت رجلًا متزوجًا.

وشاءت العجوز أن تخفف عني وتسليني فقالت: وعلام حزنك
وأنت شاب في مقتبل العمر وحولك من النساء ما لا يحصى.

فانتهرتها تاتيانا وقالت:

- اسكتي يا بتروفنا، اسكتي، اذهبي ونامي وأنا أقفل الباب.

وبعدما خرجت العجوز سألتني تاتيانا بلهجة ملؤها الرقة والحنان:

- ألك أسرة؟ أب وأم...

- ليس لي أحد.

- أليس لك أصدقاء.

- كلاً.

- إذن ماذا تريد؟

- لا أدري!

وبعد أن تأملتني قليلاً نهضت وقالت: أراك وحيداً في هذا العالم بلا نسيب ولا صديق ولا من يحنو عليك. فأنا أنصح لك أن لا تتابع السير منفرداً، فكما أنك تبتعني بمجرد دعوة بسيطة، فيجوز أن تدعوك أخرى إلى حيث يصعب خروجك، نحن في المدينة يا صديقي، ورسـل الغواية والفساد هنا كثيرون... فحذار!

والآن امكث ولا تجزع، ها هو ذا سرير فـنم مطمئن البـال قـرير العين وعندما تنهض صباحاً أعط بـترو فـنا ما يحلو لك، هذا إذا ثقلت عليك الضيافة.

وإذا كنت لا تـرتاح إلى مـحادثتي فقل ولا تستح لأني أنصرف حالاً. هذه العبارات التي لفظتها تاتيانا بلهجة ملؤها الإخلاص والرقـة وقعت في نفسي أجمل وقع، فابتهجت واغتبطت وشعرت بسرور عظيم.

ثم دعـتني إلى تناول الشاي واحتساء كأس من الخمرة فلبيت الدعوة جذلاً، وهكذا بين لحظة وأخرى تحولت معرفتنا البسيطة إلى صداقة روحية قوية.

غير أنني مع كل ما رأيته من مظاهر الود والإخلاص خفت أن أكون قد استسلمت للظواهر فسألتها:

- أود أن ألقى عليك سؤالاً فاعذري صراحتي: أنت تحاولين أن تسبـري غوري وتميطي اللثام عن حقيقة أمري، أم أنت جادة فيما

تقولين؟

فلمعت عيناها وأجابت بصوت ينم على سلامة طويتها:

- إني جادة كل الجد، أنا امرأة مبتدلة..

فقاطعتها قائلاً: هذه هي المرة الأولى التي أحادث فيها امرأة ضالة.. وأقول لك بصراحة.. إني أخجل لنفسي.

فضحكت تاتيانا وأجابت: وممّ تخجل لنفسك، إني لست عارية..

فقصصت عليها بجلاء ووضوح كل ما أعرفه عن النسوة الضالات دون أن أخفي عنها ما صورته لي مخيلتي من عيوبهنّ، فأصغت إلى كلماتي كل الإصغاء، ولما انتهيت أجابتنني:

- نحن معشر الضالات لسنا سواء، فبيننا الشريرة التي تغطي الأبالسة مما لا يخطر لك ببال، وبيننا النقية القلب المسكينة التي احتفظت بصلاحها الروحاني على الرغم من تدنس جسدها.

وقد صعب عليّ كثيرًا أن أقنع نفسي بأن المرأة التي تخاطبني ضالة، صعب عليّ أن أصدق أنها زانية، فسألتها:

- ألعّلّ الحاجة أرغمتك على سلوك هذا الطريق؟

- لقد طغاني أولاً شاب تظاهر لي بالحب ووعدني بالزواج وما وفى بل قرّ، وهجرني وخلف لي التحسر والندامة، ثم تعرفت بشاب آخر، فكان نصيبي منه كحظي من الأول، وبعدئذ سقطت في الهاوية، ولا أنكر أنني قد أحتاج بعض الأحيان إلى المال فأكسبه من الرجال

الذين أقتنصهم..

كانت تاتيانا ترسل كلماتها بسداجة دون أن تشفق على نفسها أو
ترثي لحالتها فسألتها: أترددين إلى الكنيسة؟

- إن دخول الكنيسة مباح للجميع وبابها لا يغلق في وجه أحد.

فلحظت من جوابها أنها أساءت فهم ما أعنيه فتداركت الأمر
وقلت لها:

- يلوح لي أنك لم تحسني فهم ما أعنيه. إني درست الإنجيل
ووقفت فيه على قصة المجادلة مريم والخاطئة التي حاول الفريسيون
أن يغروا بها المسيح وأنا رميت من وراء سؤالي إلى معرفة شعورك
نحو الله، ألا تحنقين على الله؟ ألا تثورين على حياتك؟ ألا ترتابين في
صلاح الله وشفقته؟

ففركت تاتيانا عينيها وأخذت تتأملني ثم قالت لي بلهجة ملؤها
الذعر:

- إني لا أدري أيهتم الله بأمرى أم لا؟ لا أعرف أيشعر بوجودي
أم لا؟

- وكيف هذا، أليس الله راعينا وأبانا؟ أليس في يده مصير كل منا؟
أليس هو المبدأ والمعاد وضابط الكل؟

- ماذا أقول وأنا لم أسيء يومًا إلى أحد ولا تعمدت الأذى لأحد؟
ما هي التهمة الموجهة إليّ وما هو الذنب الذي ارتكبته تحت عين

الشمس؟ ومن يحمل أثقال حياتي الدنسة؟ أنا وحدي، أنا البريئة.

وقد شعرت بإخلاص تاتيانا وإصابتها الحقيقة، بيد أنني لم أدرك
كنه تعابيرها. وتابعت كلامها قائلة:

أنا التي أحمل تبعة خطاياي، أنا وحدي، نعم إن خطيئتي ليست
قاتلة، ولكنها على كل حال خطيئة تستوجب العقاب. إنني أحب الذهاب
إلى الكنيسة وعندنا كنيسة جديدة جميلة تملأ العين جلالاً والقلب
خشوعاً. ما أجمل الموسيقى التي نسمعها فيها وما أطيب وقعها في
النفوس، إن الانفعال النفساني يأخذ مني مأخذه بعض الأحيان فأبكي.
وبعدما سكنت دقيقة تابعت: وهناك أمر لا يجوز إغفاله وهو أن
الكنيسة بطبيعة الحال تسهل التعارف بين الناس..

أدهشتني تاتيانا بما قالته، فرفعت إليها بصري معجباً بدقة حسها
وصراحتها. ولما رأتني لا أنبس بينت شفة سألتني ضاحكة لعوباً:

- أكنت تحب امرأتك؟

- نعم كنت أعبدها.

ثم شرعت أقص عليها آلام روحي وأحزان قلبي ولم أخف عنها
غضبي على الله لأنه بعد أن نامت عينه عني فاستسلمت للخطيئة عاقبني
عقاباً قاسياً إذ سلبني امرأتي. وكانت تاتيانا تتأثر وتكتئب تارة وتهلّل
وتبتهج طوراً.

في هذه الليلة تمثلت لي كل صور الحياة البشرية وتجلت لعيني

بمشاهدها الهائلة المضطربة الشائنة المدنسة الحافلة بصرخات الألم
والحقْد والأنين والشكوى.

في هذه الليلة مرّت أمام عينيّ لأول مرة صورة الحياة البشرية،
فأدركت ما لم أدركه وعرفت فوق ما أريد فقلت في نفسي: أين هي
الألوهية؟ وفي أي صورة يبدو شيء من الألوهية؟ ينقض البشر بعضهم
على بعض فيمتص كلُّ منهم دماء الآخر، كيفما أدار المرء وجهه
يرى النزاع الوحشي البشري في سبيل قطعة من الخبز، فأين الألوهية
والصلاح والمحبة والقوة والكمال، هذه كلها أين مقرها؟

نعم أنا شاب في ريعان الصبا ولكني لست بأعمى، أين يسوع ابن
الله، من هو الذي سحق بقدميه تلك الأزاهير التي زرعها قلبه النقي، من
هو الذي مسخ جمال حبه.

ثم أطلعت تاتيانا على قصتي مع رئيس الكهنة وكيف أنه تهددني
بغضب الإله القاسي الذي استصرخ لمساعدته رجال الشرطة،
فضحكت وتسلت بقصة هذا الأسقف القمطري الذي كان يصرخ
ويشب كإحدى الجرادات ولكنها بعد أن ضحكت كثيراً عبست وقالت:
- إنني لم أفهم كل ما تعنيه، لقد أدخلت الخوف إلى قلبي بما ذكرته
عن الله، إن أفكارك من هذا القبيل تدل على جرأة لا حد لها.

فأجبتها: ليس بالوسع أن نعيش دون أن نرى الله.

فوافقت على كلماتي وقالت:

- نعم، ولكن يترآى لي أنك عزمت على مكافحته بالملاكمة، فاعلم إذن أنه لا يستحق هذا العناء. لا أنكر أن الحياة قاسية على الصغار، وأنا كثيرًا ما أسأل نفسي: لماذا تقسو الحياة عليهم، ولكن هل تعلم ما ينبغي لك أن تصنع؟ اسمع: بالقرب من هذه المدينة دير للنساء المترهبات ترأسه راهبة عجوز شديدة الشفقة، فاقصد إلى الدير واسمع ما تقوله الراهبة، واصغ إلى حديثها عن الله.

- حسن سأذهب، وكيف لا أشخص إلى الدير، وأنا قاصر همي على سماع الأتقياء الصالحين الذين استنارت بصائرهم بقبس الحق. لقد فقدت نفسي السلام، فمن الواجب أن أسترده.

ثم مدت تاتيانا لي يدها وقالت: حسن إني ذاهبة لأنام، فاستلق على فراشك، فتناولت يدها وضغطتها معبرًا لها عن اعترافي بجميلها وخاطبتها قائلاً:

- شكرًا لك وألف شكر، لقد كنت بلسماً لجراح قلبي، فإذا كنت لا أقدرك الآن حق قدرك فثقي بأني سأحفظ لك في صدري أجمل ذكرى. شكرًا لك.

- لا محل للشكر يا صديقي.

وسكتت لحظة واصطبغ وجهها بلون قرمزي ثم تابعت قائلة:

- إني أسر كل السرور إذ أراك تشدد عزائمك وتسترد آمالك، فعم مساء.

وقد لحظت حين خروجها أنها كانت مسرورة جدلة إذ استطاعت
أن تعزيني وتهوّن عليّ وتؤاسيني، مع هذا لماذا اهتمت بأمرى، ومن
كنت لها؟

وبعدما أطفأت القنديل اضطجعت على السرير وأخذت أفكر
قائلاً في نفسي:

- ها قد احتفلت بعيد الميلاد دون أن أريد.

كانت آلامى الروحية عميقة لا يُسبر لها غور، ولكنني على إثر
محادثة تاتيانا شعرت بعاطفة جديدة حية تنشأ في قلبى.

كانت تاتيانا تلقي عليّ نظرات الحنان والعطف والشفقة، نظرات
إنسانية أكثر منها أثنوية، فانطبعت في ذاكرتى وهيهات أن تمحى.
وفي الصباح سمعت قرعاً على الباب وصوت تاتيانا ينادينى:

- انهض من رقادك فقد أشرقت الشمس.

وبعد أن تبادلنا التحيات كصديقين حميمين جلسنا على المائدة
وشربنا الشاي، فأوصتني مرة ثانية أن أشخص إلى الدير وأقابل الراهبة،
فوعدها بالذهاب ثم ودعتها وخرجت فشيعتني إلى الباب.



الفصل الثامن

الهرب من الحياة لا ينقذ من الضلال

كان بين المدينة والدير مسافة ثلاثين فرسخًا فجددت في السير،
وصباح اليوم التالي كنت هناك أسمع القداس الذي حضرته جماهير
لا تحصى.

كان الدير غنيًا والراهبات كثيرات. وكان الكاهن يتلو الصلوات
بسرعة كمن يقوم بفرض لا مهرب منه.

وكانت الراهبات اللواتي يؤلفن الخورس مشرقات الوجوه ذوات
قسامة ووسامة، وقد ارتحت كل الارتياح إلى ترتيلهن الجميل الذي
يصعد بالنفس إلى الأعالي.

وكانت الشموع تذرف دموعًا بيضاء، كأنها تبكي الشعب،
والراهبات التقيات يرتلن بأصواتهن الملائكية قائلات:

- إن روحي تطير إلى هيكلك، إلى هيكلك المقدس يا رب.

وكنـت أردد بشفتي جريًا على العادة الصلوات الإلهية، ولكن لم أغفل عن إرسال نظرات الفضول إلى ما حولي.

وبعد أن انتهت الصلاة خرجت من الكنيسة وكانت السماء صافية والشمس ترسل أشعتها فوق الأرض المغطاة بالثلوج والهواء يهبّ عليلاً بليلاً فينعش النفوس.

كان موقع الدير على هضبة تحيط بها السهول المزروعة والمروج التي لا يدرك الطرف آخرها، يخترقها نهر ماؤه كاللجين وخريره كأنين المتعبين والمظلومين التائهين في بيداء الحياة. وعند الأصيل دخلت مقصورة الراهبة فيفروينا وهي كهلة جعدت وجهها السنون وسلبتها نضارته، ولكنها لم تستطع أن تسلبها ابتسامتها الرقيقة الحنون التي كانت تبدو في أسارير وجهها.

مثلت أمامها فخطبتي بصوت منخفض يشبه الهمس وقالت لي بعد المقدمات:

- أيها الشاب، لا تأكل التفاح قبل عيد الرب، لا تأكله قبل أن ينضجه الرب وتسود بذوره.

فأخذت أسائل نفسي قائلاً: ماذا تعني بهذه الرموز وإلى ما تشير بكلماتها؟

وتابعت خطابها فقالت: أكرم أباك وأمك.

فأجبته: ليس لي أب ولا أم.

- إذن صل عن نفسيهما واسأل الله أن يرقداً بسلام.

- ولكن ربما كان والديّ حيين.

فأرسلت الراهبة بصراً تائهاً وابتسمت ابتسامة غامضة مبهمة وهزت رأسها هامسة: لا بأس إن الله عادل محب للجميع، شديد العطف على مخلوقاته.

فقاطعتها قائلاً: وهذا ما أرتاب في صحته، هذا ما أشك فيه.

وقعت كلماتي في قلبها وقعاً سيئاً لحظته في عينيها وفي وجهها وحرركاتها، بيد أنها لم تلبث أن استعادت قوة جنانها وقالت:

- اذكر أن الصلاة تطير إلى عرش الله بسرعة لا تعرفها الطيور، اذكر أن ملكوت السموات لا ينال أحد عفواً ولا يدخله من لا يتعب في سبيل الله..

فاستدللت بجوابها على أنها كانت ترسم لله صورة عظيم لا يعرف قانوناً أو شريعة.

كانت أقوالها متناقضة متباينة فلم أفهم مغزى تعابيرها وممرها وهذا ما أثار حنقي وحملني على الانصراف.

وبعد أن حييتها وخرجت شرعت أفكر قائلاً في نفسي: «إن البشر يجزئون الله أجزاء مختلفة طبقاً لحاجاتهم وميولهم، فالله عند البعض صالح كلي الرحمة، وعند سواهم قاس ظالم، أما الكهنة فقد جعلوا من الله خادماً لهم، وإذا شكروا له ما منحهم من سعة العيش والرفاهية فبحرق البخور، ولا ريون وحده كان يرى في الله عظمة لا تحدها العقول ولا تدركها الأذهان».

خرجت من الدير أتعثر بأذيال الخيبة، شخصت إليه طمعاً بأن أفوز
بأمنيّتي وهي استعادة الطمأنينة الروحية إلى قلبي فعدت مخفّفاً، فأين
أنال السلام المنشود ومن ذا الذي يهديني سواء السبيل؟

وبغته خطر لي أن آوي إلى أحد الأديار حيث أعيش منقطعاً
عن العالم منفرداً في حجرتي منكباً على مطالعة الكتب منصرفاً إلى
التأملات الروحية، فربما اهتديت واسترددت لروحي المعذبة المتألّمة
هناها وقوتها.

لزمّنتي هذه الفكرة بضعة أيام وما زالت تشتد حتى ساقّنتني إلى
صومعة ساواثيف حيث قابلني رئيس الدير، وكان مهيب الطلعة جعد
الشعر أصلع قوي البدن.

وبعد أن أطلّعته على رغبتني في التهرب سألني:

- ولماذا تهرب من الحياة الدنيوية يا ابني؟

فشرحت له الاضطراب الروحاني الشديد الذي اجتاحني على أثر
وفاة قريّنتي دون أن أتعدى الخبر إلى أمور أخرى. فأخذ الراهب يعبث
بلحيته وبعد أن أرسل إليّ بصراً نافذاً سألني:

- أتستطيع أن تهب حسنة للكنيسة؟

- عندي نحو مائة روبل.

- أعطني إياها واذهب إلى قاعة الطعام، وغداً نعود إلى الموضوع.

وقد استقبلني الأخ نيفونتي استقبالاً لطيفاً، وكانت مهمته مقصورة

على الاهتمام بشؤون الزوّار والحجاج.

قال لي الراهب بعد أن تبادلنا الحديث ما يأتي:

- رهبنتنا بسيطة جدًّا فضلًا عن أنها تمثل التآخي الحقيقي. الجميع يشتغلون لله خلافًا للأديار الأخرى، ولا جدال في أنك ستلقى هنا الراحة والسلام الداخلي، فاندمج في سلك الرهبة.

نهضت في صباح اليوم التالي باكراً فطفت في أنحاء الدير وقد لاحظت أنه بُني في وسط غابة ثم بدأ الرهبان يقطعون الأشجار شيئاً فشيئاً.

وكان يحيط بالدير والكنيسة سور خشبي أسود اللون، وإلى الأمام تقع البحيرة الزرقاء طولها تسعة فراسخ وعرضها أربعة، وكان القَرّ قد سدل على سطحها حجابها الجليدي فبدت كأنها المرأة. وقد ابتهجت نفسي بهذا المكان الجميل وشاقتني مناجاة الله في ذلك الدير الصامت الساكن الذي يملأ النفس خشوعاً.

ولما دقّ جرس الصلاة دخلت الكنيسة فأعجبني خدمة القداس الإلهي ولكني لم أرتح إلى أصوات المرتلين. رفعت رأسي إلى السماء وأغمضت عينيّ وصليت قائلاً:

- ربّ إذا كنت ترى في أفكاري شيئاً من الجرأة فاغفر لي، إني لا أشك فيك مدفوعاً بعامل الكره وإنما حبًّا للحقيقة وحدها، أنت تعلم يا رب نياتي الطيبة».

وكان أمامي راهب يصلي فما إن انتهيت من صلاتي حتى التفت إليّ

وضحك بوجه يفيض صلاحًا، ذلك أني لفظت صلاتي بصوت مرتفع،
فما أن سمع توبتي وندامتي حتى نظر إليَّ نظرة قلما عرفت مثلها.

فتقدمت إلى الأمام ووقفت حذاءه وشرعت أتأمل هيأته الجميلة،
إنني لم أر في حياتي كلها ولن أرى طلعة بهية كطلعته.

كان أبيض اللون تحيط بوجهه لحية خفيفة جعدة كأنها إطار ذهبي
لمحياء المشرق، كل ما يبحث عنه الرسام من الجمال البشري يراه في
ذلك الراهب الذي يأخذ حسنه بمجامع القلوب، وقد بلغ من شدة
تأثيره فيَّ أني حلمت به ليلتئذ.

وفي الصباح أيقظني الأخ نيفونتي باكراً وقال لي:

- إن الأب الرئيس أعدّ لك عملاً من باب الامتحان. اذهب إلى
الفرن وهذا الأخ يقودك إلى هناك وهو رئيسك. هذا رداء الرهبنة فالبسّه.
وكان الرداء منسوجاً من خيوط صوفية خشنة فجاء أقرب إلى
المسوح منه إلى كساء اعتيادي، وكان الحذاء واسعاً فإذا مشيت خفق
في قدمي.

وبعدما ارتديت ثوبي الرهباني أدت في رئيسي نظري متوسماً
متفرساً فرأيت طويلاً ضخماً الجثة دميم الهيئة، كثير الأسارير
والتجعدات، ذات نظرات خادعة حاذقة شرسة. وقبل أن نسير ودعني
الأخ نيفونتي قائلاً:

- رئيسك يدعى الأخ ميخا وإلى اللقاء.

ثم انصرفنا إلى الفرن وكان الضباب كثيفًا فلا نكاد نرى ما أمامنا
وفيما كنا سائرين إذ وطئ ميخا بقدميه شيئًا لم أتبينه فأخذ يشتم ويلفظ
كلمات قبيحة، وبعدئذ سألتني: أتحسن عجن الدقيق؟

فأجبت: رأيت بعض الأحيان كيف تعجن النساء.

فردّ عليّ ساخطًا: النساء! النساء دائمًا! النساء في كل مكان، اذكر
أن العالم ملعون بسبب النساء.

- ولكن العذراء كانت امرأة.. والقديسات كثيرات.

- حسن! إذا تمسكت بهذه الأفكار فما أمامك إلا الجحيم.

فقلت في نفسي: «هذا الرجل ينقاد إلى غريزته».

ولما وصلنا أوقد ميخا النار استعدادًا للعمل. وألقيت نظرة على
الفرن فرأيت جدرانها وسقفها مملأين بالغبار وخيوط العنكبوت مما يدل
على كسل وإهمال.

وكانت في الفرن معجنتان فأشار ميخا إلى واحدة منهما وقال:
تعال وتعلم هو ذا العجين، أترى هذه الفقاقيع، إنها تعني أن العجين
اختمر وصار صالحًا للاختباز، ثم تناول كيسًا من الدقيق وأفرغه في
المعجنة وصرخ بملء صوته:

- ضع فوقه أربعة دلاء من الماء واجبل وابدأ بالاعتجان.

وكان منظر ميخا بعدما أفرغ الدقيق يدعو إلى الضحك، فما
تخيلت أمامي رجلًا بل شجرة بيضاء مغطاة بالثلج. وبعدها خلعت

الرداء الرهباني شمريت عن ساعديّ استعدادًا للعجن فنظر إليّ ميخا
شزرًا وقال:

- ما هذا؟ اخلع حذاءك واعجن بقدميك.

فسألته مستغربًا: أأعجن بقدميّ؟ لقد مضى عليّ وقت طويل دون
أن أستحم.

- لا بأس اعجن بقدميك!

- كيف هذا؟ أأعجن بقدميّ القذرتين؟

فتأفف ميخا وأخذته السأمة وأجاب:

- أنا الأمر وأنت المأمور، فاصنع حسبما أريد ودع الاعتراض
جانبًا أفهمت؟

فقلت في نفسي آنئذ: «حملته الشياطين، فليكن كما يريد».

ثم خلعت حذائي ومسحت قدميّ بخرقة مبللة وبعدهما شمريت
عن ساقيّ بدأت أعمر الدقيق بقدميّ وكان رئيسي يروح ويجيء وهو
يصرخ:

- سأعلمك الطاعة، سأروّض طباعك الشرسة.

وبعد أن انتهيت من المعجن الأول تحولت إلى الثاني فعجنت ما
فيه وما أتممت عملي حتى أخذ مني الوهن مأخذه لأنني لم أعتد العمل
الشاق القاسي، وكان الطحين قد تطاير إلى وجهي وعيني وأنفي وفمي
وأذني فأصبحت كأعمى وأصم وتصبب العرق من وجهي فتساقط فوق

العجيين على الرغم مني لذلك سألت معلمي ميخا قائلاً:

- أليس هنا خرقة نظيفة أمسح بها عرقي؟

فأجابني متهمكاً: علينا أن نشترى لك المناديل المخملية
لتستخدمها في تنظيف جسدك. لقد تأسس الدير منذ مائتين واثنين
وثلاثين عاماً كان يترقب خلالها مجيئك ليقوم بأوامرك الحرة.

فأخذت أضحك ثم رددت عليه قائلاً: إني لم أطلب الخرقة
لنفسي، ولكنني أشفقت على الذين يأكلون الخبز ممزوجاً بالعرق...

فاقترب مني وكان كالبعير الهائج وأجاب:

- ما أرق شعورك، وما أنحف بشرتك، ألا يرضيك إذاً أن تمسح
عرقك بكيس من أكياس الدقيق؟ لا بأس، تدلل عليّ ما تشاء، فسأشكو
أمرك إلى الرئيس الأعلى.

فلم أردّ عليه لأنني وقفت أمامه مذعوراً لا أقوى على مناقشته،
كان هذا الرجل غريباً في أطواره وأعماله وأفكاره وقد حيرتني مثابرته
على الشغل دون استراحة أو انقطاع، فكان يحمل أكياس الدقيق الثقيلة
وكأنها وسادات من الريش وكان لا ينفك عن تعنيفي والتهكم عليّ فإذا
رأني وقفت عن العمل لأتففس صرخ قائلاً:

- هيا بنا، لا تضع الوقت.

والحقيقة إني سئمت الحياة لفرط ما تولاني من الوهن وخوار
العزيمة حتى كاد يغمي عليّ.

الفصل التاسع

بين أنياب الحيرة والشك

كانت الأيام الأولى التي قضيتها في الدير كناية عن سلسلة من المشقات والمصاعب. يقع الفرن في قبو تحت الأرض منخفض الجدران ولم يكن فيه من النوافذ إلا واحدة ولكنها أفلت عمداً. وبدهي بعد هذا أن يفسد الهواء، وأن يتناثر الدقيق في الفضاء ويؤلف سحباً من الغبار كان ميخا في وسطها يروح ويجيء كأنه دب مسجون في قفص.

وكانت أعمال الفرن مقصورة عليّ وعلى ميخا فقط، وكلما اهتم رئيس الدير بإرسال أحد ليجربه، فما أقسى هذه المهمة التي أُلقيت على عاتقنا.

وقد نشأ عن شدة انهماكي في شؤون الفرن أنني خسرت الصلوات لضيق الوقت فكان ميخا يعظني ويرشدني ويلقنني التعاليم والواجبات الرهبانية، فكانه كان يقيدني بحبل نخين مشدود في عنقي إلى قدمي.

كان ميخا شديد السخط على العالم، يحمل في صدره حقداً قاتلاً
يتدفق من فمه تدفق النيران من البركان، فما عمت بعدما سمعت
مواعظه وتعاليمه أن شعرت بظلام حالك يغشي قلبي وروحي.

كان يقول لي: أما وقد ترهبت فوجب عليك أن تنظر إلى البشر
كأنهم غير موجودين. إنهم لا يزالون يلدون ويحبسون بالخطايا، ولا
ينفكون عن بثّ الذنوب في العالم، وأنت هجرت هذا العالم، ولكن لا
يكفيك أن تهجره جسدياً بل ينبغي أن تصرمه فكرياً وروحياً. إذا فكرت
في البشر ذكرت ولا مشاحة المرأة وهي التي ألفت العالم في ظلام
الخطيئة واستعبده إلى الأبد.

وكنت إذا هممت بفتح فمي مستفهماً سائلاً أو مناظراً مباحثاً صرخ
قائلاً:

- اسكت! اصنع إلى الرجال المجريين الذين عركوا الدهر. اصنع
بخشوع إلى من هم أكبر منك سنًا. أنا أدري ما تريد أن تقول. إنك لا
تنفك عن ترديد اسم العذراء والاستشهاد بها. ولكن يجب أن تعلم أن
يسوع ما رضي أن يموت على الصليب إلا لأنه ولد من امرأة بدلاً من
أن يهبط من السماء بنقائه وقداسته ولأجل هذه القرابة البشرية اضطر
يسوع أن يكون طوال حياته رحيماً شديد التسامح والصفح والغفران.
كان يجب عليه أن يقذف المرأة السامرية في البئر عوضاً عن أن
يباسطها ويناسمها. إنه لو ضرب الخاطئة بالحجر الأول لأنقذ العالم
من المفاسد وحرره من الشرور...

- ولكن هذه الأقوال ليست من التعاليم الدينية بشيء.

- اسكت، اسكت، أنت لست على شيء من العلوم والمعرفة، متى كنت تميز بين ما هو ديني وما ليس بديني، اسكت، فالكنيسة من ألفها إلى يائها في قبضة الأكليروس الدهري، هي مطية الخلعاء المطارين المخابيل الذين يرفلون بالطيالس الحريرية. رجال الدين زمرة تصلح لتأليف الحلقات الراقصة لا لسن القوانين.

أيستطيع رجل ذو امرأة أن ينظر في الأمور الدينية ويتدبرها بنقاء وطهارة؟ كلا، ولا طاقة له على هذا؛ لأنه منغمس في الشهوات واللذات الجسدية، التي حملت الله على طرد آدم وحواء من الفردوس.

لأجل هذه الخطيئة قُضي علينا بالأوجاع والآلام الدائمة، لأجلها حُكم علينا باليأس والتجربات الشيطانية، لأجلها عمهت بصائرنا عن رؤية وجه الله.

والأكليروس، وهو نفس الذي ينشر الخطيئة بإتجاره مع النساء، يشجع البشر على سلوك طرق الشر والضلال، ولا يهمه أن يفسد شرائع الله ويناقض قوانينه ليسوغ نقائصه وجهله.

وعلى هذا الأسلوب كان ميخا يشدد عليَّ الحصار في سور مرصوص البناء فكيفما اتجهت ضربت حجارته برأسي فأتألم ويشدد قلقي واضطرابي. ويلاه، لقد دخلت الدير لأسترد طمأنينة نفسي وسلام روحي، فإذا بي أمام عاصفة جديدة يثير رياحها راهب متنسك. ولما رأيته يدافع عن نظريته بحماسة وغيره نفث ما بصدري وقلت معترضًا:

- ولكن لا تنس أن الله قال: (انموا واكثروا).

فاشدد حنق ميخا وضرب الأرض برجله و ردّ عليّ قائلاً: نعم، هذا ما قاله ولكن أتعلم أيها الغبي نص العبارات التي قالها ومعانيها؟ اسمع إذن:

قال الله: «انموا واكثروا واملأوا الأرض، إني أسلمكم إلى يد الشيطان، فملاعين أنتم من الآن إلى الأبد» هذا ما عناه الله بقوله. بيد أن الخلعاء الهدامين رجال الدين، شوهوا المعنى وحولوا لعنة الله إلى شريعة إلهية.

لو أن جبلاً انهار على رأسي لما أصابني ما أصابني بعد سماع تعاليمه الغريبة التي تركت في نفسي أسوأ أثر، إني لا أستطيع أن أومن بأقواله المتطرفة، ولكني في الوقت نفسه لا أقوى على دحض نظرياته وقرع الحجة بالحجة، كنت مضطرباً متبليلاً جازعاً بسبب هجماته العنيفة المتتالية التي لا تترك لي مجالاً للتأمل والتفكير. كنت إذا استشهدت بإحدى آيات الإنجيل، أجابني صاباً على رأسي آيتين أو ثلاثاً تناقضها وتدحضها فيرتج عليّ.

التوراة كناية عن حديقة ملاءى بالورود المختلفة الألوان، فمن أثر الحمر، فالحمر يقطف، ومن رام البيض، فالبيض يجمع!
هذا ما كان يردده على مسامعي فلا ألبث أن أسكت عاجزاً مفحماً، ولا يعتم أن تلمع عيناه كما تلمع عينا الذئب الهاجم على فريسته.

وكنّا مع كل ما يدور بيننا من المناقشات والمجادلات، نقوم بعملنا دون إبطاء، كنت أعجن الدقيق وكان يخبزه في الفرن، فإذا نضج أخرجه فأشعر آئنذ في صفه وترتيبه وهو حارٌّ يحرق الأصابع.

آه كم قاسيت من المتاعب في الفرن، وكم عانيت من المشاق، ما أشدّ ما لقيته من العياء والكلال. كنت جثة متحركة لا أسمع ولا أبصر ولا أعي. وكثيرًا ما كنت أقول في نفسي: «ألا تكفيني هذه الأعمال الشاقة التي استنزفت قواي حتى ابتليت بعشرة ميخا».

كان هذا الرجل يملأ قلبي خوفًا ورعبًا فكرهته ومقتته نفسي.

وفي ذات مرة سألني قائلاً: أترى في نومك نساء عاريات؟

فأجبت بهلجة جافة: كلاً، لم أحلم قط بهنّ.

فغضب وقال: أنت كاذب، لما تكذب عليّ؟

ثم هاج وصبّ على رأسي حمم حنقه صارخاً: يا لك من منافق

لئيم!

فهذا السؤال أوقع الرعب في قلبي، ما الذي دفعه إلى الحديث عن النساء العاريات، وكيف خطر له هذا الموضوع؟ كنت أنصبّ على العمل منذ الساعة الثالثة بعد منتصف الليل حتى الساعة العاشرة مساءً، وهذا العمل الشاق المتواصل لا يترك لي مجالاً للتفكير في النساء أو سواهن، إذ إنني لا أكاد أستلقي على السرير حتى أنام نومًا عميقًا فكيف أحلم بالنساء العاريات؟

وفي ذات مرة هبطت قبواً مظلماً محاذياً للفرن لكي أجلب الخميرة.
كان الباب مفتوحاً فدفعته ودخلت على نور القنديل، فرأيت ميخا
مستلقياً على بطنه وهو يصرخ بصوت أجش: ربّ اشفق عليّ، أبعدهنّ
عني، أبعدهنّ وارحميني.

فلم ألبث أن انصرفت دون أن أفقه معنى هذا المشهد وهذه
الكلمات.

كان ميخا يصب جامات غضبه وحقده على النساء دون تمييز،
فيرميهنّ بكل سواة وعوراء ويفتري عليهن افتراء مذموماً وكثيراً ما
يأخذ منه الحق مأخذه فيُخيل إليه أنه أمام امرأة مثلت بخصرته تتهم
عليه، فيرفع يديه في الهواء ويكشر عن مثل أنياب الذئب ثم يأتي
بحركات عنيفة كأنه يمزق تلك المرأة إرباً إرباً انتقاماً منها.

وأنا لم يكن بوسعي احتمال هذه المشاهد وتلك الخطب، كنت
أذكر امرأتي، وأذكر دموع الفرح التي ذرفناها ليلة العرس متعانقين
جسداً وروحاً. كنت أذكر تلك الأيام الهنيئة التي قضيناها معاً فأرفع
رأسي إلى السماء وأسأل ربي قائلاً:

- إلهي، أليست المرأة الأغنوجة الهنيئة التي منحتها للرجل؟

وكنت أذكر أيضاً نقاء سريرة تاتيانا وطيب قلبها وبساطتها، كنت
أذكر أخلاقها الرضية وشمائلها الحلوة ثم أقابل بينها وبين مطاعن ميخا
التي كانت تؤلمني أشد إيلام، فتغلي في صدري مراجل الموجدة على

هذا الرجل الغريب وأقول في نفسي: متى دعاني الرئيس للمثول أمامه
قصصت عليه كل شيء.

بيد أن الأيام كانت تمر سراعًا وينطوي بعضها فوق بعض دون أن
أسمع صوتًا للرئيس أو أرى له ظلًا فيدب اليأس إلى قلبي.

وفي هذه الأيام - وكان عمري اثنين وعشرين سنة - ظهرت في
رأسي الشعرات البيض الأولى.

وقد كنت شديد الشوق إلى مقابلة ذلك الراهب الجميل ومحدثته
ولكني لسوء الحظ، كنت أراه نادرًا فلا أكاد ألمحه وأملأ ناظري بطلعته
البهية حتى يغيب عن عيني فأرافقه بلهفتي التي كانت تتبعه كظل غير
منظور.

وفي ذات يوم سألت ميخا عن هذا الراهب فأجابني: هو رجل
فظ الطباع لا يعرف معنى الديانة والتقوى. طرد من صفوف الجيش
لاحتياله في ألعاب الميسر، وبعدما انتظم في مدرسة اللاهوت مدة
قصيرة طرد أيضًا لأسباب نسائية.

لا أنكر أنه علامة. الشيطان أيضًا عندما يهرم يميل إلى التنسك.
لقد سرق هذا الراهب كل رهبان دير تشودوفو في القمار ثم جاء
إلى هنا فوهب الدير نحو سبعة آلاف وخمسمائة روبل وابتاع له بعض
الأراضي، وهكذا نظر إليه رفقاؤه نظرة الإكرام والاحترام.

وفي هذا المنسك يقامرون أيضًا، إذ يجلس حول الخوان الرئيس

الأعلى والقيم والخازن وهذا الراهب رابعهم، وهناك ما هو أسوأ إذ إن للرجل خليفة أعد لها منزلاً وراء الحاجز حيث يقضي برفقتها الساعات الطوال، يا له من لئيم.

فلم أستطع أن أصدق ما قصه عليّ ميخا، ولما رأيت عواطف الشك والريب تجتاحني من كل الجهات، خفت أن تقضي على ما في قلبي من الإيمان، فسألت الأب إيزيدور، قيم الدير، أن يهيئ لي السبيل لمقابلة الرئيس الأعلى.

فسألني: وماذا تريد منه؟

فأجبت: أحب أن أحادثه في الشؤون الدينية.

- ماذا؟ أفي الشؤون الدينية؟

- نعم، إن لدي أسئلة متعددة أحب أن ألقها عليه إنارة لقلبي وذهني.

فأخذ الأب إيزيدور يصعد نظراته فيّ مستغرباً مدهوشاً.

كان هذا الراهب رجلاً طويلاً ضعيف البدن، ذا عينيّن براقّتين يتطاير منهما شرر الذكاء، وكان عظيم الأنف يعيد إلى الذاكرة مناقير البيغاوات.

قصصت على قيم الدير ما يخامرني من الشك وشرحت له على الرغم مني ما يختلج به قلبي من الارتياح في شفقة الله فلم يلبث أن ابتسم وأجابني:

- دارِ الشك يا ولدي بالصلاة، قوَّ إيمانك بالصلاة، أوصي لك بالصلاة، فهي التي تشفي اضطراباتك الروحية، وهي التي تكفل لك السلام، ولكنني مع هذا سأطلع الرئيس على أمرك، لا لأنك شديد النشاط والاجتهاد فقط، بل لأن طلبك غير مألوف يستحق الاهتمام والعناية، فتشجع.

وفي اليوم التالي دعيت إلى المشول بحضرة الرئيس فجسني بعينه وأطال النظر إليّ ثم قال: أطلعني الأب إيزيدور على رغبتك في مناقشتي في شؤون دينية.

فقاطعته قائلاً: عفواً يا أبتاه، أنا لم أطلب مناقشتك وإنما...

فأجاب محتدماً غيظاً: لا تقاطع رئيسك، كل بحث يدور بين اثنين يدعى مناقشة. وكل سؤال يتعلق بحياة الرهبة وأعمالها اليومية يسمى إغواء فكرياً.

إن رهبتنا عاملة مجتهدة، ونحن إنما نشتغل لصيانة الجسد بغية أن يتمكن الروح الذي يقطن فيه مؤقتاً من الطيران إلى الله والتوسل إليه ليرمق الخطاة بعين رحمته.

ليس في رهبتنا مدرسة للفلسفة، ولكن للعمل والاجتهاد، نحن لا تعوزنا المعرفة ولكن تنقصنا بساطة الروح وسذاجة النفس.

وقفت على المناقشات التي دارت بينك وبين الأخ ميخا، وأقول لك إنني لا أوافق عليها. فعليك أن تصدّ جموح أفكارك فلا ترخي لها

العنان وإلا سقطت في هوة التجربة، وذلك لأن الفكر - والإيمان لا يلجمه ولا يقوده - هو أمضى سلاح في يد الشيطان.

العقل مصدره الجسد وهذا مصدره الشيطان. بيد أن قوة النفس تنشأ في كونها جزءاً من روح الله، والوحي يهبط على الأبرار والصدّيقين دون أن يحتاجوا إلى التأمّلات والتفكرات. إن معلمك الأخ ميخا راهب قاسٍ، ولكنه متقشف زاهد في مجد العالم وملذّاته. وقف حياته على العمل الصالح، فهو إذن يستحق الثناء كما يصح أن يكون قدوة حسنة.

والآن أراني مضطراً أن أفرض عليك قصاص توبة وندامة. عندما ينتهي عملك النهاري تذهب إلى الكنيسة اليسرى ثلاث مرات في خلال الليل، وهناك تصلي وتطلب الغفران راکعاً أمام الصليب، وذلك لمدة عشرة أيام. وبعد أن تنتهي كفّارتك يبدأ الراهب مارداري بإرشادك ووعظك. لقد كنت فيما مضى مستخدماً في (مكتب ملاكين) أليس كذلك؟ هذه المكاتب تفسد الأخلاق والدين، ولذلك وجب أن تطهر نفسك من الأدران. انصرف الآن بسلام، أنت يتيم لا أب لك ولا أم، فاذهب وسأصلي إلى الله لأجلك. توكل على الله.

مضيت إلى الفرن حاملاً في مسامعي ذلك الخطاب الطويل الذي جاء وقرأ على الأذن، ثقيلاً على القلب.

فقد يضل العقل في بحوثه وقد يصاب بالسهو والذهول في معالجة بعض القضايا فلا حياء في هذا ولا عار، ولكن لا جدال في أنه لا يليق بالرجل أن يعيش كأحد الخراف. لا يجدر به أن يكون منقاداً أعمى.

في ذلك العهد كنت أعد التأملات الدينية بمثابة محشر في أعماق
كياننا، في صميم الروح حيث أودعت البذور الحيوية، وحيث يجتهد
الفكر في التفنق كما تنفثق أنوار الثمار. أنا لم أر في داخلي أمراً غامضاً
مستعصياً عليّ فهمه أو متكرراً لي يناصيني العداء، كل ما في باطني
مؤتلف متسالم، بيد أنني رأيت نفسي أمام أحجية الأحاجي وهي الله،
كما أنني شعرت بالخصام والعداء في العالم الخارجي. فلماذا أكفر عن
ذنب لم أرتكبه؟ وما معنى الكفارة التي فرضها عليّ الرئيس.

الآن الله مستعصي الفهم لا يدركه العقل؟ الآن العداء منتشر بين
البشر؟

أما أن يشيد الرئيس بفضائل ميخا ويعده القدوة الحسنة فهذا هو
الرياء بعينه، لقد كذب الرئيس فيما انتحله لميخا من التقوى والعبادة،
ولا أعرف كيف أفسر هذا الخداع. لقد كنت أنفرد عن رفقائي وأمتنع
عن مشاركتهم في الأحاديث، ولكنني في الوقت نفسه كنت أرقبهم
وأترصدهم، فرأيت أن كثيرين من أحداث الرهبان وسواهم يمقتون
ميخا ويحتقرونه ويخافون شره.

ورأيت أيضاً أن إدارة الدير لا تختلف عن إدارة إحدى المزارع أو
الأملاك، رأيت في الدير كل أنواع المتاجر، فالحطب يباع والأراضي
تؤجر، والخراج يُجبي على الصيد في البحيرة والفواكه والبقول تُعرض
للبيع... إلخ.

وكان في اصطبل الدير ثمانية عشر حصاناً. أما عدد الإخوة فيبلغ

مائة وخمسين أغلبهم أحداث ومجتهدون، أما الكهول فقليلون وهم
لذر الرماد في عيون الزوّار والحجاج.

وكان الرهبان يشربون المسكرات ويغازلون النساء ويلهون،
فالأحداث يتسللون ليلاً من الدير إلى القرية، والطاعنون يستقدمون
الصبايا إلى مخادعهم بحجة غسل العلالى، ولا جدال أيضًا في أنهم
كانوا يتمتعون ببعض الزائرات.

بيد أنني لم أحفل بشيء من هذا كله، لا تعينني شؤون الرهبان
الخاصة، فليصنعوا ما يشاؤون فلست بمؤلب لهم، غير أنني لا أستطيع
السكوت عن الكذب والرياء ولا أقوى على مجازاة المضلل الأفاك.

كان في الدير عدد كبير من المسترهبين الذين لقيت على عواتقهم
أشغال شاقة قاسية للامتحان والتجربة. ولكن كثيرين اضطروا أن
يهربوا من الدير تخلصًا من مشاق الرهبانية الثقيلة، ففي غضون السنتين
اللتين قضيتهما هناك فرّ منهم أحد عشر بعد أن مكثوا شهرين فقط. إن
الامتحان الرهباني صعبٌ وطريقه وعرة محفوفة بالشوك والعوسج، فلا
عجب إذا تقهقر الضعفاء وعادوا أدراجهم.

وبديهي أن يضمّ الدير في عداد تحفه وطُرفه أشياء كثيرة تستهوي
الزوّار وتغري الحجاج بالشخوص إليه. فهناك جبة الكاهن التقى
المرحوم الأب جوزافا وكانت تشفى من داء الرثية (الروماتيزم) وهناك
قلنسوته، وهي إذا وضعت على الرأس شفته من الأوجاع وكان في غابة
الصومعة ينبوع ماؤه قارّ شنان، فمن اغتسل به نال البرء من أسقامه.

وهناك أيقونة العذراء وكانت تقوم بصنع العجائب لخير المؤمنين.
ولا ينتهي الأمر عند هذا الحد، فقد كان الأب مارداري يقرأ الغيب
ويستشف حجاب المستقبل، ويتنبأ ويعظ ويعزي الحزاني الملهوفين،
والخلاصة أن الدير كان جامعاً لكل المشوقات والمغريات، فلا ينبثق
شهر آيار حتى تبتدى حجة الشعب إليه للتبرك بآثاره المقدسة والتحرر
من آلام الداء.

وبعد مقابلي للرئيس ووقوفني على تعاليمه عزمت على الانتقال
إلى دير آخر حيث تتجلى الوداعة والبساطة بأجمل مظاهرها، حيث لا
تفرض على الرهبان الأحداث أعمال شاقة تلهيهم عن مزاوله التأملات
الدينية والرياضيات الروحية، حيث يتسع المجال للإشراق والتقرب من
الله، بيد أن الحوادث أفست عليّ عزمي وحالت دون إدراكي لبغيتي.
وكنت في هذه الأثناء قد تعرفت براهب اسمه غريشا وهو رجل
رقيق القلب لطيف العشرة ينظر إلى الأشياء من وراء نظارتيه القاتمتين.
اعتاد غريشا أن يسير مسرعاً برشاقة وهو مطأطئ الرأس، كمن
لا يريد أن يرى ما يحيط به في طريقه. فبعد مرور أيام على محادثتي
للرئيس، جاءني غريشا إلى الفرن وكان ميخا غائباً، فما أن حياني حتى
سألني:

- أمثلت بحضرة الرئيس؟

- نعم.

- أوعظك وأرشدك؟

- كَلَّا.

- أَلَمْ يَصْغِ إِلَيْكَ.

- كَلَّا.

فمد غريشا يده إلى نظارتيه كأنه يصلحهما وقال بصوت مضطرب:

- سامحني إكرامًا ليسوع!

ثم أنفض رأسه (أي حرّكه وهزه) وجلس مطأطئًا، وكان السعال يأخذه مرّة بعد أخرى فيهتز من رأسه إلى قدميه وتعدّر عليه التنفّس فيكمّد لون وجهه.

وما أن استراح قليلًا حتى أعدت ما ألقاه عليّ الرئيس دون زيادة أو نقصان، ولما انتهيت وقف أمامي وسألني بصوت رنان:

- لماذا يقولون إن كل من يزهد في الدنيا إنما يؤثر الدير لإنقاذ نفسه في حين أن الصومعة ليست إلا كسائر المشروعات الدنيوية التي قصرت همها على حشد المال؟

لقد انخرطت في سلك الرهبان هربًا من الأنانية وخطاياها، ولكنني رأيتهَا منتشرة في الدير انتشارها في خارجه، فإلى أين أذهب الآن، وإلى أين أسدّد خطواتي لأنقذ نفسي؟

ثم قصّ عليّ قصته المحزنة فقال إنه بعدما درس العلوم التجارية أخذ يساعد أباه في أشغاله وكثيرًا ما كان يحل محله.

قال لي غريشا: كنت أؤثر الإتجار بالألبسة على الإتجار بالخبز،

هذه تجارة دنيئة أمقتها وأكرهها. عن الخبز لا غنى لأحد. ولذلك لم أرَ من العدل أن أبتز به الفقراء والمساكين، ولهذا السبب شاء والدي أن يتلفني ولكن دارت عليه الدائرة فأتلفه نجله وقضى عليه وذلك أنه كانت لي شقيقة ذكية الفؤاد طروب تحب الدرس والمطالعة، وفي ذات يوم جاءها أبي وقال لها: «لقد أنهيت دروسك يا أليصابات، ولم يبق لك حاجة في التردد إلى دور العلم إذ إنني أنتقيت لك عريسًا».

فأخذت أختي تبكي وتصرخ ولكن أبي لم يحفل بها ولا رثي لحالتها ولما رآته مصرًا على ما يريده، أذعنت لمشيئته مرغمة.

وكان العريس الذي اختاره لها رجلًا فظًا مرئيًا لا ينقطع عن التبجح بغناه وأمواله، والصحيح بثروة أبيه الذي كان من أكابر تجار الشاي.

هذا الرجل لم ينل حظوة في عيني شقيقتي، فالطباع مختلفة والمنازع متنافرة والميول متباينة فإذا شكت أمرها إلى أبي أجابها معنفًا: يا لك من حمقاء! أنسيت أن له مستودعات كبيرة في كل المدن المنتشرة على نهر فولجا؟

فتسكت وقد غلب عليها اليأس.

ثم جاء يوم الزواج، وعندما دنت ساعة الإكليل أوت أختي إلى مخدعها ثم تناولت مسدسًا وصوبته إلى قلبها. وما إن دوى الرصاص حتى هببت كالمجنون فرأيتها على آخر رفق من الحياة.

فركعت أمامها وقد تحادرت دموعي أمام عروس الموت ففتحت عينيها وأرسلت نظرًا تائها وقالت:

- الوداع يا غريشا، كنت أود أن أعيش وأحيا، ولكن لا طاقة لي على احتمال أعباء الحياة الثقيلة، آه! لا أستطيع.. الوداع.

كان غريشا يمضي في قصته مسرعًا كأنه يحاول أن يفلت من ذكريات الماضي وفواجعه، وكنت أصغي إليه وقد حدّقت ببصري إلى الفرن فبرزت أمامي فوهته السوداء التي اندلعت فيها ألسنة النار ووثبت على الحطب تلتهمه صاخبة زائرة فحكّت معمعنها أمازيج النصر والفوز. أدمت نظري في النيران المتقدة فخيّل إليّ أنني أشاهد في اللهب وجه شقيقة غريشا المنتحرة، فاهتزت حنقًا وقلت في نفسي: «لماذا يعذب البشر بعضهم بعضًا ويقتل أحدهم الآخر؟».

كان غريشا يقذف ألفاظه كما تقذف الرياح الأوراق اليابسة في الخريف، وهكذا تابع حديثه قائلاً: «ولما دري والدي بالأمر ضرب الأرض برجله وصرخ كالمجنون: «لقد لطختنا بالعار وخسرت روحها» ولم يثب إليه رشده إلا بعدما رأى كل قازان تشيع جثة ابنته إلى مقرها الأخير وتثر فوقها أكاليل الورود وتبللها بدموع التفجع والتحسر، فأعمل أنتذ فكره وقال: «أما وقازان كلها تبكي أليصابات وتندبها، فأنا المخطيء وأنا المسيء إليها».

وهنا غلب البكاء على غريشا فسالت عبراته وبللت نظارتيه فمد يديه المرتجفتين ومسحهما ومضى في قصته:

- وكنت قبل نزول هذه الفاجعة أنزع إلى التهرب وأجنح إلى حياة الدير وقد أطلعت أبي على رغبتني وسألته أن يسمح لي بالانخراط في

سلك الرهبان فشتمني وضربني، بيد أنني أصررت على عزمي وأعلنت له مرارًا عديدة ما أشعر به من رذل التجارة واحتقارها.

وظل أبي مصرًا على جوابه السلبي إلى أن انتحرت شقيقتي فأذعن لطلبي خوفًا من حدوث كارثة جديدة.

مضى على القصة أربع سنوات، قضيتها في ديرين، غير أنني لم أحظ حتى الآن براحة النفس، فأيان أذهب أر المتاجرة ناصبة لواءها. الأديرة تبغ الأراضي والعجائب وتتجر بالعسل وكلمات الله. وأنا لا أستطيع أن أشاهد هذه التجارة دون أن أتعذب وتتألم روحي.

وقد جدّدت قصة غريشا مرارة قلبي وبعثت ما كان يراودني من الشك والريب في حياة الأديرة وفي الإيمان. فسألت غريشا:

- وأين الله إذن؟ أين الهناء؟ كيف التفتنا نرانا محاطين بالقسوة البشرية، باللصوصية الدنيئة منشأ الأحران والفواجع، فأين الله؟

وما أنهيت عبارتي حتى برز أمامنا ميخا فانتقلنا إلى حديث آخر.

ومنذ هذه الساعة توثقت صلات الولاء بيني وبين غريشا فكنا نتحدث كل يوم ويسلي واحدنا الآخر ويعزيه، وفي ذات مرّة شرحت لغريشا أفكاره وأطلعته على ما أبطنه فانتابه الخوف ونصح لي أن أتضع وأتصاغر. فسألت:

- وما الذي يقضي على البشر باحتمال الآلام والعذاب؟

فأجابني: خطاياهم وهو يقول بأن الله مصدر كل شيء، الجوع

والحريق والطوفان والزلازل ولذلك سألته مستنكرًا:

- أنت ترى إذن أن الله هو من يزرع على الأرض بذور بلايانا ومصائبنا؟ فهمس قائلاً: اذكر قصة أيوب أيها البليد!

فرددت عليه مغتاضًا: وماذا يعنيني أيوب وصبره على الدواهي والقوارع لو كنت مكانه لخاطبت الله قائلاً: «لا تعذبني يا رب ولا تضربني بغضبك ونقمتك بل افتح أمامي طريق النور المؤدي إلى مملكتك السماوية. إذا صددتني عن المنهج السويّ فإنما تضع من قدرك وتتصاغر، أأست ابنك المنبثق من روحك والمخلوق على صورتك ومثالك؟».

وفي ذات يوم أطلعت غريشا على آرائي في العلوم الإلهية (اللاهوتية) ولما رأني متطرفاً بكى وضممني إلى صدره هامساً:

- يا أخي العزيز، أخاف عليك كل الخوف وأخشى أن تسقط في هاوية الضلال، فالشيطان هو الذي يبث فيك هذه الأفكار، وهو الذي يوحي إليك بالكفر. فأجبتة: أنت مخطئ، أنا لا أؤمن بالشيطان لأن الله كلي القدرة.

وقد كان لجوابي هذا تأثير عميق في قلبه حمله على القلق والاضطراب، ولا غرابة، فقد كان نقي القلب، سليم الطوية، طاهر الروح، وهذا ما حبه إليّ.

الفصل العاشر

كلما غاص القلب على در المعرفة، ازداد شعوره بالجهل

لم يكن لي مندوحة عن القيام بالكفارة التي فرضها عليّ الرئيس، فما إن ينتهي عملي النهاري حتى أتجه إلى الكنيسة فيفتح لي بابها الأب التقي نيقوديموس، ثم لا يلبث أن يغلقه ورائي.

كان العياء يأخذ مني مأخذه الشديد في خلال النهار، ولذلك لم يكن لي طاقة على الوقوف أو الركوع أمام الصليب، بل أرتمي على أحد المقاعد كجثة هامدة، وبعد أن أستريح قليلاً أدير لحظي الفاتر الناعس فيما حولي، ثم أفكر في نفسي وفي غريشا.

كان الوقت صيفاً، والليالي حارة خانقة، بيد أن الحرارة في الكنيسة كانت معتدلة.

أخذت أتأمل المعبد فرأيت القناديل منتشرة هنا وهناك، وكانت أنوارها المزروقة المرتجفة تبدو لعيني كأنها تتحفز للطيران إلى القبة بل إلى ما هو أعلى منها إلى السماء، إلى النجوم.

وكان يترآى لي وأنا بين اليقظة والرقاد، أن كائنًا غير منظور يقطن في الهيكل ويهمس سرًّا في آذان القناديل فترجع ألسنتها النارية صدى همسه.

وكان الشموع غارت منها فاشرأبت أعناقها المتقدمة إلى القناديل ورددت صدى الصدى في ذلك السكون المهيّب.

وكانت الظلمة تغمر وجوه القديسين المرسومة على الأيقونات فتبدو وجوههم في وسط تلك السكينة كأنها تتحرك، متأملة مفكرة في حل مشكلة عويصة عرضت لها وكانت أشباح شفاقة تهينم فوق وجهي حاملة رائحة البخور والزيت.

وبعد أن أقضي في الكنيسة المدة اللازمة لتلاوة الصلوات أعود إلى فراشي وأنام نومًا عميقًا حتى إذا دنت ساعة الصلاة جاءني الأب نيقوديموس وأيقظني قائلاً:

- قم باسم الله.

فأعذر إليه ثم أنهض وأمشي متثاقلاً مستنداً إلى ذراعه.

كان هذا الأب شيخًا طاعنًا في السن وديعًا هادئًا قليل الكلام إلى درجة الصمت. وكان يحجب وجهه بقناع لا يفارقه.

وفي أحد الأيام سألته: أنذرت الصمت أيها الأب نيقوديموس.

فتنهّد وأجاب: كلا، لو كان عندي ما أقول لتكلمت.

ثم سكت وسكّ أنا أيضًا بعدما أدركت أنني لن أستطيع أن أستلّ من صدره سرّ الدفين. فقد كنت أقول في نفسي: «ربما كان أحد أولئك المخدوعين الخائنين الذين لجأوا إلى الدير لسلوك منهج الهداية والنور».

وماذا أنتظر بعد هذا؟ آه لو تسنى لي الهرب من الدير...!

وفي هذه الأثناء برز في الصومعة راهب جديد جميل الطلعة كأنه دمية أشقر الشعر أجعده ذو لحية خفيفة وأسنان بيض كاللؤلؤ وابتسامة جذابة لا تفارق ثغره.

كان هذا الراهب الجديد يسلي الرهبان بنكاته ويضحكهم بدعابته ويستهوهم بمعسول حديثه عن النساء، والخلاصة أنه كان من أكبر معاقري الخمرة بارعًا في كل أمر.

وعنّ لي في أحد الأيام أن أعجم عوده وأستكشف باطن أمره فسألته:

— عمّ جئت تبحث في الدير؟

— أنا؟ جئت أبحث عن الطعام.

— حسن، ولكن يجب على كل رجل أن يكسب بعمله ما يسد به

رُمقه.

فرد عليّ قائلاً: أخطأت، فالعمل شريعة فرضها الله على الفلاحين والقرويين وأنا لست منهم، إذ إنني أنتمي إلى السراة، هذا بصرف النظر عن أن اشتغالي في وزارة المالية مدّة سنتين يترتب عليه أن أعد نفسي ذا سلطة.

ولما سمعت جوابه أخذت أدرس أخلاقه، فقد كنت أتوق إلى معرفة النوابض المختلفة (أي الزنابر جمع زنبرك) التي تحرك البشر. فبعد أن حذقت عملي في الفرن وتدرّبت على احتمال مشاقه، بدأ ميخا يتكاسل فكان يتركني وحدي في أغلب الأحيان ويذهب إلى حيث لا أدري، وأنا لم أحفل بغيابه، فقد كنت أؤثر أن أكون وحدي بلا مساعد ولو تضاعف عملي.

وكان انفرادي بالعمل مدعاة إلى تردد الرهبان إلى الفرن، فكنا نتحدث ونتناقش ونبحث في أمور كثيرة.

وكنا في الأغلب نتألف من ثلاثة: غريشا وسيرافيم الراهب الجديد وأنا.

كنت أفضي إلى رفيقيّ بما يخامرني وما أحسه وما يجول في خاطري، فلا يلبث غريشا أن يرتعب ويستحوذ عليه الخوف كأن أمامه حيواناً فاعراً فاه لافتراسه، أما سيرافيم فكان يضحك تارة ويصفر أخرى.

وفي ذات مرّة سألت سيرافيم: وأنت أيها السري الشريد هل تؤمن بالله؟

فرد عليّ قائلاً: اترك الجواب للمستقبل، انتظر ثلاثين سنة وبعدئذ أقول لك أو من بالله أم لا، عندما أبلغ الستين أكشف الحقيقة وأميط عنها اللثام، أما الآن فأجهل هذا الأمر كل الجهل، فعلام الكذب والرياء؟

وقد نرتاح كل الارتياح عندما نسمعه يصف لنا البحر.

كان يتكلم عنه كأنه يقص علينا خبر أعجوبة عظيمة، فيختار الألفاظ الكبيرة الرنانة ويخفض صوته تارة ويرفعه أخرى، ويتلاعب بلهجته طبقاً لما يشرحه.

وكنّا نصغي إلى حديثه صامتين مأخوذين بجمال البحر وجلاله.

كان يقول: البحر عين الأرض الزرقاء، يمتد نظرها إلى أعالي السماوات متأملة في اللانهاية، وعلى سطح هذا السائل الحيّ الحساس المشابه للروح تنعكس أنوار النجوم فتزيده جمالاً وفتنة.

إن من يدمن النظر إلى أمواج البحر المتلاطمة، يخيل إليه أن السماء نفسها هي أوقيانوس بعيد، وأن نجومه جزر ذهبية.

وما أنهى سيرافيم وصفه للبحر حتى أحنى رأسه وأجاب حزينا:

- والغريب أن البشر أمام هذه الأسرار الهائلة والمشاهد الفتانة الجليلة، لا يعرفون غير التجارة وحدها، فيا الله منهم!

وكان سيرافيم يحدثنا أحيانا عن القوقاز فيصفها أجمل وصف، ويصورها بألوانها الزاهية والقائمة قائلاً:

- القوقاز وجه الأرض حيث تلتحم وتتلائم في ابتسامة واحدة
طهارة الروح النقية ودنس المعارف الشيطانية.

إلى القوقاز ينبغي الشخصوس ليمتحن الرجل قواه، فمن كان
ضعيف القلب هشيماً سقط هناك مسحوقاً أمام قوات الطبيعة، ومن
كان مفتول الساعد مريضاً صلب العود، ازدادت قوته وسلطته وارتفع
وتعالى كما تتعالى قمم الجبال الخضراء وترتفع إلى أعالي الصحاري
السماوية، إنما هذه القمم عُرس لأشعة الشمس.

فتنهذ غريشا وسأل بصوت منخفض: من ذا الذي يقود الروح في
الطريق الواجب سلوكها؟ وأيُّ أفضل: اعتزال الناس أم الاختلاط بهم
والمعيشة معهم، ومن هو الذي نصّده، ومن هو الذي نركن إليه؟
فأجابه سيرافيم وقد تفرقت في ثغره ابتسامة هادئة:

- من ينظر إلى مجد الشمس لا يناله بزيادة ولا يرميه بنقصان، هذا
أمر لا جدال فيه يا صديقي غريشا.

وكثيراً ما كان يستعصي عليّ فهم ما يعنيه سيرافيم برموزه وتعابيره
المستعارة، وفي إحدى المرات سألته غاضباً:

- ما دام الأمر كما تقول، فما الغاية من وجود البشر، وما هم؟
فابتسم وهز كتفيه وأجاب: البشر...؟ البشر متباينون متعددون
كالنباتات، فمن كان منهم أعمى فالشمس نفسها في نظره ظلام، ومن
لم يكن مغتبطاً في داخله بنفسه فهو يعيش مستاء من الله، هذا والبشر

في حد ذاتهم حديثون، حديثون جدًا وهذه الحادثة تحول دون معاملتهم كذواتٍ كبار، أفهمت يا عزيزي؟

وكان سيرافيم بعيدًا عن أفكاره وآرائه عن غريشا، كانا كلاهما على طرفي نقيض، مع هذا توثقت بينهما عرى الصداقة وأخلص الواحد للآخر وأطلعه على مكنونات صدره.

وفي أحد الأيام أخبرني سيرافيم أن غريشا عزم على مغادرة الدير إلى أولونيتز، وأنه سيهرب معه وختم كلماته قائلاً: أرافقه مسافة طويلة وبعدما أستريح أسبوعًا أعود إلى القوقاز، وأنت تحسن صنعًا في مرافقتك إيانا يا ماتفي، فإنك في ترحالك تجد سريعًا ما تبحث عنه، أما إقامتك في الدير فلا تغنيك فتيلاً.

فرفضت اقتراح سيرافيم وأبيت السفر؛ لأنه لم يكن بوسعي أن أترك الدروس التي كان مارداري يلقني إياها.

وقد كانت مرارة قلبي شديدة عندما ودّعت رفيقي غريشا وسيرافيم.



الفصل العاوي عشر

أوهام وضلالات...

كان مارداري يقطن في كهف محفور حذاء الكنيسة، وكان يُستخدم هذا الغار في الأيام السالفة مخبأً لأموال الكنيسة ومجوهراتها خوفاً من اللصوص الذين كانوا يرتادون منطقة الدير.

وكان للكهف مدخل سري هو كناية عن نفق بابيه واقع تحت المذبح تماماً. وكانت المصابيح تنير النفق فيأمن سالكه العثار، أما الكهف فكان عميقاً ولا بدّ لداخله من الانحدار في سلم تبلغ درجاته اثنتي عشرة.

وكنت عندما أنحدر إلى الكهف لمقابلة مارداري أشعر بانفعال نفساني شديد، وأحس برطوبة فاترة تكتفني من كل الجهات، وبعد أن أهتدي بنور المصباح وأجتاز النفق أدخل الكهف الذي اختاره مارداري مسكناً له.

إنني لا أزال أذكر المرة الأولى التي قابلت فيها هذا الراهب التقّي،

ركعت أمامه صامتًا دون أن أنطق ببنت شفة، وصمت هو أيضًا مدة طويلة، وكانت تحيط بنا سكينه خرساء أشبه بسكينه الموت فتزيد الموقف خشوعًا وانقباضًا.

وبعد صمت طويل قال لي بصوت لا يكاد يسمع: تكلم!
فلم أستطع إلى الكلام سبيلًا، ذلك أنه أخذني الشفقة على هذا الكهل المدفون حيًا في أعماق الأرض. ولما رأيته لا أرد أعاد الكرة وقال: تكلم يا بني.

ثم التفت إليّ فأدرت لحظي في وجهه البالي المظلم وحاولت أن أرى عينيه فلم أتييهما لولا أنني استدلت عليهما بحاجبيه. وتابع الناسك كلماته قائلاً:

- يلوح لي أنك تميل إلى الجدل، علام تجادل؟ اخدم الله بتخضع وتواضع، ماذا تفيد مناقشتنا لله؟ فلنحبه وهذا كل ما علينا أن نصنعه.
- غير أنني أحبه.

- ينبغي أن تحبه، وإذا عاقبك أو جربك فلا تحفل وردد دائماً:
«المجد لك يا الله، المجد لك». هذا ما يجب أن تردد ولا شيء سواه.
ثم سكت عن الكلام ولكنه لم يقل «لماذا» ولا شرح تعليل ما أوجبه عليّ، أترى لضعفه أم لأنه نسي طريقة الكلام؟

كانت عباراته غامضة يصعب فهمها، ولم يكن بوسعي أن أنهل عليه بالأسئلة وأعكر صفاء باله واطمئنان نفسه التي كانت بانتظار الموت، ثم مضى في كلامه فقال:

- صلّ وأنا سأصلي لأجلك.

وسكت، فانتابتنى لهفة وذعر وسرى في عروقي ما يشبه البرداء.
وما مرّت دقيقة حتى همس: ألا تزال هنا؟ إني لا أرى ما يدعو إلى
بقائك، فاذهب واترك الجدل جانبا.

فانسللت واجتزت النفق، وما كدت أنشق الهواء النقي حتى
أخذتني هزة الطرب، وكانت ثيابي قد ترطبت وتبللت كأنني خرجت
من بئر، إني أعجب بمارداري كل العجب وأتساءل: كيف استطاع أن
يمكث في هذا الكهف أربع سنوات؟

قابلت هذا الناسك الزاهد خمس مرات، بيد أنني لم أتمكن أن
أصرّح له مرة بما يخالجنى وأشعر به، وكنت إذا انحدرت إلى الكهف
أرهف أذنيه وسألني:

- أنت، أنت الذي جئتني أمس؟

فأجيبه: نعم، أنا نفسي.

فيقول ناصحا مرشدا هامسا: لا تشك في الله، ما هي حاجتك؟
إلى قليل من الخبز لا أكثر ولا أقل. إن الشك في الله خطيئة، الشك في
الله دعاة من مداعبات الشيطان، ألا فاعلم يا بني أن الأبالسة يتذرعون
بكل وسائل التجربة التي يسبكونها في قالب الإغراء، إني لا أجهل هذه
الأمور.

الشياطين مصدر الغواية فلا تلق إليهم بالاً، ولا تحفل بما يزينونه
من مشاهد التجربة، وإلا كنت مسيئا إلى نفسك، مهينا لها، فاحفظ

نفسك وإياك أن تستسلم للشياطين لئلا تعبت بها.

كان يلفظ هذه العبارات المتقطعة بلهجة هادئة فتقع كلماته كرماد انطفأت نيرانه وبردت، وما عسى أن تفيدني هذه الإرشادات التي لم تكن لتحرك روحي وتوقظ نفسي؟ وبعد أن استراح قليلاً تابع مواعظه فقال:

- أراك صامتاً، ليصنع الآخرون ما يحلو لهم، أما أنت فلا تقول شيئاً، إن الذين يأتونني مسترشدين لا ينفكون عن الكلام، هم يتكلمون كثيراً ولا أذكر ما يقولونه، يتحدثون عن النساء في أغلب الأحيان، ولكن ماذا يهمني تحدثوا ما تحدثوا، أما أنت فتطرق صامتاً لا تنبس ببنت شفة، وكنت لا أقول لك شيئاً ولا أعظك لولا أن المدير أوصاني بأن أعزيك، فأنا أعزيك ولكنني كنت أؤثر الصمت، حفظكم الله جميعاً، لقد انتزعوا مني كل ما أملكه، إلا الصلاة.

عندما تتعذب روحك وتتألم تظاهر بأنك لا تشعر بشيء، الشياطين هي التي تتخبطك كما عذبتني أنا، ولا تستغرب فأحد إخوتي ضربني وامرأتي حاولت أن تدس لي السم وتقتلني كما تقتل الجرذان، سرقوا مني كل مالي واتهموني بأني أضمرت النار في القرية وشاءوا أن يقدفوا بي في اللهب، آه كم عذبوني، وكم اضطهدوني، آه كم تذوقت من ألوان الشقاء وضروب الألم.

ثم ساقوني إلى المحكمة فنالني قصاصها القاسي، ألا غفر الله لهم وسامحهم وعفا عن سيئاتهم، أنا لم أكن مذنباً أو مجرمًا مع هذا غفرت

لهم لأخفف عن نفسي عبئًا ثقیلاً، لقد وقعت عليّ هذه المظالم وقوع
الجبال وجثمت عليّ حتى حرمتني التنفس بيد أني تنفست الصعداء
عندما غفرت للمسيئين إليّ وسامحتهم، فشعرت أنّي ألقيت عن
عاتقي ذلك الحمل الثقيل الذي ناء به ظهري.

ولم يكن حظي من البشر بأقل من حظي من الأبالسة الذين نصبوا
لي التهالك، ولكني طردتها بالصفح والغفران، فافعل أنت ما صنعتها أنا
واحذ حذوي.

وفي زيارتي الرابعة للناسك سألني قائلاً: اجلب لي شيئاً من الخبز
لألوكة، إني مريض والداء يفتك بي، اجلب لي ما أكله واصفح عني
باسم يسوع.

ولما سمعت هذا الهذيان قلت في نفسي، وقد تفطر قلبي شفقة
على هذا الشقي، علامَ هذه الآلام علامَ؟ وتابع مارداري كلماته وأخذ
يهذي هذيان محموم فقال:

- أشعر بوجع أليم في جسمي كله ليلاً ونهاراً، فإذا لكت الخبز
تحسنت حالتي وخفّت آلامي الشديدة التي كثيراً ما تمنعني عن
الصلاة، مع أن الواجب يقضي عليّ أن أصلي بلا انقطاع، حتى في نومي
وأحلامي، وإلا تجرد لي الشيطان وأذكرني اسمي وحياتي الماضية
وكل ما أريد نسيانه.

انظر إلى الشيطان، ها هو جالس فوق الموقد، ألا تراه؟ إنه لا يعبأ
بالنار المضطربة فقد اعتادها، أرسم الصليب لأطرده من أمامي فلا

يلبث أن يعود ويضايقني فتارة يشب على الجدران وأخرى يتدلى من السقف، وطورًا يحوم فوق رأسي، وقد اعتدت أن أحتمله، فلا تضيرني رؤيته، بيد أنني لا أنفك عن التعويد بالله وكثيرًا ما ألافه وأقول له: «اذهب عني ولا تثقل عليّ» فيختفي ثم يظهر ويذكر اسمي، هم يدعوني ميخائيل بتروف فياخيريف.

وبعد أن أطرق وصمت رفع رأسه وأدار لحظه وهمس خائفًا مدعورًا: ها قد عاد الشيطان إلى إقلاقي، ماذا تريد مني؟ ثم التفت إليّ وقال: وأنت يا بني اذهب، اذهب بسلام!

وفي هذا اليوم بكيت غيظًا وحنقًا، ما هي فائدة هذا الشيخ البالي الخرف؟ وأي جمال في تقواه وورعه؟ أي جمال في زهده وتنسكه وتعذيب جسده؟ أي مظهر من مظاهر السمو الروحاني، من مظاهر الألوهية في حياة هذا البائس التاعس الذي ينام على سرير الآلام دون ما جدوى للبشر وللدين ولله؟

وفي اليوم التالي ملأت جيبي بالخبز الطري وقد طفح قلبي مرارة وحنقًا على البشر، ولما قدمت الخبز لمارداري صرخ مبتهجًا: آه ما أحسنه، إنه لا يزال سخينًا.

ثم تحرك فوق سريره فأنت قصبانه الخشبية من تحته وبعد ما خبأ الخبز عاد إلى التغزل به قائلاً: ما أحسنه. إنه سخن طري.

ولا غرابة في ابتهاجه بما جلبته له من الخبز لأن الرهبان كانوا يطعمونه أربع مرات في الأسبوع فقط، ولذلك كان يبيت على الطوى،

فهل من ينكر عليه أن يهش وييش لما يسد به رmqه؟

كانت هذه آخر مرة قابلته فيها، لم يوجه إليّ كلمة واحدة، بل عكف على الخبز فملاً فمه وأخذ يلوته ويلوكه ويستعين على مضغه بلثته لأنه كان أدرد.

وبعدما مضت بضع دقائق قلت له: سامحني أيها الأب مارداري باسم يسوع، إني ذاهب ولن أعود فاقبل شكري وثنائي.

فوقف عن المضغ وأجاب: أنت الذي تستحق الشكر والثناء لا أنا. ولكن قبل أن تنصرف اصغ إلي، أرجو أن لا تطلع أحدًا من الرهبان على أمر الخبز الذي جلبته لي وإلا انتزعوه مني لأنهم حسدة، إن الأبالسة يعرفونهم، كما يعرفون كل شيء....

وبعد بضعة أيام مرض مارداري واشتدت عليه وطأة الداء فمات، وقد أقيم له مأتم حفل جليل اشترك فيه أكابر رجال الأكليروس وقد جاءوا من المدينة خصوصًا للصلاة على جثمانه باعتبار أنه رجل تقي بار. وقد قصّوا عليّ بعدئذ أنه كان ينبعث من قبر مارداري الكهل الخرف والبائس الشقي، نور وهّاج غير طبيعي، وكان النور يفيض من ضريحه كل ليلة.

فيا للعار ويا للخجل! ما أسخف عقول البشر، وما أخط مدارك الشعب وما أقبح الإتجار بالموتى تحت ستار الدين!

الفصل الثاني عشر

صدّات وجراح في الروح

طراً عليّ حادث جنح بي إلى حيث لم أحب فتغير مجرى حياتي.
دخلت ذات يوم إلى الهري (البيت الذي يجمع فيه القمح وسواه)
فرأيت ميخا مستلقياً على ظهره فوق الأكياس مستسلماً لشهوته
الجسدية ولذته المنفردة، فأجفلت وصُغت وجمد الدم في عروقي.
ذكرت المطاعن التي كان يوجهها هذا «الرجل العفيف» إلى
النساء، واستعدت إلى خاطري ما كان يرميهن به من الفواحش
والسوءات، وكيف وصفهن بالفجور والخبث. فقلت في نفسي:
أهذه هي عفة الرهبان، يرمون المرأة بكل سوءة وعوراء ولا يخجلون
أن يرموا في أحضان الخطيئة المسترة واللذة البهيمية الفردية؟
بصقت على الأرض وخرجت مسرعاً إلى الفرن وقد احمر وجهي
خجلاً مما رأيت، وتفطّر قلبي حزناً ومرارة على ما نظرت.

ولم يلبث ميخا أن تبعني ثم ارتمى على قدمي وتوسل إليّ أن أكرم أمره قائلاً:

- وأنت أيضاً يتخبطك شيطان الخطيئة ويثير شهوتك في خلال الليل، لا تنكر، أنا أعلم أن سلطة إبليس عظيمة... فاستغربت وقاحته ورددت عليه منتهراً مشمئزاً:

- كذبت يا لئيم، إهو إلى أعماق الجحيم أيها الكلب الملعون. وأنهلث عليه بالشتائم والسباب ولم يكن بوسعي أن أعف عنه، بل كيف أسكت عنه وهو لم يعف عن النساء ولا نزّه نفسه عن الطعن فيهنّ زوراً وبهتاناً.

ولم يفتر ميخا عن التوسل إليّ وهو جاثٍ على رجليه يسترحمني ويتضرع إليّ أن أسكت، فرحمته وقلت موبخاً: أيها اللئيم، إنني سأكتم عن الناس خبر أعمالك الشائنة التي تعود عليك وعلى الدير بالخزي والعار، فأنا أسمى من أن أفصح مساوئ الآخرين أو أنتقم منهم، بل أستر عليهم، غير أنني لا أريد من الآن فصاعداً أن أشتغل معك في الفرن، فاطلب إلى الرئيس أن يسند إليّ عملاً آخر.

وقد ألححت عليه، فلم يسعه إلا إجابة طلبي.

وكنت حتى هذا الوقت أهتم بالآخرين، ولا أكاد أنظر الرهبان، لم تكن لي إلّا رغبة واحدة وهي أن أتحرر من نفسي.

ثم مرض ميخا فأرسل إلى المصح للمعالجة، وهكذا أصبحت

مدير العمل في الفرن، وعين لي الرئيس مساعدين اثنين. وبعد ثلاثة أسابيع دعاني قيم الدير وقال لي: إن ميخا برئ من مرضه، بيد أنه لا يحب أن يعود إلى الشغل معي في الفرن، وذلك لأنني عنيد، فيجب عليّ إذن أن أقطع الحطب في الغابة، وهذا الشغل الجديد الذي أسند إليّ إنما هو بمثابة قصاص لي.

فاستغربت هذا العمل وسألت القيم: وبماذا أسأت؟ ما هو الذنب الذي اقترفته؟

وفي هذه اللحظة برز الراهب الجميل الطلعة واسمه أنتوني فانزوي تواضعًا وأنصت إلى الحديث.

فأجابني القيم: إنك لا تزال شرس الطباع، فضلًا عن أنك تسيء الظن بالرهبة، إن هذه العيوب لا تغتفر لمن كان في سنك فلذلك يجب إصلاحها.

وكان الرئيس الأعلى قد اندفع بنبالة خلقه إلى الرأفة بك فأوصى بإسناد عمل من أعمال المكتب إليك، فما كان منك إلا أنك سلكت مسلك الضالين...

وقد أكثر القيم من الكلام والوعظ والإرشاد، ولكن لهجته الفاترة دلتني على أنه مدفوع إلى النطق بهذه الخطبة الطويلة الجافة.

كان الأب أنتوني يرسل إليّ نظرات غامضة مبهمة وعلى ثغره ابتسامة التهكم والازدراء، فأردت أن أقدم إليه مثالًا على جرأتي وحرية

طباعي، وقلت لقيم الدير:

- لا أحب أن أرتفع، ولكني لا أقبل الضعة والذل، فاعلم هذا جيدًا،
أنا لم أذنب فاستحق القصاص الذي فرضتموه عليّ، إنني أطلب العدل
وأسألكم الإنصاف، فانفعل قيم الدير واستاء من صراحتي وضرب
المائدة بعصاه وصرخ غاضبًا:

- اسكت أيها الوقح!

فمال عليه الأب أنتوني وهمس في أذنه، فرد عليه القيم قائلاً:

- إن ما تطلبه مستحيل، يجب عليه قبول القصاص دون تأفف أو
اعتراض، فهز أنتوني كتفيه والتفت إليّ ونصح لي بصوت ندي عذب
أن أطيع.

وقد أدركت أنّني أنه كان إلى جانبي يدافع عني، وأن نظراته
وابتسامته لم تكن إلّا لتطيب خاطري وشعوري. وبعد أن حيت أنتوني
وانحنيت محيياً القيم بخشوع سألته: ومتى أتوجه إلى الغابات لتقطيع
الحطب؟

فأجابني: في غضون ثلاثة أيام ولذلك ستقضي الوقت في المحبس.

لو لم يكن أنتوني حاضراً لهجمت على قيم الدير ومزقته بأظافري
وأسناني ولكني صبرت وسكت وضبطت جماح نفسي الشائنة إكراماً
لهذا الراهب الذي غار عليّ وأدار فيّ بصرًا ملؤه الأمل والاطمئنان.

كان المحبس الذي قادوني إليه كناية عن قبو ضيق محفور تحت

أرض المكتب.

كان هذا القبو كالقبر لا يتسع لأكثر من رجل إذا استطاع الوقوف على رجليه فلا يستطيع الاستلقاء على ظهره، بل الجلوس فوق الهشيم. كان السكون مخيمًا فيه تخييمه في القبور، حتى الفيران لم يكن لها أثر هناك.

أما الظلام فكان حالكًا إلى درجة لم أعرفها قبلاً، كانت يداي تختفيان فيه، فلو وضعتهما أمام أنفي لما استطعت رؤيتهما. جلست جامدًا كأني جثة بلا روح وشعرت أنني ثقيل بارد كجلمود ثلج، وانتابني أفكار كثيرة تدفقت في خاطري تدفق السيل فصرفت بأسناني كأني أحاول أن أصدها وأحسست كأن عاصفة هوجاء ثور في صدري المثقل باليأس والحنق فرفعت قلبي إلى الله وناجيته قائلاً:

- أنت يا رب ماذا جرى بعدالتك، أين إنصافك يا الله؟ أليس القساة هم الذين يتخذون عدلك وسيلة لبلوغ مآربهم؟ أليس الأقوياء هم الذين يتوسلون بعدلك ليؤيدوا سلطتهم؟ من أنا في عينيك يا رب؟ أفريسة القسوة أم المدافع عن صلاحك وعدالتك؟

ثم شرعت أستعرض حياة الدير فرأيتها مرّة فظيعة ملؤها الرياء، لماذا يقولون رهبان الله؟ وما هي ميزتهم على العلمانيين، وهل هم أقدس منهم نفسًا وجسدًا؟ لقد عرفت حياة الفلاحين الشاقة، فرائس الجوع والفاقة، هؤلاء كانوا لا يعرفون الله فيسكرون ويسرقون ويتخاصمون ويرتمون في أحضان الخطايا على اختلافها، وهم ربما

كانوا معذورين لأنهم يجهلون مناهج الله السوية، ولم يكن لهم طاقة أو وقت للسير وراء الحقيقة، لقد كانوا مقيدين بحرارة أراضيهم، مسجونين في بيوتهم بأصفاد قوية هي الفاقة، فماذا يؤمل منهم بعد هذا، وما ينتظر من هذه الطبقة البائسة؟

بيد أن الحياة في الدير مختلفة كل الاختلاف عن حياة الفلاحين الأشقياء، فالراهب له متسع من الوقت لمطالعة الكتب المرشدة والانتهال من معين المعارف ومناجاة الله، له حريته، ولكن من هم الرهبان الذين يخدمون الله خدمة صالحة منزهة؟ إنني لا أعرف منهم غير الضعفاء والمظلومين مثل غريشا، أما الآخرون فالله في عرفهم ليس إلا ينبوع كذب لا ينضب ماؤه، ليس إلا حامياً لخطاياهم وترساً يردّ عنهم سيوف الحق.

أعدت إلى الذاكرة حقد الرهبان على النساء، ومجاهرتهم بالطعن فيهنّ، مع أن أجسادهم أقدر من العجماوات بل إن الحيوانات أنقى جسماً من هؤلاء الرهبان المرائين، ثم ذكرت كسلهم وجشعهم ونهمهم، ومناقشتهم في اقتسام هدايا الكنيسة التي كانوا يحومون حولها كما تحوم الغربان فوق الجثث والأشلاء.

قال لي غريشا ذات مرة إن الفلاحين كلما اجتهدوا في أعمالهم للدير تضاعف ما عليهم من الديون وساءت حالتهم، قلت في نفسي: ها قد مرّ عليّ وقت طويل قضيته بالأعمال الشاقة لتكون صدقتي عند الله، فماذا جنيت؟ وماذا كسبت نفسي من وراء صدقاتي غير اللطمات والخدوش؟

بل ما الذي استطعت أن أجنيه لعقلي، وماذا تعلمت غير سلسلة
طويلة من المساوئ والجرائم التي تشمئز منها النفوس، ماذا اقتبست
غير كره البشر ومقتهم؟

كان السكون شديداً كالظلام، رنين الأجراس لا يصل إلى مسامعي،
ولم أدر كيف أقيس الوقت وأنا في الظلمة الموحشة، فلا ليل عندي ولا
نهار، من ذا الذي يحق له أن ينتزع نور الشمس من رجل نظيره؟
ها قد بدأ إيماني بعدل الله وقدرته يضعف شيئاً فشيئاً، آه! ما أحب
الإيمان إلى القلوب البشرية، وما أفضع انتساخه واقتلاعه منها!

وفيما كنت أتسكع في ظلمة الشك إذ برز أمامي الأب أنتوني فملاً
وجهه المشرق بصري وفكري ضياء وكان بمحياء الجميل كالنجمة
المتلألئة التي تشرق في الليالي المدلهمة فحات حول عواطفي
وأفكاري كما تحوم الفراشة حول النور، فحادثته وقصصت عليه آلامي
وبسطت له مرارة نفسي وبحث بأسراري ومكنونات صدري فرأيت
نور الحنان يتدفق من عينيه الساجيتين فينير ظلمة قلبي.

قضيت في هذا المجلس ثلاثة أيام حسبته ثلاثة أعوام وتذوقت في
خلالها طعم الموت. ولما خرجت كنت كليل البصر محدودب الظهر،
مرتخي الأعصاب فكان منظري مدعاة إلى تهكم الرهبان وسخرتهم إذ
كانوا يقولون لي: نعيمًا نعيمًا! هنيئًا لك بالحمام!

وعند الأصيل دعاني الرئيس الأعلى إلى المثول بحضرته فأمرني
بالركوع أمامه ثم أخذ يعظني بعنف وشدة وختم وعظه قائلاً: إني أهشم

أسنان الخطاة وأقصم ظهورهم!

فلم أرد عليه بكلمة واحدة. وكان أنتوني حاضراً يسمع ساكناً غير أن نظراته التي تفيض عطفًا وحنانًا ألجمت لساني وملأت قلبي أملًا وبهجة.

وفيما كنت أنتظر أن يأمرني الرئيس بالانصراف إذا به غير لهجته فجأة وانتقل إلى الثناء عليّ قائلاً:

- إن الجميع يحبونك أيها الغبي. والجميع يعترفون لك باجتهادك وغيرتك على عملك. والجميع يقدرون ذكاءك وقد عزمت أن أريك مكافأة لك فاختر واحدًا من اثنين: إما العمل في مكتب الدير، أو الالتحاق بالأب أنتوني كأخ علماني.

فكدت لا أصدق ما سمعته أذناي وأجبتة والسرور يملك مشاعري:
- أوتر الالتحاق بالأب أنتوني.

فقطب الرئيس وعبس وأجاب: إذا اخترت العمل في إدارة الدير فأنا أعفيك من تقطيع الحطب. أما إذا شئت أن تكون أخًا علمانيًا فأنا أضعف لك القصاص.

فأجبتة: لا بأس، إنني أوتر أن أكون أخًا علمانيًا.

فسألني بلهجة جافة: ولكن ما السبب أيها الغبي؟ ما الذي يدعوك إلى إثارة الرهينة العلمانية على العمل في المكتب؟ ألا تدري أن إدارة الدير أشرف وأسهل؟

فأصررت على طلبي الأول، ولما رأى أنني لن أتحوّل عن عزمي
أخذ يتأملني ويدير فيّ نظراته ثم قال:

- حسن، ليكن ما تشاء، ولكن حقاً إنك رجل غريب. من يعلم ما
هي أفكارك؟ انصرف بسلام.

ثم ذهبت إلى الغابة وكان ذلك في نيسان قبل انقضاء البرد.
كان الشغل شاقاً قاسياً لأن الغابة قديمة العهد وجذور أشجارها
قوية ممتدة في جوف الأرض والأغصان ضخمة صلبة.

فكنت أحضر أولاً حول الشجرة ثم أقتلع جذورها المدفونة في
أعماق التراب وبعدئذ أعمد إلى فرس مسرج أشد إليه حبلاً قوياً أربطه
بالشجرة ثم أضرب الفرس فيعدو بعنف، ولا أزال كذلك إلى أن تسقط
الدوحة. وهكذا لا ينتصف النهار حتى يأخذ مني العياء مأخذه ويكل
الفرس ويتفصد عرقاً وزبدًا، ثم يرفع نظره إليّ كأنه يقول: اشفق عليّ
يا صديقي، فلا طاقة لي بمتابعة هذا العمل الشاق!

فأدنو منه وأعانقه قائلاً: هذا ما أراه يا رفيقي.

ثم أعود إلى حفر الأرض واقتلاع الجذور فلا ينقطع الفرس عن
إرسال نظراته المعنوية الدالة على ما يخالجه من الشعور بعيائي وتعبني.
إنه أرحم من البشر وأذكى منهم. إنه يقدر عملي الشاق قدره
ويشاركني في شعوري وحسي وهذا شيء لم أر مثله حتى من رئيس
الدير.

وجرت في هذه الأثناء حادثة مؤلمة أسفرت عن نتائج وخيمة.
حاولت جهدي أن أتلافى الشر قبل وقوعه فلم أستطع، وذلك أنني
بعدما تناولت الغداء وعدت إلى الغابة إذا بميخا يجري ورائي وهو
يصخب ويشتم هائبًا ثائرًا عاويًا كالذئب وفي يده هراوة غليظة.

فلما رأيته بهذه الحالة وقفت أنتظره، فما إن اقترب مني حتى
بادرني بضربة من هراوته دون أن ينطق بكلمة، فملت عنها برشاقة
وأدركته بركلة قوية أصابته في بطنه فسقط على الأرض وهجمت عليه
وانتزعت الهراوة من يده وسألته:

- ما الذي حملك على مهاجمتي؟ بماذا أسأت إليك؟

فأخّ متوجعًا وأجاب: اخرج من الدير! انطلق إلى منسك آخر!

- وما السبب؟ قل ما السبب؟

- إنني لا أستطيع أن أراك أمامي، فاخرج وإلا قتلتك.

كانت عيناه حمراوين فبدت الدموع التي انهمرت منهما كأنها دماء
مستقطرة من قلبه. وكان الزبد يملأ فمه وشفتيه كأنه مصاب بنزيف دم.
وقد حاول أن يقبض عليّ ويرميني تحته فمزق ردائي وخدش
جسمي وعضني بيدي وجهد نفسه ليتملص مني فلم يستطع، وظللت
فوقه قابضًا على يديه منيخًا على صدره، ثم عدت فسألته:

- كيف يجوز لك وقد انخرطت في سلك الرهبنة وأنكرت نفسك

في سبيل الله والقريب، وكيف يحق لك وأنت المرتدي الثوب الديني

أن تحقد علي وتغدر بي، كيف يحق لمن كان مثلك أن تملأ الضغينة صدره، فما هو السبب؟

فأنّ وصرخ متألماً، فأشفقت عليه وأمسكت عنه، وبعد أن استراح قليلاً عاد إلى نعمته السابقة وقال: اذهب واترك الدير، لا ترم نفسي في وادي الضلال!

فلم أفهم ما يعنيه ولكنني بعدما أعملت فكري أدركت ما يرمي إليه فسألته همساً:

- أتظن أنني فضحت أمرك وأعلنت خبرك؟ إنك مخطئ يا ميخا، فأننا أقسم لك أنني لم أبح لأحد بكلمة.

فنهض وهو يرتجف ويهتز ثم التف حول شجرة وشرع يرميني بنظرات وحشية وأجاب: كنت أؤثر أن تنشر قصتي على العالم كله، فما كنت لأتألم كما أتعذب الآن لو اعترفت بخطيئتي السرية لنلت الغفران، ولكن ماذا أرجو منك أيها الجاحد المتكبر؟

اختف من أمامي قبل أن أرتكب جريمة مميتة، توار عن بصري وإلا قتلتك!

فرددت عليه قائلاً: إذا شئت فتوار أنت، ألا فاعلم أنني لن أغادر الدير، لن أتركه.

فما كان من هذا الشيطان إلا أنه هجم عليّ فقابلته برباطة جأش وابتدأ العراك بيننا فكان تارة يسقط تحتي وتارة أسقط تحته إلى أن أعيأ

وكلت قواه فاستسلم صاغراً.

فنهضت عنه وتركته ملقى على التراب يبكي كالأطفال من شدة الحنق.

وقبل أن أنصرف عنه قلت له: اصغ يا ميخا، إني سأترك الدير بعد مدة، أما الآن فلا، ولا تظن أنني أبقي نكاية فيك وقهراً لك، كلا بل أمكث في الدير لأنني محتاج إلى البقاء.

فأصابه ما يشبه النوبة العصبية وأجاب وهو يحرق عليّ الأرم:

- امض إلى الجحيم! اذهب إلى الشيطان فهو أبوك!

ثم غادرته معفراً بالتراب وعدت إلى عملي، وعلمت بعد أيام أنهم نقلوه إلى المدينة للإقامة في ملجأ الدير، وهكذا تخلص واحدنا من الآخر.



الفصل الثالث عشر

المرأة لغز الحياة

بعدما انتهت المدة المعينة لي للاحتطاب في الحرجة، مثلت أمام أنتوني معلمي الجديد، لابسًا ثوبًا جديدًا.

إنني أذكر الأيام التي قضيتها في رفقة أنتوني، وأذكر كل ما جرى فيها من الأمور الدقيقة حتى السخيفة، فكأن ذكرى تلك الأيام انطبعت في صدري بحروف من نار.

فتح لي أنتوني أبواب منزله فطفنا في غرفه ومخادعه وأروقه، وبعد أن أعطاني التعليمات اللازمة وشرح لي مهمتي عنده، أدخلني إلى أحد الأبهاء وكانت فيه مكتبة كبيرة تضم مؤلفات دينية وعلمانية، فأدار بصره في المكتبة وقال لي:

- هنا معبدي، هنا المصلّى!

وكان هذا البهو جامعًا لكل أسباب الراحة، ففيه النجد النفيس والرياش الوثير و سائر ضروب الرخاء والترف.

وكان إلى جانب البهو مخدع مفروش بالأثاث الأنيق خصصه أنتوني لينام فيه، وقد أدهشني ما رأيته فيه من جمال الرياش وأدوات الزينة والمراي وسواها.

وكانت إحدى الغرف مخصصة لإذخار المؤونة والأقوات من مأكولات ومشروبات مختلفة الأشكال والألوان، فضلاً عن أدوات الطعام والفناجين والكؤوس وما إليها.

وبعد أن انتهى تطوافنا في المنزل دعاني أنتوني إلى المكتبة وقال لي:

- اجلس، إنك ولا شك عرفت كيف أعيش، ليس في معيشتي شيء من التقشف والزهد، خلافاً للحياة الرهبانية، أليس كذلك؟

- نعم، هو ما تقول، فإني لا أرى شيئاً ينطبق على الأصول المرعية.

- وأنت الذي لا تترك أمراً دون أن تنتقده أعلك تسدد إليّ سهامك؟

ثم ابتسم شامخاً بأنفه كمن يرى الناس دونه.

إني والحق أقول، أحب أنتوني وأعجب بنبالة خلقه وطيب شعوره، ولكن ابتسامته المعنوية تركت في نفسي أشياء كثيرة فما عمت أن أجبه:

- لا أدري أأنتقدك أم لا! وعلى كل الأحوال فكل ما أرجوه هو أن

أعلم آراءك وأفكارك وتعاليمك وأدرك مرمك في حياتك.

فامتعضت عندما رأيته يعيد ابتسامته السابقة وخصوصاً عندما

سألني:

- يلوح لي أنك لست ابناً شرعياً!

- إني أجهل أُمِّي أيضاً.

- ويبدو لي أنه يجري في عروقك الدم الأزرق؟

فأجبتَه مستغرباً: وماذا تعني بهذا؟ ما هو الدم الأزرق؟

فرد عليّ بلهجة رصينة كأنه يزن كل كلمة من كلماته وقال:

- الدم الأزرق مادة تنشأ منها الأرواح المتعجرفة.

كان أنتوني جالساً على مقعد وثير بالقرب من النافذة فتغمره أشعة الشمس الذهبية وتزيده إشراقاً في إشراق.

وما كادت عبارته تنتهي إلى مسامعي حتى لمعت في خاطري فكرة دمت قلبي وأثقلت لبي، فاهتزت كالقصبّة المروضّة تحركها الرياح ونهضت من مكاني بعنف وحدثت بصري في الراهب متأملاً مفكراً باحثاً.

ووقف أنتوني أيضاً وتناول سكيناً كان على الخوان وسألني: ما بك؟ ماذا أصابك؟

فأجبتَه سائلاً: ألسنت أنت أبي؟

فكلح وعبس وأجاب بلهجة فاترة ونظرات تائهة:

- إني أشك في الأمر. قل لي أين ولدت؟ ومتى؟ وما هي سنك؟ ومن هي أمك؟

وبعدما قصصت عليه قصتي ورويت له حكاية مولدي ضحك

ورمى السكين على الخوان قائلاً: إني في ذلك الوقت كنت بعيداً عن
المكان الذي وُلدت فيه، ولذلك أستبعد كثيراً أن تكون ابني...
فشعرت آنئذ بحيرة وخجل وخيل إليّ كأني مستعطي أنكرت عليه
الصدقة.

- مع هذا لنفرض أنني أبوك. فأني شأن لهذا الأمر؟
- لا شأن له البتة، وسواء لديّ أكنت أبي أم لم تكنه.
- حسن، أرانا متفقين، فلنعش كلانا أنا وأنت في مكان لا آباء فيه
ولا أبناء بالمعنى الجسدي، بل إخوة بالمعنى الروحي. نحن في هذا
العالم لسنا إلا كائنات مهملة منبوذة، وبالتالي إخوة في الشقاء وهو ما
يدعونه «الحياة». إنما الإنسان عارض على وجه الأرض، إنما البشر
طارئة، فاعلم هذا!

وقد دلتني نظراته على أنه مستاء مني غاضب عليّ، فأردت أن أجلو
ما علق بذهنه من الإيهام عندما سألته عن كونه أبي دون أن أعلم ما الذي
حملني على الاستفهام فقلت له: لماذا تناولت السكين عندما وجهت
إليك السؤال؟

فحدّق إليّ مبتسماً وأجاب: يا لك من سائل جريء. مسكت
السكين وانتهى الأمر. أنا نفسي لا أدري، إني أحب هذه السكين، ألا
تراها جميلة؟ ثم انتهى الأمر...

وناولني إياها فشرعت أقلبها بيدي وأتأملها، وكانت حذاء النصل
ماضية؟ أما نصابها فكان من الضفة وقد رصع بحجر كريم أحمر.

وشرح لي أمرها فقال: هذا خنجر عربي، أستخدمه لفض الأوراق في النهار، وفي الليل أدسه تحت وسادتي. يقولون إنني غني، وبما أن الذين يحيطون بي فقراء، ومسكني منفرد، فلا غنى لي عن رفيق أتسلح به.

وكان البهو قد أفعم بالطيب المتضوّع من الخنجر ومن يدي أنتوني العبقتين فسطعتني رائحته الحادة وملأت خياشيمي ورأسي. وتابع كلامه قائلاً: لنمض في حديثنا، أعلم أن إحدى النساء اعتادت أن تأتي إلى هذا المنزل؟

- نعم هذا ما سمعت.

- ولا تحسب أنها شقيقة لي، يجب أن أنبهك، إنما هي خليلتي.

فسألته: وما معنى هذا الكلام، لماذا تفتاحني بأمر كهذا؟

- إنما ذكرت لك أمر المرأة لثلاثهش، ولكي لا تسألني فيما بعد عنها، أفهمت! والآن قل أحب مطالعة الكتب العلمانية؟

- إنني لم أقرأ مؤلفاً غير ديني.

فمد يده إلى المكتبة وتناول كتاباً صغيراً وقدمه لي قائلاً:

- خذ وطالع هذا الكتاب، ولا تنس تحضير الشاي.

فتحت الكتاب فوق بصري في الصفحة الأولى على رسم امرأة عارية حتى معقد الأزرار وأمامها رجل يتجرد من ثيابه، فأدرت آنثذ ما ينطوي عليه هذا الكتيب ورددته قائلاً: لا أريد أن أقرأ مؤلفاً كهذا!

فحدق إليّ وأجابني بلهجة جافية: إذا أمرك رئيسك الروحي أن

تطالعه فطالعه، أنت لا تدري لماذا قدمته لك، ولا تعلم غايتي، فخذ
وانصرف.

فلم يسعني إلا أن أعمل برغبته فانسللت إلى غرفتي وجلست
على السرير حزينا خائفا وأحسست كأن سماء زعافا يجري مع دمي في
عروقي، فكنت أرتجف كأن قواي تلاشت وخانني رشدي فلم أعرف
ماذا أصنع وكيف أفكر. حاولت أن أفسر الفكرة التي دفعتني إلى سؤاله
عن كونه أبي فلم أستطع. إن سؤالي لم يكن صادرا عن عقلي. وذكرت
قوله لي: «الروح تتألف من الدم، والإنسان عارض على وجه الأرض
وإنما البشر طارئة» فما رأيت من هذه الكلمات إلا الإلحاد والهرطقة.
ثم أعدت إلى الذاكرة موقفه العدائي عندما ألقيت عليه سؤالي، فهالني
ذاك المظهر الغريب.

أفي أقل من ساعة تصدمني هذه المفاجئات العنيفة وتركني
مشلول الفكر. أفكرة صغيرة تلوح في خاطر المرء فتقذف به إلى الهوة
السحيقة أو ترفعه إلى أوج الهناء؟

عمدت إلى الكتاب وطالعت بعض صفحاته فرأيت يدور حول
رجل فرنسي وبعض سيدات، أي قصة خلوعية سخيفة بذئنة العبارة
طرائية الكلام.

ماذا يهمني هذا الفرنسي وخليلاته؟ ماذا يعنيني أمرهم؟

وبعد قليل ناداني أنتوني فلبيت النداء، ولما رأيته هش لي وبش ثم

قال:

- أين إبريق الشاي؟

فأجبتة سائلًا: لماذا أعطيتني هذا الكتاب؟

- إنما أعطيتك إياه لتدرك معنى الخطيئة وتقف على أمرها.

فارتاحت نفسي إلى جوابه ولاح لي أنني أصبت الهدف الذي يرمي إليه، إنه يريد أن يجربني ويمتحنني. ثم خرجت وبعدها أعددت إبريق الشاي قدمته له ولما كنت على أهبة الانصراف إذا به يقول:

- لا تذهب تناول الشاي معي.

فشكرت له لطفه واغتنمت هذه الفرصة لأحدثه وأقف على آرائه وتعاليمه.

وما إن جلست أمامه حتى سألتني: قصّ عليّ ماضي حياتك، ما الذي حملك على الانخراط في سلك الرهبنة؟

فأطلعت على تاريخ حياتي بالتفصيل دون أن أكتم عنه أمرًا مهما يكن شأنه.

وكان أنتوني يصغي إليّ بانتباه شديد حتى أنه غفل عن الشاي.

وتابعت حديثي وقد حددت نظري في ידי أنتوني البيضاوين إلى أن أتيت على آخره، فملأ لي كأسًا من النبيذ المعتق وقال:

- اشرب، عجمتك عيني منذ رأيتك في الكنيسة تصلي إلى الله بصوت مرتفع، والآن ألا ترى أنك خففت عن عاتقك كثيرًا من أثقال الحياة في الدير.

- كلاً إن ما أحمله في قلبي وفكري ينوء به رجل مثلي، فتشت
عمن يزحزح عن صدري ذلك الجاثوم الخائق فلم أهتد، بيد أنني أرجو
أن تكون أنت الرجل الذي أبحث عنه فساعدني. ساعدني، إنك ثقيف
عالم لا تجهل شيئاً، فعليك إذن قصد السبيل.

فأجابني بصوت منخفض دون أن يوجه إليّ نظره:

إني أعرف أمراً واحداً فقط. من يتوكل في الجبال يجب عليه أن
يصل إلى قمته، ومن يسقط يجب أن ينحدر إلى قعر الهوة. بيد أنني أنا
نفسي لا أجري على هذه القاعدة لأنني كسل متوانٍ.

الحياة جميلة يا ماتفي والعالم فتان غاو، إنه حافل باللذات طافح
بأسباب المسرات والمفاتيح الممنوحة للبشر، مع هذا فالإنسان لا يعد
شيئاً، ولا قيمة له.

كل ما في الحياة من جمال ولذة موقوف على البشر، ولكن البشر
لا وزن لهم ولا قيمة. ولماذا لا يُعد الإنسان شيئاً؟ هذه مسألة لم أستطع
حلها بعد. بل إنني لا أريد أن أفكر فيها.

ثم دق جرس صلاة الغروب فارتعش وقال:

- اذهب بسلام، إنني تعب وأود الذهاب إلى الكنيسة.

لو كان في رأسي ذرة من العقل لوجب عليّ أن أغادر أنتوني في
هذا اليوم نفسه إذن لحفظت له في قلبي أجمل ذكرى، بيد أنني لم أفقه
معنى عباراته ولم أدرك مرماها فبقيت إلى جانبه.

عدت إلى غرفتي واستلقيت، وكنت قد تركت الكتيّب الخلاعي على السرير فأوقدت شمعة وأخذت أطلعه اعترافًا بجميل معلمي ومرشدي أنتوني.

تدور القصة حول رجل استخف بالأزواج فكان يتسلق ليلاً نوافذ النساء ويدخل مخادعهن خلسة ويرتمي في أحضانهنّ مرخيًا لشهواته العنان، وكثيرًا ما كان يقع في قبضة رجالهنّ فيثور ثائرهن ويهمون بتأديبه، ولكنه لا يلبث أن ينجو منهم بحيلة مدهشة. وبعد أن طالعت الكتيّب ووقفت على مضمونه لم يخطر لي أن أسائل نفسي فأقول: ما هي فائدة هذا الكتاب الذي يدور حول موضوع سخيف تافه لا عبرة فيه ولا مغزى، ولماذا يجب عليّ أن أقرأ كلامًا طرانيًا بذيئًا.

رميت الكتيّب وانتقلت منه إلى موضوع آخر، وبعدما أعملت الفكر قلت في نفسي: ما هو السبب الذي حملني على أن أشتبه في أن أنتوني أبي؟ من أين نشأت هذه الفكرة؟

ولما أعياني الأمر واستعصى عليّ حل اللغز، استسلمت لسلطان الكرى فنمت نومًا عميقًا، وعند الفجر جاء أنتوني يهزني بعنف قائلاً:

- انهض، انهض، ألم تسمع رنين الجرس؟

فتحت عيني واعتذرت قائلاً: اصفح عني باسم يسوع، لقد أخذ مني العياء مأخذه فنمت نومًا عميقًا.

- غفر لك الله، إنني ذاهب لمقابلة الرئيس الأعلى، فقم في غيابي بالأعمال اللازمة طبقًا لأمرى وإياك أن تهمل شيئًا.

ثم ألقى نظرة فرأى الكتيّب وابتدرني:

- أطلعته؟ إني آسف كل الأسف وكنت أود أن لا تطالعه، أنت على حق في شكوك، فليس هذا بالكتاب الذي يفيدك، إنك تحتاج إلى سواه.

ثم خرج وتركني مدهوشاً، إني أحرار في أمر هذا الرجل الذي لا يثبت على رأي، وأستغرب كيف أنه أمرني بمطالعة الكتاب فلما قرأته عملاً بإرادته، ندم وتأسف، فما معنى هذا؟

ذهبت إلى مخدع أنتوني فرتبت السرير وأصلحته، وقد تسنى لي آنئذ أن ألحظ أشياء كثيرة لم أعتدها، فالفراش كان وثيراً ناعماً غالي الثمن، والأحرام واللحاف مثله مما يدل على سعة وترف.

وكان يتضوع من السرير طيب شذى ذكي العرف، كأنه فضّ فيه لطيمة المسك، أهذا تقشف الرهبان وزهدهم؟

مرت الأيام سراعاً كأنها حلم جميل يتنقل بي بين السحائب، كنت لا أرى أمامي إلا أنتوني، كان لا يقع بصري على شيء سواه.

كان صوت أنتوني حنوناً رقيقاً غير أن عينيه كانتا تقطران تهكمًا وسخرية. ندر أن يلفظ اسم الله في أحاديثه، فإذا شاء أن يقول «الله» وضع كلمة «الروح» مكانه وبدلاً من أن يقول «الشيطان» يقول «الطبيعة» ولكنني لم أعبأ بهذا الإبدال، لأن الألفاظ المستعارة لا تغير الأفكار.

وكان يضحك ملء شذقيه من الرهبان ويتهكم عليهم، ويسخر

بالطقوس الدينية ويزدريها. كان يحب الخمرة ولكنه لا يسرف في معاقرتها إلى درجة السكر، وكثيراً ما كان يوقظني من نومي عند عودته من مخدع الرئيس حيث يبقى حتى انتصاف الليل لأقدم له النبيذ المعتق فيتناول الجرعة الأولى ثم يأخذ بالكلام، ولا يزال على هذه الحالة حتى الفجر.

وكان يستعصي عليّ فهم خطبه ومواعظه فأجهد فكري، لقد نسيت منها نقاطاً كثيرة ولكني أذكر أنها كانت في أول الأمر تملأ قلبي ذعراً ونفسي انقباضاً فأصغي إلى كلماته كالمصعوق، وقد طالما تردد في خاطري أن أسأله آتئذ:

– أأنت الشيطان بصورة إنسان؟

ولكني لم أكن أو من بالشيطان كما قلت سابقاً. فضلاً عن هذا فقد استدلت بما طالعت في التوراة على أن الشيطان كان قوياً في غطرسته، لا ينفك لحظة عن تضليل البشر وإغوائهم بشتى الأساليب والفنون، بيد أن الأب أنتوني لم يحاول قط أن يغويني أو يدخلني في التجربة، فكل ما كان يبثه فيّ يقتصر على تصوير الحياة بلون أسود حالك، ليظهر لي ما هي عليه من فساد الذوق.

لم يكن البشر في عرفة إلا قطيعاً من الخنازير الكلبة الراكضة إلى الهاوية، المتدافعة إلى الجحيم، فاعترضت عليه وقلت له:

– ولكنك قلت لي سابقاً إن الحياة جميلة، فكيف أوفق بين

القولين؟

فأجاب: الحياة جميلة عندما تعترف بوجودي، وشقية عندما تنكره.

كان أنتوني ذكي الفؤاد عميق التفكير، غير أنني كنت ضعيف الثقة بآرائه بالنظر إلى ما أراه من وثباته الهائلة التي تلقي في نفسي الذعر.

وكان من حين إلى آخر يستاء مني وهذا نادر، فلا يلبث أن يرفع عقيرته قائلاً: ألا تريدون أن تفهموا! ألا فاعلموا أنني نبيل متحدر من سلالة عظيمة، إن أسلافي أسسوا روسيا وجدودي هم أعظم التاريخ، فكيف يتجاسر هذا التافه السخيف المقل على معارضتي؟

ولكن هذه المطاعن لم تكن لتطلخ عرضي أو تحط من كرامتي، من يعلم، ربما كنت أنا أيضاً منتمياً إلى سلالة شريفة عريقة في المجد. وفضلاً عن هذا، فالأمر الجوهرى هو الحقيقة، لا الآباء والجدود، ذلك أن الماضي ميت، والمستقبل هو الذي يحيا.

وكان بعض الأحيان يقص علي أخبار رفقاءه الرهبان، وبعدما يشرد بهم ويأتي على أعمالهم يقول:

- والراهب، ما هو الراهب؟ إن هو إلا رجل يريد أن يخفي عاره عن العالم، إن هو إلا مخلوق أضناه العذاب الناشئ عن شعوره بالضعف؛ فهرب من العالم خوفاً من أن يلتهمه. مع هذا فالرهبان أحسن حالاً من سواهم، أما الآخرون فمخلوقات مشردة مطرودة بلا ملجأ، إنما هم خسارة المجتمع. هم الموتى الأحياء.

فسأله: وأنت ما أنت؟

وقد رددت على مسامعه هذا السؤال مراراً عديدة فكان جوابه

واحدًا وهو:

- أنا رجل لا أستحق عناء السؤال، على المرء أن يعلم أنه أتى إلى العالم كطارئة أو عارض وكفى!

وكان إله أنتوني سرًا من الأسرار التي استعصى عليّ حلها. حاولت مرارًا أن أستدرجه إلى الكلام عن الله فلم أفلح إذ كان يجيبي مبتسمًا مستشهدًا بأقوال التوراة مما أعرفه، على حين أن الله بعرفي أنا كان فوق التوراة وأسمى جدًّا مما هو موصوف به فيها. وفي ذات مرة كان ثملًا فانتهزت هذه الفرصة السانحة وأعدت عليه سؤال السابِق مع هذا تملص منه وقال:

- إنك ملحاح عنيد يا ماتفي، ولكن إلحاحك لن يجديك نفعًا.
كان أنتوني غزير الأفكار، بيد أنني كنت آسف على أفكاره تُزرع سدى في مخدعه بدلًا من أن يلتقطها أُلوف السامعين.
إني أود أن أقف على رأيه في الله ومقدار فهمه له، فأعدت عليه الكرة مرارًا إلى أن قال لي يومًا:

- إني لا أذهب أبعد منك في هذا الموضوع يا ماتفي. وأنا لا أستطيع أن أفكر في ما عسى أن يكون الله.
فرددت عليه قائلاً:

- بيد أنني لم أضع صورة فكرية لله على ما هي الحقيقة، فأنا أشعر بوجوده، وجل ما أتمناه أن تعلمني تفسير شرائعه التي تجري عليها الحياة.

- إذا كنت تشعر بوجوده فذلك خير لك. أما الشرائع الإلهية فإنك تطالعها في كتب الحقوق الكنسية، في مؤلفات اللاهوت. ثم ملاً كأسي نبيذاً وتناول كأسه منادماً وقال: اشرب. وما هي إلا لحظة حتى أفرغ الشراب في جوفه. وكانت هيأته متجهمة منقبضة صفراء تحكي لون الموت، خلافاً لعينه إذ كان ينظر إليّ بهما شزراً مرامقاً مُزلقاً. ولماذا؟ لا أدري. كان أنتوني شديد الزهو والإعجاب بكرم محتده ونباله جبلته، وكلما لاحت له فرصة للتبجح بأصله ردّد على مسامعي عباراته المألوفة، ولكن زهوه هذا كان بمثابة إهانة دامية لأرومتي الوضيعة وعنصري الغامض، فنشأ عن دعواه العريضة أن ضعف استهواؤه لي شيئاً فشيئاً. وكان إذا أفتر من الشرب وعبقت به أنفاس الحميّا، طاب له أن يتحدث عن النساء، فيقول:

- إن الطبيعة وضعتنا في حالة عبودية لا تطاق بواسطة المرأة. لولا الشهوات الجسدية التي تمتص أفضل قوى النفس البشرية وتستنفدها، لاستطاع الرجل أن يبلغ قمة الخلود.

بيد أن الأخ ميخا كان أقسى منه على المرأة وأصلب رأياً، وقد طالما أثارت أفكاره المتطرفة المتلظية شجوني وأحزاني، كان ميخا يجحد نعمة المرأة ويكفر بها ساخطاً هائباً ويطعن عليها ويشوه محاسنها حانقاً حاقدًا، على حين أن أنتوني كان فاتراً في كلامه عن

المرأة، مسترخيًا.

قال لي يومًا: أتذكر الكتيّب الذي أعطيتك إياه؟ لا شك أنك بعد مطالعته عرفت ما هي المرأة، وأدركت مقدار خبثها واحتيالها وحنثها وغدرها، فعلمت بعدئذٍ أنها مجبولة على الفجور مطبوعة على التهتك والدعارة.

كنت أغضب أشد الغضب عندما أسمع رجلاً ولدته امرأة وأرضعته حليبها وغذته بدمها وحتت عليه طفلاً ويافعاً وشاباً وكهلاً، كنت أثور عندما أرى هذا الرجل يكسو أمه نفسها أطمار الذل والمهانة، ويرميها بحجارة العار واللؤم، وينكر عليها كل شيء إلا الفسوق والدعارة! ولذلك لم أستطع أن أخفي ثورة نفسي وصرحت له بما يخالجني فهاج وأجابني:

- يا لك من غبي! أتحسبني إذاً في كلامي عن المرأة أعني أمي؟

فرددت عليه قائلاً: ولكن أنسيت أن كل امرأة أمٌ هي؟

- ولكن بين النساء من ولدن فاسقات ومتن فاسقات.

- وبين الرجال من هم حُذب الظهور ولكن حديثهم لا تعني أن

احديداب الظهر شريعة طبيعية لا مهرب لأحد منها!

فأفحمه جوابي، وبدلاً من أن يعترف بصحة نظريتي غضب عليّ

وانتهرني وأمرني بالخروج. إن الروح العسكرية كانت متأصلة في هذا الكاهن.

الفصل الرابع عشر

الصدمة تتلو الصدمة، والخيبة تعقب الخيبة

إذا كانت مطاعن أنتوني في المرأة قد أثارت مراجل حنقي واختلاطي ودفعني إلى الوقوف في وجهه، فتهكمه على الله واستخفافه به وأقاويله الباطلة أقلقنت نفسي وملأت قلبي الهادئ ذعرًا فتحولت لينة خلقي إلى شراسة وشعرت بغم عميق يعذب نفسي.

كنت أدور حوله كما يدور الجائع المرسب حول خزانة مقفلة تنبعث منها رائحة الخبز الطري. كنت أدور حوله لعلّي أستطيع أن أستل من صدره أسرار الدفينة العميقة التي تهديني سواء السبيل وتميط لي اللثام عن الحقيقة التي أنشدها.

وفي ذات مرّة هاجت أعصابي بعدما سمعته من كفر فتناولت سكين المائدة وقلت مهددًا: اعترف لي بمكنونات فكرك أو حزرت عنقي بهذا السكين.

فمد يده وخطف السكين، وقد شحب لونه واستولى عليه الذعر
وأجاب:

- كان عليّ أن أقاصبك، غير أن القصاص لا يأتي بالفائدة،
وخصوصاً متى كان المذنبون متهوسين متطرفين مثلك.
وبعد أن استرد طمأنينته تابع قائلاً:

- اسمع ما أقوله لك، لا جدال في وجود البشر، البشر موجودون
وما عداهم فليس إلا فكرة أو رأياً.

أما الله، إلهك، فإن هو إلا حلم روحك، وأنت لا تستطيع سوى
إدراك نفسك، نفسك وحدها تستطيع معرفتها. وهذا أيضاً ليس أمراً
ثابتاً.

فشعرت عند سماعي هذه الكلمات كأن بركاناً تفجر في صدري
فاهتززت اهتزازاً عنيفاً وأحسست بروحي تصدم جوانب جسدي
لتتحرر من قفصها.

حاولت أن أفهم ما يعنيه أنتوني فلم أتمكن. كان يتدفق في كلامه
فتخرج ألفاظه من فمه كأنها حمم يقذفها بركان ثائر فوق رأسي.

هذا الرجل لا يشعر بسرور ولا عذاب، لا يحس حلاوة ولا مرارة،
فكأنه أحد أولئك الكهنة الكهول الذين اقتصروا على خدمة كنائس
الجبانات، فتراهم حذقوا صلوات الجناز وترديد عبارات الموت،
ولكنهم مع هذا لم يستميتوا.

بدا لي هذا المذهب الارتياحي في أول الأمر هائلاً فظيماً، ولكنني أدركت بعدئذ أن صدوره عن رجل كأنتوني لم يكن فيه شيء من الضرر أو الخطيئة.

مضى أنتوني في شرح نظريته إلى أن أرخى الليل سدوله، فكنت أصغي إلى كلماته وأنا حزين مشرد الأفكار، وما إن دق الجرس حتى قال لي: انصرف.

خرجت إلى الحديقة ثم توجهت إلى الكنيسة فقبعت في إحدى زواياها المظلمة وأخذت أتأمل وأفكر قائلاً في نفسي:

- ما انتفاع رجل شبه ميت بالله؟ وما احتياج رجل بين حي وميت إلى الله، ثم مرّت الأيام فشعرت أن أنتوني تنكر لي إذ كان يخاطبني مخاطبة السيد لعبده ويعاملني بجفاء وقسوة. ثم استرد كل الكتب التي أعطانيها للقراءة وبينها تاريخ روسيا، وهو كتاب كنت أهتم بمطالعة شديدة الاهتمام، ولكن أنتوني انتزعه من يدي قبل أن أستوعبه فأخذت أسأل نفسي:

لماذا انقلب عليّ؟ ما هو ذنبي أمامه؟ وبماذا أهنته؟ حاولت الاهتداء إلى السبب فلم أفجح.

كان مطلع خطابه مطبوعاً في ذهني إلى جانب أفكاره الأخرى، فكنت أردده دائماً وأقول مع أنتوي: «أما الله فإن هو إلا حلم روحك». وبعد أيام وصلت خلية أنتوني وكان الوقت ليلاً فإذا به يناديني قائلاً:

- إليَّ بإبريق الشاي.

فهيأت الإبريق ودخلت على أنتوني في مخدعه فرأيت امرأة شقراء الشعر، عسلية الصفائر، وزرقاء العينين ساجية الطرف جميلة المحيا قسيمة وسيمة.

وبعد أن أعددت الفناجين ولوازم الشاي انصرفت إلى غرفتي وأنا أفكر في هذا الراهب. هذه القصة الغرامية كانت تلذ لي إذ إنها دلّني على أن أنتوني يصلح لأن يقوم بعمل ما، بغض النظر عن أن هذا العمل لم يكن ليتعدى الحب الجسدي وهو أسهل شيء في العالم.

أما أنا فلم يكن لي مآرب في ذلك الوقت؛ لأن فساد أخلاق الرهبان ملأ نفسي اشمئزازًا وسخطًا والكاهن أنتوني لم يكن في عرفي رجلًا من رجال الدين وفضلاً عن هذا فخليلته فتاة غضة بضة نصيرة كوردة تفتحت عنها الأكمام.

وفي صباح اليوم التالي خرج أنتوني ليقابل الرئيس فذهبت أصلح سريره فرأيت خليلته جالسة على «الديوان» تطالع كتابًا.

وما بدأت عملي حتى تركت كتابها وسألتني عن اسمي وعن معيشتي في الدير وهل أنا راضٍ عنها أم لا وقالت:

- ألا تضجر وتملّ من الحياة الرهبانية؟

ولما أجبتها بالنفي قالت: أمرك إذًا يدعو للاستغراب، ألا ترى أنك في شرخ الشباب وأوج الجمال.

- عجباً أشيّدت الأديار للكهول والدماح فلا تعذوب المعيشة فيها
لسواهم؟

فأخذت تضحك من جوابي، ثم رفعت قدمها العارية كأنها
تقولي ليل ألا تراها جميلة، وأخذت تطيل في النظر وتدمنه كفاحصة
مستعرضة مستطلعة.

كانت هذه المرأة نصف عريانة فكان هذا العري المشوق المغوي
أفعل في النفس من الجردة التامة، فلذلك ما عتمت أن قلت في نفسي
وقد وددت لو أنها عرفت ما يدور في خلدي:

- ألا دعي الغواية واتركي التجربة، خبي عريك لخليك ولا
تستهويني به، ثم عادت تحدثني فقالت:

- ألا تتلهف على النساء في ديرك إذن؟

- وما الذي يدعوني إلى التلهف؟ إني ما فكرت فيهنّ يوماً..

- أصحيح هذا حقاً؟ حقاً إنك راهب عفيف!

ثم قهقهت متهكمة وأغربت في الضحك.

وفي هذه اللحظة برز أنتوني في باب المخدع، فما أن سمع قهقهة
خليته حتى سألتها:

- ما هذا يا زوريا؟ ماذا قال لك؟ ماذا صنع؟

فأجابت: لم يأت أمراً فرياً ولكني أراه ماجناً مضاحكاً.

وأخذت تقص على أنتوني ما ترى لها من دعابتي وهزلي وهي

تضحك، فقلت في نفسي يا لها من امرأة مهزاق، بيد أنه لم يحفل
بحديثها فقاطعتها وانتهرني قائلاً:

- هيا وافتح صناديق المؤنة، عليك أن تحمل قسمًا منها إلى الرئيس
الأعلى، فأدركت أنه يأمرني بالانصراف فخرجت.

وفي المساء أرخى الأب أنتوني وخليلته لشهواتهما العنان، فشربا
على العشاء مقدارًا كبيرًا من الخمر، وبعد أن تناولا الشاي عكفا على
الشراب فاغتبقا حتى ثملا وتمشت فيهما حميًا الكأس. وكان أنتوني
لا يفتر عن توجيه الأوامر قائلاً:

- خذ هذا- اجلب ذاك- ضع النبيذ في الثلج... إلخ.

فكنت أركض من ناحية إلى أخرى كأني أحد نُدل المطاعم أو
المقاهي، وكأن خليلة أنتوني شعرت بحر شديد فأخذت تخفف ثيابها
وتتعري فخطر لأنتوي أن يسألني بعدما كشفت جمالها المصون قائلاً:

ما قولك ألا تراها فتانة؟

فأجبت: إنها تفتن الأبصار والألباب.

- تأملها جيدًا إذن، أنعم النظر في جسمها الغض البض...

وكانت المرأة تضحك وتقهقه وقد ثملت واسترخت.

وفيما كنت على أهبة الخروج إذا بأنتوني يصرخ هائجًا:

- انتظر... إلى أين تذهب؟ انتظر... زويا... زويا... اخلعي

غلاتك وتعري، اكشفي له عن جردتك وابرزي أمامه عارية!

فحسبت أنني أسمع أذنيّ ما لم تسمع، وكذبت عيني فيما رأيت،
واستعذت بالله من هذا الموقف الشرير... وما هي إلا لحظة حتى
انتضت زويا غالاتها ثم قامت على رجليها وأخذت تتهاذى عارية...
فخفضت بصري ونظرت إلى أنتوني شزراً مرامقاً مزلقاً فما كان
منه إلا أنه غمزني بعينه.. فحمد الدم في عروقي وأحسست بقلبي يهبط
إلى الأرض.

كان هذا المشهد الخلاعي مدعاة إلى حزني وأسفي.
حزنت على الطهارة يعبث بها كاهن كأنتوني ولا يخجل أو
يستحي.

وأسفت على امرأة تبتذل نفسها ولا تعلم ما هي فاعلة.
وبكيت على أيام أضعتها في الدير باحثاً عن الله، ناشداً الحقيقة
الإلهية ساعياً وراء السلام الروحي، فما عثرت سوى على الجهل
والكذب والدعارة! يا لآمال الخائبة!

كان أنتوني يألف هذه المشاهد الخلاعية فلا تخدش ملامس الطهر
والعفة فيه، أما أنا فخجلت من نفسي وخجلت عن هذه المرأة العارية
تعرض جمالها الخفي. وقفت جامداً مطرقاً وقد ذبت حياء وخجلاً وإذا
بأنتوني يصرخ قائلاً:

- انصرف أيها اللئيم!

فثار ثائري ورددت عليه: إنما اللئيم أنت...

فنهض من مقعده كأنه يحاول أن يثب عليّ ولكن مائدة الشراب هوت على الأرض عندما أراد أن يزيحها من أمامه فسقطت القناني وتبعثرت وأهرق ما فيها من الخمر، فلم يصل إليّ بسوء بل عاد إلى مقعده وهو يترنح من شدة السكر.

أما أنا فمضيت إلى الحديقة أقضي ليلتي فيها. كان قلبي يلتهب ألماً كأنه مصاب بطعنة دامية. وفيما كنت مرخياً لأفكاري العنان إذا بي أسمع أنتوني يصرخ بصوت أجش قائلاً: اخرجي، انصرفي. فعلمت أنه خاصم خليلته وطردها. وعلى الأثر سمعت المرأة ترد عليه:

- يا لك من جاهل غبي!

وبعد قليل سمعت صريف الباب الخارجي ورأيت مركبة تخرج منه فاستدللت على أن المرأة عادت إلى منزلها. ثم خرج أنتوني إلى الحديقة وأخذ يجري من ناحية إلى أخرى وهو ينادي بصوت منخفض:

- ماتفي... ماتفي... أين أنت؟

كان ظله الأسود الطويل الهزيل يتحرك ما بين الأشجار جاريًا خلفه كأنه شرطي يتعقبه دون أن يشعر به. ولما بلغ منه العياء مبلغه، استند إلى شجرة ثم مد يده إلى أغصانها وهزها بعنف فتساقط عنها الثلج، وردد همساً عبارة خليلته له:

- يا لك من جاهل غبي!

ثم عاد أدراجه إلى مخدعه.

أما أنا فظللت مخبئاً في الحديقة حتى الفجر وعندئذ توجهت إلى مخدع الأب إيزيدور وقلت له: جئت أطلب تذكرة سفري لأنني عزمت على مغادرة الدير.

فأجابني مستغرباً: لماذا ما السبب؟ ماذا جرى؟

وقد حاول أن يقف على السبب الذي دعاني إلى هجرة الدير فلم يفلح، إذ إنني أصررت على الكتمان. ولما رأى إلحاحي قال إنه سيطلع الرئيس الأعلى على أمري.

فخرجت من مخدعه وجلست على مقعد يقع تحت شجرة صنوبر قديمة العهد. جلست على هذا المقعد عمداً، لا اتفاقاً، لأن الجلوس عليه يعني الخروج من الدير اختياراً أو كرهاً.

هذا المقعد لا يجلس عليه إلا أولئك الرهبان الذين يريدون التحرر من قيود الرهبة أو الذين حُكم عليهم الطرد من الدير. فما كدت أجلس حتى أخذ الرهبان يختلسون النظر إليّ، فيرامقني بعضهم ويرمونني بسهام غضبهم، ويبصق الآخرون على الأرض تحقيراً لي، واشمئزاً من عملي!

وقد نسيت أن أشرح ما كان يدور بين الرهبان من التحامل عليّ وعلى أنتوني وما كانت تتناوله الأفواه من التخريصات البذيئة التي أضرب صفحاً عنها.

كان الرهبان يمرون أمامي ويقولون: مبارك اسم الله. اطرّدوا هذا
أيضًا؟

وبعد قليل دعاني الرئيس إلى المثل بين يديه، فلبيت الطلب وما
إن رأني حتى قال لي بلهجة ولائية لطيفة:

- ألم أقل لك يا ماتفي إنه خير لك أن تشتغل في الإدارة؟ ألم
أنصح لك يا بني أن تختار العمل في المكتب؟ لقد كنت على حق في
نصحي لك. لقد كنت مخلصًا لك يا بني، فلماذا أبيت إلا معارضي؟
لماذا شككت في نصحي؟ أنت قوي الشكيمة حاد الطباع ولهذا تصعب
عليك الخدمة البيتية، ولهذا أيضًا قدرت لك حدوث ما لا تحب، وأنا
أدري أنك ما شتمت الأب أنتوني إلا مدفوعًا بحدة مزاجك!

- يا الله؟ ومن قال لك إنني شتمت الأب أنتوني؟ ومن قال إنني
أهنته؟

- هو نفسه ولا أحد سواه.

- يا الله! ولكن ألم يقل لك أنه أبرز لي امرأة عارية؟

فاستولى على الرئيس زعر شديد وأخذه انفعال نفساني كأنه يسمع
تجديفًا على الله، وبعد أن رسم الصليب واستعاذ بالله من الشيطان
أجاب:

- ماذا تقول؟ ماذا قلت يا رجل؟ آه، سامحك الله. امرأة عارية؟
هذا المشهد لم يكن إلا رؤيا صورتها لك الروح الشريرة التي تجربك

وتغويك، هذا المشهد إنما خيال جسّمه لك الشيطان! فكّر في ما قلت
يا رجل. أأمرأة في دير رهبان؟ هذا مستحيل!

فأخذت أخفف روعه وحدة دهشته وقلت:

- ومن هو الذي جلب لك أمس نبيذ بورتو والجبن وسواهما من
مأكول ومشروب؟

فازدادت دهشته وأجاب:

- سامحك الله وغفر لك؟ كيف تستطيع أن تختلق خبرًا كهذا؟
فنظرت إليه نظرة الازدراء والاحتقار وشمخت بأنفي أمام هذا
الرئيس الذي بدا لي أنّي كالمدّعى الهارب من القصاص.

أنا لم أكن كاذبًا فيما قلته، ولم أخلق ولم أفتر، والمرأة العارية
التي قال إنها من أعمال الشيطان، إنما كانت من أعمال الدير ورؤسائه.
وأنكى من هذا أن ينكر الرئيس أمر قصفه ولهوه ثم يطلب لي
الغفران باعتبار أنني زوّرت واختلقت ولفقت خبرًا باطلاً!

فماذا أرجو بعد هذا من قوم مرّئين خطاة يسترون ذنوبهم
ومعاصيهم بحُجُب الدين والورع والزهد؟ مسكين أنت أيها الدين
ومظلوم، ما أكثر ما يقتربون من الجرائم باسمك، وأنت منها بريء!

الفصل الخامس عشر

ما أكثر الزوان وأقل القمح في دروب الحياة

ما انتصف النهار حتى غادرت الدير آسفًا على أيام أضعتها فيه بالعبادة والدأب على العمل. وبعد أن اجتزت البحيرة وأدركت الشاطئ البعيد، جلست أتأمل الدير الذي صرفت فيه سنتين قضيتهما بالأعمال القاسية كأني أحد المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة دون أن أرتكب وزرًا يدعو إلى هذه الكفارة.

أطلت النظر إلى الدير وما يحيط به بدت لي الغابة كأنها طير بسطت جناحيها الأخضرين لتكشف عن الدير القائم بينهما.

هذه أسوار الدير بحجارتها البيض وهذه قباب الكنيسة القديمة بلونها الأزرق وهذا هو المعبد الجديد بلونه المشرق، وهذه سطوح الدير الحمراء تكللها الصلبان المتألقة بنور الشمس، وفوق هذه كلها قامت القبة السماوية الزرقاء تنشد أغنية الربيع العذبة وقد تلالأت في وسطها الشمس الضاحكة.

في أحضان هذا الجمال الجديد الحي، كانت تفنى أيام بطالة خلوة
من الحب والسرور، أيام عاطلة تمضي كقضم الجلمد بالعمل القاسي،
في أحضان هذا الجمال الفتان، كان الرجال المتشحون بالثياب السود
يسحقون الحياة بالتوافه ويصرمونها بالسخافات، فيشوهون الجمال
والحياة معاً!

تأملت الدير وحياته، فأخذتني الشفقة على العالم كله، وحزنت
على نفسي أيضاً، ثم نهضت من مكاني وسرت في طريقي، وقد
اغرورقت عيناى بالدموع.

كان الهواء بليلاً شدياً، والأرض وما عليها من النباتات تنشد
أغنية الحياة، المزروعات ترفع سواعدها ورؤوسها إلى السماء تحيي
الشمس، والطيور تغرد وتصدح مبتهجة جذلة بالحياة وجمالها، كان
الحب يغمر الطبيعة، إيان سرت سمعت أهازيجه، وإيان حللت تجلى
لعيني جماله.

وفيما كنت ماضياً إذ قابلت أحد الفلاحين فحياني وعكف على
عمله، ثم مرت امرأة فما رأيتني حتى ابتعدت عني، آه، ما أشد احتياجي
إلى صدر رحب أبته ما في قلبي من الغموم والهموم، ما أشد افتقاري
إلى ظل صاحب أشكو له وأتوجع!

وما زلت أسير حتى أدركني الظلام، فاتجهت إلى حرجة قرية
قضيت فيها ليلتي ولما أخذني النعاس افترشت الأرض والتحفت القبة
الزرقاء ترعاني نجومها، وعند الفجر قرسني البرد فأفقت، ثم خرجت

من الحرجة ومضيت في سبيلي .

قابلت في الطريق عددًا من الفلاحين الذين كانوا يرموني بنظرات الكره والاشمئزاز، هم يحتقرون الجبة السوداء التي اتخذها الرهبان لباسًا لهم، وأنا لم يكن بوسعي أن أخلع جبتي لأن تذكرة المرور التي أحملها انتهت مدتها، غير أن رئيس الدير أضاف إليها حاشية ذكر فيها صفتي الرهبانية في دير سافاتيف، فحق لي أن أسترد المدة الضائعة في الدير .

عزمت على زيارة الأماكن المقدسة برفقة الحجاج الذين كانوا يملأون الأديار بالمتات والألوف في أيام الأعياد .

كانت الرهبنات تنظر إلى هؤلاء الزوار نظرة الهزؤ والسخرية، فتعاملهم بخشونة وشراسة غير حافلة بكونهم بشرًا لهم ما لسواهم من الحقوق الدينية .

كانت تستل من جيوبهم آخر درهم وترغمهم على القيام بأعمال الدير القاسية الشاقة وتبتزهم بكل الأساليب .

كان هؤلاء الزوار يسيرون زرافات ووحدانًا، نساء ورجالًا شابًا وكهولًا، وقد امتلأت قلوبهم إيمانًا وورعًا، فإذا مروا بأحد النساك وقفوا يصلون وخروا ساجدين أمام المنسك، ثم لا يلبثون أن يتابعوا مسيرهم إلى الأماكن المقدسة لتخفيف أثقال الحياة . وقد شعرت بقوة غريبة تجذبني إلى هذه الجماهير العطاش إلى الهداية، الجiac إلى معرفة الله والتماس الغفران، فرافقتها وقد اطمأنت نفسي إليها اطمئنان المريض إلى العلاج .

سرت مع جماهير الحجاج وفي قلبي ما فيه من الآمال فتحولت
إلى رجل رحيم شفيق، وأخذت أسائل نفسي قائلاً: عمّ يبحث هؤلاء
الرجال وعمن يفتشون؟ فترآى لي أنهم كلهم قلقون حائرون مترددون
مثلي.

كان كثيرون مثلي يبحثون عن الله ولا يدرون إلى أين يقصدون.
لقد تركوا أرواحهم منشورة في الطرقات التي قادتهم إليها
استقراءاتهم، ولكن أرجلهم لم تزل تجري لأن لا طاقة لها على
الجمود. كانت الرياح تدفعهم إلى السير على غير هدى، كما تلعب
بالريش المنثور.

رأيت بين هؤلاء الحجاج التائهين كثيرين من اللؤماء الأوغاد
والمرائين الكذبة الخاملين البلداء الذين لا يرجى منهم نفع فضلاً عن
سواهم ممن يعدّون عالة على البشرية. ولكن هؤلاء لم يكونوا إلا
بمثابة العثير الذي يتطاير وراء جمهور المفتشين عن الله الباحثين عنه.
وهذا الجمهور اجتذب قلبي إليه وحبب إليّ الاختلاط به.

ولكن ماذا رأيت بعدئذٍ؟

شاهدت ذات مرة في بيلاوجيري رجلاً كهلاً أنيق الثياب حسن
المنظر رشيق الحركة لبّقاً تدل هيئته على أنه ليس من العامة.
جلس هذا الكهل في ظل إحدى الأشجار وإلى جانبه جرة مملوءة
زيتاً أو دهناً وإناء نحاسي كالطست وخرق كثيرة.

وكان هذا الرجل ينادي من وقت إلى آخر قائلاً:

تعالوا إليّ أيها السادة، تعالوا، ليأت إليّ الجرحى والقرحى وأنا
أشفيهم، من كانت في ساقه قرحة فأنا أبرئه مجاناً لوجه الله تعالى، هذا
نذري لله، فتعالوا أيها المرضى.

وكان هذا اليوم عيداً دينياً في بيلاجيري فقدمها الزوار زرافات
من كل ناحية حتى غصت بهم، فإذا عبروا أمام ذلك الكهل وقفوا أمامه
وأحدقوا به من كل الجهات، ثم لا يلبث القرحى أن يقتربوا منه طمعاً
بشفاء مرضهم ويسطوا أمامه سيقانهم فيغسل أرجلهم وبعد أن يطلي
الجرح بالزيت يضمده بإحدى الخرق.

وفي ذات مرة تقدم رجل ينتعل حذاء واسعاً فأخذ يلقي عليه
النصائح قائلاً:

- ما هذا الحذاء يا أخي! أنت لست عادلاً، ألا ترى حذاءك في
منتهى الاتساع؟ كيف تستطيع أن تسير؟

فأجابه الرجل: لقد أعطيت هذا الحذاء شفقة وإحساناً.

- إن من أعطاك إياه عمل صالحاً، أما أنت فقد أسأت بانتعاله. إن
عملك هذا يسخط الله عليك فلا يمد يده لشفائك!

فحزنت نفسي عندما سمعت هذا المشعوذ وأخذت أتأمل معنى
عباراته ساخرًا:

«هذا رجل يعرف كيف يعبر عن إرادة الله وأفكاره، بل يدرك كيف

يفهم الله الأشياء ويفسرها! ألا حدّ لجهل البشر وشعوذتهم!«.

ثم تقدمت امرأة متناقلة الخطى شبه عرجاء، فما عجمتها عينه حتى صرخ قائلاً:

- سامحك الله يا عزيزتي إن ما تشكينه ليس كلاعًا أو ذباحًا وإنما داؤك الزهري! حذارٍ أيها السادة حذارٍ، إن هذا المرض شديد العدوى يفتك بمئات العيال، فاضطربت المرأة وخجلت ثم انصرفت مطرقة حياء.

وتابع الطبيب المأجور المثوب نداءه قائلاً:

- تعالوا إليّ أيها السادة وأنا أشفيكم، إنني أدعوكم باسم القديس كيرلوس.

فلا يسمع نداءه الزوار حتى يرموا أمامه حفاة، فيغسل أرجلهم وينث جروحهم وقروحهم قائلاً:

- شفاكم الله وعفا عنكم!

وبعد قليل جمع أمتعته وذهب إلى حيث لا أدري.

وفي المساء أخذني أحد الرهبان إلى مكان أبيت فيه، فعثرت هناك بالطبيب الغسال فاضطجعت قربه وسألته:

- إنني أستغرب اختلاطك بعامة الشعب ومبيتك في الدير، مع أن مظهرك يدل على سعة ورعاء، فكان الأجدر بك أن تبيت في النزل.

- لقد نذرت على نفسي أن أكون الآخر بين الآخرين دوام ثلاثة

أشهر، نذرت على نفسي أن أزور الأماكن المقدسة زاهدًا متقشفًا حارمًا نفسي من كل أسباب الراحة. ونذرت أيضًا أن أغسل أرجل الزوار. إني لا أرى قرحة أو جرحًا حتى يغلب علي التقوى، ولكن مهما يكن من الأمر أعكف على غسل الجرحى والقرحى وفاء بنذري. إن خدمة الله شاقة قاسية بيد أن إيماني برحمته شديد.

فضجرت من هذا الجواب السخيف وتناومت وأنا أفكر في نفسي:
- إن هذه التضحية التي يقدمها لله لا قيمة لها ولا شأن، إنما هي ذبيحة سخيفة لا فائدة منها لأحد.

ولما رأى جاري أنني لا أحير جوابًا ركع فوق الهشيم وصلى بصوت منخفض فسمعته يهمس قائلاً:

-.. وأنت أيها القديس كيرلوس صل إلى الله لأجلي أنا الخاطيء واستعطفه تشفع بي أمامه وسله أن يأسو جروحي وقروقي ويشفيها كما أسو الجرحى والقرحى أيها الله الكلي القدرة! أقدر عملي حق قدره وانظر إليه بعين الجميل وسامحني، إن حياتي لك فلا تقس عليّ. أنا لا أنكر أن أهوائي شديدة وخطاياي كثيرة، ولكنك يا رب أطلت عذابي وعاقبتني فوق ما أستحق. لا تنبذني. لا تطردني من باب رحمتك طرد الكلاب. ولا تدع أيضًا عبيدك يطردوني. آه، إنني أضرع إليك، إني أرفع صلاتي وتوسلاتي وأرجو أن تصل إلى عرشك كدخان البخور المقدس! كان لهذه الصلاة أسوأ تأثير في قلبي، كيف لا والرجل يحسب الله طبيبًا فيسأله بواسطة قديسه كيرلوس أن يأسو جراحه ويعالجها؟

كيف لا تحزن نفسي عندما أسمع رجلاً جاهلاً مشعوذاً كهذا يمن
على الله بما يأتيه من الحسنات ويعتب عليه؟ أيحسب الله رجلاً حتى
أذكره معروفه وجميله وأياديه التي اصطنعها عند الجرحى؟

إذا كان وقع هذه الصلاة ثقيلاً على أذني، فما أثقلها على أذن الرب؟
وبعد أن انتهى من الصلاة عمد إلى مزوده فأخرج ما فيه من الزاد
وشرع يتناوله بفيه وبعد أن يمضغه يسترطه متمطقاً مطعطاً فيسمع له
جرس ثقيل الوقع. أهذا هو الزهد والتقشف؟

رأيت بين الزوار عدداً كبيراً من نوع هؤلاء الأبطال المتدينين الذين
كانوا يصلون إلى ربهم يضرعون ليلاً، ويظلمون إخوانهم ويرتكبون
الأوزار نهائراً.

كانوا يبتذلون الله ويضعون من قدره إذ يستخدمون اسمه ليحجبوا
وراءه نقائصهم وفضائحهم، كانوا يمنون عليه ويتجرون بما يقدمونه
من الحسنات قائلين:

- يا الله! لا تنس كم أعطيناك وكم قدمنا الذبائح لأجلك!

كانوا عبداناً عمياناً لشراحتهم ومطامعهم وتكالبهم فيضعونها فوق
نفوسهم عينها.

كانوا يعبدون الصنم المسيح الذي ارتسمت صورته في أرواحهم
الممزوجة بالجبين والصغارة وهم يتضرعون ويتوسلون قائلين:

- يا رب، لا تصب علينا جامات غضبك!

هؤلاء كانوا بمثابة جواسيس لإلهم وقضاة للبشر، كانوا يتلصصون مراقبين خرق الشرائع الدينية فتأخذهم غيرة على الدين ويثنون آسفين:

- ويل لنا، ويل لنا نحن الجاحدين، ها قد تلاشى الإيمان من القلوب!

وقد راقني بنوع خاص أحد هؤلاء الأبطال الكذبة، قلت راقني، والحقيقة أنه أضحكني بما أبداه من شدة غيrote على الدين واهتمامه بالآخرين.

كنا نسير معًا من بيرياسلافي إلى روستوف.

وكان رفيقي هذا رجلًا أنيق الثياب حسن المظهر ذا لحية سوداء وبشرة بيضاء مشربة حمرة، وهو على ما بدا لي يعيش في رخاء وبحبوحة وينفق كثيرًا من النقود وخصوصًا على النساء، قصّ عليّ هذا الرجل خبره وختمه قائلًا:

- عندما رأيت الشرائع مخروقة الحرمة والبشر يعيشون فسادًا فقدت سلامي الداخلي واضطربت روحي ثم عزمت على مغادرة عملي فسلمت متاجري لأبنائي وضربت في الأرض هائمًا على وجهي متنقلًا من مكان إلى آخر، وها قد مضى عليّ الآن أربع سنوات أشرقت فيها وأغربت، فرأيت حتى ما رأيت وسمعت حتى ما سمعت... لقد اجتاحت جردان الرذيلة الصرح الديني وأعملت في دعائم الشريعة أسنانها قضماً وقرضاً وستظل دائبة على عملها حتى تنهار الدعائم

وتسقط الجدران فوق ساكني الصرح.

وثار ثائر الشعب على الكنيسة فمقتها وتحول عن حدائقها الغناء
ليسقط في مهاوي الكفر والضلال ويؤلف الشيعات الخبيثة...
فماذا صنعت الكنيسة لتعالج الداء وتتدارك الشر قبل استفحاله؟
إنها قصرت همها على مضاعفة ثروتها الخاصة وإكثار عدد أعدائها،
لبست حلة الغطرسة والأناية وما همها أن تعبت بأصول الدين.

كان على الكنيسة أن تمتد يدها إلى إسعاف المحتاجين وإنجاد
الفقراء المعوزين مثل اليعازر المسكين فيرى الشعب آئذ أن الفقر
الذي علّم به المسيح هو مقدس ولو أنها فعلت، لما كان ثمة مجال
للسرقة والاعتداء على أملاك الآخرين. لو أنها عملت بتعاليم يسوع
لصانت الشعب من السقوط في مهاوي الضلال والخطيئة ولكنها
عمدت إلى الإتجار بالدين، فأساءت إلى الله والشعب معاً.

والآن قل لي، أليست غاية رجال الدين في هذا العصر مقصورة
على إلجام الشعب لتسلس لهم قيادته وليسهل عليهم امتطاؤه؟
هذا ما قاله لي رفيقي. إن غيرته على الكنيسة والشعب أضحكنتني
وفكهنني وكيف أصدقه ومخبره يكذب مظهره وعمله يناقض قوله.

ما أكثر هؤلاء الأبطال الكذبة!

الفصل السادس عشر

صور ومشاهد بانسة في المجتمع الجاهل الفاسد

توجهت إلى لوين سعيًا وراء الراهب أفانازي الذي سمعت عنه الكثير فتمنيت لقاءه، وكان يسير حذائي رجل كهل يتوكأ على عصاه البيضاء التي يقيس بها خطواته. التفتُ إليه فراقني أن أحدثه فسألته:

- أمضى على تطوافك زمن طويل يا عمّ؟

فارتاح الشيخ إلى سؤالي وبعدما أنغض رأسه أجابني مبتسمًا:

- تسع سنوات يا صديقي، تسع سنوات.

- ألعلك ارتكبت جريمة فظيعة إذن؟

- وأين هو المقياس الذي يصح أن تقدر به الخطايا؟ هذا أمر لا يعلمه إلا الله.

- فماذا صنعت إذن يا عم حتى قضيت تسع سنوات بالتطواف؟

فابتسم وأجاب: لم أقترف وزراً ولا ارتكبت جناية. عشت كما يعيش الآخرون، أنا من سيبيريا، وقد جئت من ضواحي توبولسك. كنت في صباي حوذيّاً ثم فتحت نزلاً... فحانوتاً أيضاً.

– إذن سرقت أحد المسافرين!

فنظر إليّ شزراً وأجاب غاضباً:

– ما الذي يدعوك إلى اتهامي بالسرقة، ما الذي يحملك على إساءة الظن بي، سامحك الله.

– لا تحفل بما أقوله. إني هازل، وقد شئت مداعبتك، عندما رأيتك قلت في نفسي: «هو ذا شيخ لم يرتكب خطيئة فادحة».

فالتفت إليّ وأجاب: النفس البشرية ذات مقياس واحد في كل الأجسام. والشيطان ينقضّ عليها كلها، ولكن لماذا تُعنى بالحياة الدنيوية وتهمل الموت؟ ماذا تقول بالموت؟ إنك تتحدث عن الحياة، الحياة وحدها، فأين الموت إذن؟

– أين الموت؟ إنه في كل مكان.

– وما معنى سؤالك؟

فحاذاني وقار (أي وقف على أطراف قدميه) وهمس في أذني قائلاً:

– الموت كلي القدرة. المسيح نفسه لم يستطع أن يتلافاه، يسوع الإله ابن الإله حاول أن يهرب من الموت فلم ينج. ألم تسمعه حين

استغاث بربه وقال: «أبتاه ابعده عني هذا الكأس!».

لقد استنجد أباه السماوي ولكن أباه لم ينجده ولم يبعد عنه كأس الموت ولم يكن ثمة مجال للحؤول دون موت يسوع فقد كان مكتوبًا: «يأتي الموت وتظلم الشمس».

ثم تحمس الكهل فأخذ يتدفق فتفيض الكلمات من فمه كأنها سلك من الماء ينحدر من الجبال وقال: أجنحة الموت غير المرئية ترفرف في كل بقعة يا بني، والإنسان يجتاز هاوية الحياة فوق جبل ممدود، فما إن يحرك الموت جناحه حتى يسقط الإنسان وتبتلعه الهوة الغامضة وتدفنه في أعماق أسرارها.

هذا الرجل عندما يشعر باهتزاز الجبل تحت قدميه ينادي بربه ضارعًا متوسلاً: يا الله، إن العالم يستند إلى ذراعك، ويعتمد على قوتك ويلتجئ إليك!

ولكن بربك قل لي: كيف ينجده الله ويأخذ بيده وسيف الموت مصلت فوق رؤوس الجميع؟ أليست سلطة الموت فوق كل السلطات؟ حسن أن يكون الرجل مثقفًا واسع المعارف كثير الاطلاع كبير القلب، حسن أن يزدان بأدب الدرس والنفس، ولكن هل تظن أن هذا الرجل المثقف يستطيع أن يطيل في حياته دقيقة؟ كلاً يا بني، متى يلفظ الموت حكمه تذهب المعارف هباءً منثورًا وترتد كل السلطات مدحورة.

سمعت كلماته فلم أرد عليها بحرف، وما عسى أن أقول وأنا لم أفكر قط في الموت، ولا كان لي من الوقت مجال لدرس معضلة الموت؟

كان الكهل يسير متباطئاً وهو يرسل إليّ نظرات خامدة. ثم لا يلبث أن يلقي بصرًا مذعورًا تائهاً فيما حوله، كأنه يخشى أن ينتصب أمامه بغتة شبح الموت ويرميه في الجحيم. فأخذتني شفقة عليه.

كانت مظاهر الحياة تحرق بنا من كل الجهات، فالأرض مدت بساطها الأخضر السندسي والعنادل صدحت على الأشجار المنورة الورود تفتحت عنها الأكمام واستقبلت الشمس المتلألئة وبعدها كحلت عيني بالمشاهد ملت إلى رفيقي وسألته:

- وكيف تفتقت هذه الأفكار يا عم، ألعك كنت مريضاً؟

- كلاً كلاً، بلغت السابعة والأربعين وأنا رافل في حلل الغبطة والهناء ولكن توفيت بعدئذٍ امرأتي ثم انتحرت ابنتي شتقاً ففقدت الاثنين في سنة واحدة.

- ألعك أنت شددت الحبل إلى عنق الفتاة!

- أنا؟ ما هذه التهمة يا صاح؟ إني لم أمدّ إلى المسكينة يداً، لقد اندفعت إلى الانتحار بعامل الطيش والنزق فما ذنبي أنا. وعلى فرض أنني عشت معها فليست خطيئتي فادحة كما تتصور. أنا أرمل، وكنت بحكم الأرمل قبل وفاة قريبتي ذلك أنها قضت أربع سنوات على سرير

المرض والألم إلا أن توفأها الله . وبعدما انتقلت من هذه الدنيا باركت نفسي وحمدت الله إذ أصبحت حرًا طليقًا .

وقد رغبت بعدئذ في الزواج ولكنني لم ألبث أن رغبت عنه، وقلت في نفسي علام الزواج؟ إني أعيش مرتاحًا كل الارتياح ولا شيء يعكّر عليّ صفو حياتي وبعدئذ تحضرني الوفاة، فلم الزواج؟

إن فكرة الموت كانت تلهب لبي فيقشعر لها بدني . هذه الفكرة كانت تنغص عيشي وتؤلم نفسي . فلذلك سلمت إلى ابني كل مالي ورحلت باحثًا عن الطمأنينة والسلام الداخلي، هاربًا من الموت . كنت أظن أنني بتطوافي من مكان إلى آخر أخفف شيئًا من همومي الباطنية فإذا بي ألداني من الرمس بسيري المتواصل .

كنت أحسب أن ما أراه من المشاهد الجديدة والأشياء الغريبة ينسيني القبر ولكنني أدركت الآن أنني مخدوع جدّ مخدوع .

فسألته: إذا تتألم؟

- أحمل ما لا يطاق من الألم يا صاحبي، ففي النهار أحاول أن أتناسى عذابي، فأبحث عن رفيق يسليني ولا أجتنب معاشرة أحد كان شأنه ما كان ذلك لأنني أحبه بمثابة ترس يردّ عني سيف الموت، الموت أعمى وربما انخدع وأخطأ الاختيار فأنجو ويقع سواي في الشرك . ولكن بعدما يجن الليل وأنفرد بنفسي، عندما تغمرني الوحشة ويسقيني السبات خمرة الأحلام فويل لي إذا أفقت وفتحت عينيّ في ظلمة الليل البهيم . أشعر كأن يدًا سوداء تمتد إليّ لتدغدغ صدري

وتقبض عليّ، هذه اليد السوداء الخفية تتلاعب بالقلب وتداعبه مداعبة
الهرّ للفأر فينكمش قلبي ويهتزّ مضطرباً من هول ما يترأى لي. ثم لا
ألبث أن أخفف عن نفسي وأمد بصري إلى ما حولي فأرى النيام وأسمع
شخيرهم وغطيطهم فأغمض عيني وأقول في نفسي:

- أتراهم يستيقظون أم تغشاهم سكرة الموت؟

لا أحد يدري! فالموت كثيراً ما يحصد السنابل البشرية جرّاً
جرّاً. اسمع يا صاح، ماتت في مدينتي أسرة كاملة غرقاً في الماء،
الأب والأم وبتاهما الاثنان.

كانت شفتا الكهل ترتعشان والدموع تنحدر من مآقيه، فكنت أرثي
لحاله وأقف مدعوراً أمام ما يلقيه في مسامعي.

وتابع حديثه فقال:

- حبذا لو غشنا الموت على حين غرة. حبذا لو جاءنا بغتة. ما
أحلى غمرات المنية تأتيها نياماً فلا نفيق. وما أسوأ الحياة عندما ينخر
سوس الأمراض أجسادنا شيئاً فشيئاً.

ثم تجهم وجهه وتجعد، وتقبض جسمه وتكمش ورفع بصره إلى
السماء وهمس قائلاً:

رب! اجعلني ذبابة ولكن ذرني حيّاً!. فلأن أكون بعوضة خير من
أن تحرمني الحياة. لا تقتلني يا الله! هبني الحياة وسواء لديّ أبشراً
كنت أم حشرة!

فانقبضت نفسي ورحمته وقلت:

ما أمر الموت وما أقصى الحياة تمازجها رعشات المنون!

وما زلنا نسير حتى وصلنا إلى أحد الفنادق وكان فيه جمهور كبير من الزوار فما إن اختلط الكهل بالجماعة حتى انبسطت أسارير وجهه واستعاد طمأنينته فهش وبش ثم عاد إلى الحديث عن صديقه الموت فوقف في الجمهور خطيباً وألقى عليهم موعظة في الموت ولكنه كان جريئاً شجاعاً غير وجل أو جبان فقال:

«إنكم ستموتون أيها الإخوان. ستأتيكم ساعة لا تعلمونها فينقض على رؤوسكم الموت وتذوقون حتفكم. من يعلم؟ ربما كانت المنية تترصدكم فما إن تبعدوا عن هذا الفندق ثلاثة فراسخ حتى تفاجئكم. من منكم يعلم متى يأتي السارق؟».

ففتة سمعته خاشعة وأخرى مذعورة خائفة، وسواها متشائمة حزينة، وهناك من ضحك ملء شذقيه وانهاه عليه بالشتائم. ولكن إحدى النساء وكانت أجراً من سواها رمت الكهل بنظرات الحقد وردت على خطبته قائلة:

- وعلام تخشى الموت أيها الصعلوك الرعديد وترتعد فرائصك وأنت شريد طريد؟

قالت هذه العبارة بلهجة معنوية غريبة حملتني على أن أسترق النظر إليها وإلى الكهل الذي ارتج عليه وجمد كالصنم.

رافقت هذا الكهل حتى «لوين» بغية أن أتسلى ولكن الآية انعكست فضجرت وسئمت رفقته وليس هذا الرجل منقطع النظر فقد رأيت بين زوار الأماكن المقدسة كثيرين مثله ممن كانوا يهربون من الموت، وكان بعضهم يغالون ويبالغون فتقتلهم شدة خوفهم من الموت. نعم إن قلقهم كان عظيمًا إلى درجة أن رهبة الموت نفسها كانت تقضي عليهم.

ورأيت أيضًا زوّارًا كثيرين لا يفترون لحظة عن ذكر الله والتسبيح باسمه ودعوة الناس إلى محبته، على حين أنهم لا يعرفون ما هو الله ولا يدركون معنى العطف على القريب ولا يفقهون شيئًا من روح العبادة الحقيقية.

هذا الفريق قصر همه على التهويل وإلقاء الذعر في قلوب الآخرين، حتى إذا هالهم ما سيلاقونه من القصاصات الأبدية فزعوا إلى أولئك المبشرين بالملكوت السماوي وارتموا بين أرجلهم يطلبون الغفران والخلاص.

كان هذا الفريق يجوب البلاد شرقًا وغربًا شمالًا وجنوبًا حاملاً في حقائبه بذور القلق والإرعاب يلقيها في النفوس باكياً متوجعاً، فيبكي السامعون ويثنون إذ تأخذهم رهبة يوم عصيب.

هؤلاء الناس أو هذه الجبلية الغريبة من الناس تبشر بالله زوراً وبهتاناً، دون أن تدرك ما ينطوي تحت اسم الله من معاني المحبة والحنان والشفقة والغيرية والصلاح، تبشر بالله لابتزاز المساكين

السّدج الذين لا يميزون بين الظلمة والنور، تتخذ اسم الله وسيلة
لاستدرار المال وما أقبح الإتجار بالسماويات!

هذه الجبلّة البشريّة الممقوتة تتوسل باسم الله فتمص به دماء
المؤمنين المسترشدين دون دراية ولا ضمير، خدمة لمصالحها الحقيرة
وإشباعًا لمطامعها الدنيئة.

والظاهر أن تلك المرأة الجريئة التي ردت على الكهل وكالت له
كانت من المنضويات تحت لواء تلك الجبلّة المارقة، بيد أنها تختلف
عن الآخرين بما في عينيها من نيران الحقّد على البشريّة، وما في وجهها
من تجهّمات الغضب وما في لهجتها ونبرات صوتهّا من الشراسة، فإذا
لامسها أحد بكلمة صبّت على رأسه نارًا وحممًا.

وفي ذات مرة لاطفتها واسترسلت معها في الحديث فأنست بي
بعض الأنس، ثم قلت لها بعد تدميث المقدمات والتوطئة لها:

- خير لك أن تقصي عليّ أحزانك وأشجانك وتبشيني همومك
وغمومك بدلًا من أن تغضبي وتحنّني فربما فرجت كربتك وتأسيت.

- وماذا تريد مني؟

- لا شيء، لا تغضبي، لا تخافي.

- أأخاف وممّ أخاف؟ إني لا أفزع ولا أخشى شيئًا، بيد أن صدري
مثقل بالهموم والأحزان.

- ولماذا؟ ما السبب؟

- وماذا يعنك أمري؟ ماذا يهكم شأني؟ إليك عني وإلا استنجدت.

فعدت أحاسنها وقلت لها:

- كل ما أبتغيه هو أن أقف على آلام قلبك وأن أسمع مآسي البشر.

فصعدت نظراتها فيّ وأجابت متهكمة: إذا كان يروك أن تسمع مآسي البشر، فيلذ لك أن تقف على آلامي.. ألا فاعلم أن الكل يذوقون العذاب ألواناً وأشكالاً، مع هذا لا أبخل عليهم باللعنة أجمعين.

- ولماذا تلعين المتألمين المعذبين؟ ما الذي حداك على صبّ لعنتك؟

- لأنني أريد لا أكثر ولا أقل.

ثم شرعت تتباطأ في سيرها وتابعت حديثها فقالت:

- إليك مأساتي فاسمع: في الربيع الماضي ذهب زوجي كعادته إلى نهر دنيير ليسير رمثاً (خشب يضم بعضه إلى بعض ليركب في الماء) ثم مضت الأيام والأسابيع والأشهر ولم يعد، لا أدري ما أصابه؟ أغرق في النهر أم علق بإحدى النساء وعاش معها؟ وكان حمي وحماتي من الفقراء الأردياء، وقد مكثت في منزلهما مع ابني وابنتي الصغيرين اللذين كان عليّ أن أعولهما.

بحثت عن عمل يدر عليّ ما أطعم به ولديّ فكنت أشتغل يوماً وأقضي بالبطالة أربعة بالنظر إلى قلة العمل، أما الجعالة فزهيدة جداً وخصوصاً أجور النساء، ولما رأى حمي أنني لا أكسب ما يفي بنفقاتي

ونفقات ولديّ بدأ يتذمر ويتأفف لأننا كنا نقاسمه قوته الضروري.

وكانت حماتي شرّاً منه، ففي ذات مرّة دعّنتني وأسرت إليّ بنصيحة غريبة إذ قالت: «أنتِ في ميعة الشباب فجوبي الأديار حيث تنالين من الحظوة في عيون الرهبان ما يكفّيك مؤنة العوز والفاقة» فلم يسعني إلا أن أعمل بنصيحتها السيئة مدفوعة بعامل الغيرة على ولديّ اللذين كانا يدميان قلبي عندما أراهما يشكوان الجوع ولا أستطيع أن أسدّ سغبهما بلقمة من الخبز.

كانت الكلمات تنسل من فمها وهي تصرف بأسنانها كأنها تحاول أن تستبقي سرّ بؤسها دفيناً في صدرها. وكانت تنعكس على عينيها روح الأمومة بأجلى معانيها وبعد أن تأوّهت وتنهدت تابعت حديثها: بلغ ابني أوسيب الرابعة من العمر وكانت غانكا شقيقته أصغر منه سنّاً، كان الجوع يأخذ منهما فيكيان ويسألانني خبزاً، فأقسو عليهما وأضربهما ويبيتان على الطوى. نعم أضربهما وعلام الإنكار؟ فتأمل بعد هذا حالة أم بائسة لا تستطيع أن تطعم ولديها وترييهما، إلا إذا ابتذلت جسدها وتمرغت في بؤرة الخطيئة!

وقد مضى عليّ شهر وأن أتقل بين الديار حاملة جسدي للرهبان يتمتعون به مقابل أربعة روبلات، أربعة روبلات فقط؛ لأن الرهبان بخلاء حتى على النساء!

كنت أوتر ألف مرة أن أئد ولديّ وأنتحر على أن أتلطخ بالعار،

ولكن سبق السيف العذل، فسقطت في حمأة الرذيلة، فبأي ماء أغسل عاري؟

فأخذت أعزيتها وأسلي عنها، ثم قلت لها مؤاسيًا:

- إن الله يصفح عن خطيئتك ما دمت قد ارتكبتها مدفوعة بعامل حبك لولديك!

وما كادت هذه العبارة ترن في مسامعها حتى ثارت كاللبوة وأجابت بلهجة قاسية عنيفة:

- وما هي الخطيئة التي اقترفتها نحو الله حتى يغفرها لي؟ بما أذنبت نحوه حتى يصفح عني؟

الله يصفح عن خطيئتي! ما أجمل هذا الغفران! ولكن بماذا أسأت إلى الله حتى أسأله أن يشملني بصفحه، ماذا صنعت؟ أيطرحني في أتون الشقاء ثم يمن علي بالغفران، أهذا هو العدل السماوي؟ ولكن سواء لدي أغفر لي أم اقتص مني، فجهمم ليست أسوأ من الحياة!

فتأثرت وأخذ مني الانفعال النفساني مأخذه وقلت: لقد أسأت إليها من حيث حاولت تعزيتها. وتابعت كلامها فقالت:

- وهل تعتقد أن الله يهتم بالفقراء ويرثي لهم؟ عندما كنا في زيلينيكين على ضفاف نهر عامور أقمنا لله القدايس والذبائح والصلوات مرارًا كثيرة، وسألناه بقلوب متخشعة متواضعة أن يمد إلينا يده وينجدنا، فهل تظن أنه تحرك لمساعدتنا؟ قضينا هناك ثلاث سنوات بالأشغال الشاقة، فالذين نجوا من الحمى عادوا بأطمار الفاقة.

مات أبي هناك، وانهزعت ساق أمي وانحطمت عندما كنا على أهبة السفر، وتاه أخوأي في سبييريا واختفت آثارهما، فأين كان الله؟ لم يهب لمساعدتنا ولا حرك ساكنًا.

كانت تتكلم فترتعش وتهتز، ثم تقلصت عضلات وجهها فتجهم، ولكنها مع هذا كانت فتانة خلافة، عيانان نجلاوان سوداوان يفيضان حياة ونورًا، وشعر حالك غزير فوق بشرة بيضاء نقية غضة.

وعندما جن الظلام وأدركنا الليل ملنا إلى حرجة فانتحينا جانبًا أمينًا وأخذنا نتسامر، فرأيت أن قلب المرأة نضب وجفّ، فلو شاءت أن تذرف دمعة لما استطاعت، بيد أنها عندما ذكرت أيام طفولتها ضحكت وأفتر ثغرها وبرقت عيناها سرورًا. كنت أصغي إلى ما تحدثني به وتقصه، فبعد أن أتأمله مليًا لا ألبث أن أقول في نفسي ما هذه امرأة، إن هي إلا سعادة لا تتوانى عن الفتك إذا افترصت نهزة. هيهات أن يُقوّم أودها ويصلح فاسدها!

وتابعت حديثها فقالت: إني لا أرى الله ولا أشعر به ولا أحب قريبي. وهل تظن أن رجلًا يندفع إلى مساعدة رجل ويهتم بنصرته؟

وما هم الرجال؟ ما هم؟ هم خراف ونعاج، والصواب هم خراف أمام الأقوياء وذئاب مفترسة أمام الضعفاء. إن الذئاب نفسها تعيش جماعات متماسكة، أما البشر فكل منهم على حدة لا يأنس الواحد بالآخر ولا يأمن شره، يعيش البشر متفرقين متباغضين كالأعداء، لقد رأيت حتى ما رأيت وسمعت حتى ما سمعت وسأرى وسأسمع أشياء

كثيرة. لأن يهلك العالم كله خير من أن يبقى، إن في هلاكه راحة له!
أمن العدل أن نلد البنين ونقذفهم إلى الوجود دون أن نستطيع
إعالتهم والإنفاق عليهم، فضلاً عن ضمان هئائهم وسعادتهم؟ لقد
ضربت ولديّ عندما عضهما الجوع بنابه فطلبا مني خبزاً. نعم ضربتهما
فباتا على الطوى. أليس في هذا ما يدمي النفس ويسحق القلب؟ مساكين
هؤلاء الصغار، ولكن ما العمل، واليأس يدفعنا إلى ما لا نهوى ونريد؟
ثم غلب عليّ النعاس فنمت ونامت هي أيضاً، وعند الصباح
تركنتي سعيّاً وراء القوت، تركنتي لتقرش لولديها في الديّارات طارحة
على الرهبان جسدها ليتمتعوا به مقابل ما تسد به رمقها ورمق ولديها.
ولما دعنتني قالت بلهجة تمازجها المرارة:

- لقد قضينا الليل معاً جنباً إلى جنب في حرجة بعيدة منفردة، وإني
لأعجب كيف أن نفسك لم تحدثك باغتنام الفرصة وأنت أقوى مني؟
وكان هذا السؤال بمثابة لكمة لي، فرددت عليها مستاء:

- إنك غير مصيبة في شتمي وتحقيري!

فغضت عينيها وأجابت: يلذ لي أن أستم الرجال وأهينهم، سواء
كانوا صالحين أم أشرار. أنت لا تزال شابّاً مع هذا تمشي محدودباً
ويمشي الشيب في فوديك. يلوح لي أن هموم الحياة أثقلت كاهلك
والدهر أخنى عليك، مع هذا لا أرثي لك ولا أرثي لأحد.
الوداع! ثم غادرني ماضية في سيرها.

الفصل السابع عشر

لا رجال، بل أنقاض حياة متقوضه وغبار بشري سخي... .

قضيت ست سنوات طائفاً جائئاً متنقلاً من مكان إلى آخر فما رأيت إلا دموع الشقاء، وما سمعت غير تنهدات البؤس.

شاهدت جبلة من الناس لا يرونها إلا الشر، كانت تخفي في صدرها حقداً قاتلاً تنفته سماً زعافاً بين البشر. هذه الجبلة كانت تشرب حنظل الشرّ هنيئاً مريئاً كما يجرع السكير الخمر. سمعتها تنشد أغنية الفوز وتضحك من الحياة قائلة:

- نحن المصيبون أصحاب الحق، إن الشر عالمي والبشر لا يستطيعون أن يتلافوه، فعلام الرياء!

كان هؤلاء الناس مستسلمين لليأس الساحق فتمرغوا في حمأة السفالة والنذالة وتهالكوا على القبائح والرذائل، وعاثوا في الأرض فساداً أشكالاً وضروباً، كأنهم يثأرون منها لأنها كوّنتهم وأرتهم شمس الحياة.

كان مقضيًا عن هؤلاء الناس أن يزحفوا في الطرقات حتى ساعاتهم الأخيرة مندفعين بعامل ضعفهم الذي استعبدتهم.

كانوا يرفعون عذابهم إلى درجة الألوهية، ثم يركعون خاشعين متدللين أمام هذه الألوهية وقد أغمضوا عيونهم إلا عن رؤية جراحهم نفسها وسدوا آذانهم إلا عن سماع أناتهم وتأوهاتهم نفسها.

إنهم يثيرون في القلب الشفقة والرحمة فما هم إلا حمقى فسدت عقولهم وأخلاقهم وأذواقهم لذلك لا يحجمون عن أن ينفثوا حنظلهم في كل الوجوه، ولو استطاعوا لنفثوه في وجه الشمس.

وشاهدت جبلة أخرى سحقته الآلام واستعصت عليها النكبات فحملت صليها صابرة ساكنة متظاهرة بالوضاعة والحياء، ولكن هذه المظاهر لم تخفف على الأقوياء الذين استخدموا هذه الجبلة كما يستخدم البناء الجص فجيروا بها فجوات قصورهم المتداعية.

لقد انطبعت في ذاكرتي كلمات كثيرة ومشاهد متعددة وهيئات مختلفة.

نظرت الدموع المرة الحرّية تجري أمامي فيلتهب قلبي وسمعت قهقهات اليأس يرسلها البائسون فصُمت أذناي وذقت كل ضروب السموم وشربت الماء من مئات الأنهار، وكثيرًا ما كنت أنا نفسي أيضًا أسكب دموع الضعف.

كانت الحياة تمثل لعيني جاثومًا ثقيلًا وعاصفة من العبارات

المقلقة المدعرة.

كانت تبدو لعيني كأنها غصّة لا نهاية لها، وصرخة يأس مستمر
فكيفما التفت لا أجد إلا الشقاء والألم وكيفا أدت لحظي لا أرى إلا
بشرية بائسة ملتهفة متحسرة ألا تلد الأرض غير العذاب؟ ألا تنبت غير
الأشواك؟ ألا تسقي الحياء أبناءها غير الحنظل؟

كنت أفكر في ما حولي فتئن روحي وأقول في نفسي كأني أنكر
سمع أذني ومرأى عيني.

كلا، هذا لا استطاع أن يكون!

كانت شآبيب الشكاوى والتذمر تفيض في كل طرفات الأرض،
فلا ألبث أن يستولي عليّ الذعر عندما أرى أن الله لا محل له في هذا
الغمر، في هذا الخراب اللياب الذي انحصرت البشرية وراء أسواره. لم
تكن قدرة الله لتستطيع أن تظهر في مكان، ولم تكن قدماء لتمكننا من
الوطء في مكان.

هذا بنيان الحياة تدك أسسه متفجرات الألم والخوف واليأس
والحقد وقذائف الجشع والخطل والتكالب، وهؤلاء أبناء الحياة يمزق
بعضهم بعضًا تباغضًا وتحاسدًا وتجافيًا.

فرفعت بصري إلى السماء وسألت الله:

هل أنت عند الحقيقة إلا حلم الروح البشرية، هل أنت إلا الأمل
الذي يلده اليأس في ساعات الضعف العصبية؟

رأيت أن لكلّ من البشر إلهاً خاصاً يعبد، وهذا الإله لم يكن أنبل وأجمل من عبده، كان يشقّ عليّ كثيراً أن أعترف بهذه الحقيقة ويؤلمني عندما أرى البشر لا يبحثون عن الله، ولكنهم يفتشون عن وسيلة يلهون بها لتناسي آلامهم.

الشقاء يتعقب الإنسان ويطرده إيان حل، فيدب الوهن إلى نفسه ويحاول أن يتلافى المعركة مذعوراً خائفاً من دخول ميدان الحياة، ثم لا يلبث أن يبحث عن ناحية منفردة هادئة يختبئ فيها، وهكذا ما كنت لألقى في البشر الانفعال المقدس الذي يدفع إلى البحث عن الله، ولا النزعات السامية إلى الهناء الإلهي، وإنما رأيت البشر يهربون من الحياة جبناً وخوفاً ويرغبون في خداع أنفسهم تضليلاً لحواسهم، تأملت حالة الإنسانية، فما لبثت أن سمعت في داخلي صوتاً خفياً قائلاً:

- كلا، كلا، هذا لا استطاع أن يكون!

كثيراً ما كان يتفق لي أن أمرّ برجل عميق التفكير، تشرق في نظراته شعلة نقية ثم لا ألبث أن ألتقيه مرة ثانية وثالثة وهو على هذه الحالة، غير أنني في المرة الرابعة أو الخامسة أراه مختلفاً عما كان بالأمس إذ ينقلب إلى يائس، إلى سكير ويحل محل رصانته وتواضعه طيش وشراسة فيجذف ويشتم.

كنت أقف حائراً لا أدري كيف أعلل سقوط هذا الرجل، ولا أعلم إلى ما أعزو الضعف الذي ذهب بقوته السابقة، أترى الناس كالعُميان يسرون معيّنين على غير هدى، فما أن يصطدموا بعنار حتى يعثر جدّهم

ويستقظوا؟

ندر أن رنت في مسامعي عبارة بليغة ذات معنى وبيان، ففي أغلب الأحيان كان المتكلمون يستعملون ألفاظاً وتعابير ولكنهم يجهلون ما تنطوي عليه من المعاني والأفكار الحسنة والسيئة.

وكان هناك من يسمعون مواظ الرهبان الأتقياء ونبؤات النساك والزاهدين، فيلتوي عليهم القصد، ويستعصي الإدراك فيمزجون هذا بذاك، ويخطون ويخلطون دون تمييز كما يخلط الصبية في تركيب إناء خزفي مكسور.

لم ألقَ في أسفاري كلها رجالاً وإنما رأيت أنقاض حياة متقوضة وغباراً بشرياً سخيلاً تتناوله الأرض هرساً وطحنًا، ثم تنثره الرياح فوق المعابد فيتراكم فيها، لقد انتزعت الأيام ما في قلبي من الإيمان بالأيقونات، انتزعته شيئاً فشيئاً حتى إذا ترهبت وخرجت من الدير قضت على غبراته القليلة.

وكان التطواف الديني (الزياح) يحبس عليّ أنفاسي ويخنقني، كان الموكب في هذه المشاهد الاحتفالية يشبه زحافة هائلة شهباء، الرجال يزحفون فوق غبار الطرقات، يحمّس بعضهم بعضاً مدفوعين بقوة أجهلها، وكانت الأيقونة المقدسة تخفق فوق هؤلاء الرجال الذين جنّوا حتى لامست جباههم الأرض، فكأن هذه الصنمة المعبودة طائر عجيب حتى يخيل إلى من رآها أن عواتق الرجال تنوء بحملها لشدة ثقلها.

وكان الموسوسون الملمومون وقد مستهم شياطينهم وخبطتهم،
ينطرحون على أقدام الجماهير وهم يفرفرون كالذجاج المذبوح
ويصرخون صراخاً يصم الآذان.

وكان الشعب يطأ أجسادهم بأقدامه أو يزيحهم عن الطريق
فيشبعهم ركلاً، ثم يرفع أبصاره إلى صنمة العذراء المحمولة على
الأكتاف ويحييها صارخاً:

- تهللي يا والدة الإله!

كان مشهد الموكب مدعاة إلى السخط، تفصدت وجوه الجماهير
عرقاً ثم نثرت الرياح الغبار فوقها فكلحت واسودت وتبدت كأنها
وجوه وحشية.

هذا التطواف الديني وما تخلله من التراتيل الخامدة المتصاعدة
من حناجر موهونة يرافقها وطء أقدام ثقيلة، هذا التطواف على شكله
الممقوت كان بمثابة إهانة للأرض والسماء.

وكان المتسولون وقد اصطفوا تحت الأشجار يميناً ويساراً في
طول الطريق يؤلفون جناحين غريبين، فهناك المرضى والمقعدون
والعرج والعميان والبائسون القرعى وذوو العاهات، يمدون أيديهم
مستعطين مستعطفين تارة بالبكاء والنحيب والأنين، وطوراً بالكلام
الرقيق أو الإلحاح والإلحاف.

كانت الأمراض تنهش أجسام هؤلاء البائسين الأشقياء، كانت

الآفات تقرض لحومهم وعظامهم بلا شفقة، فلا يلبث من يراهم أن يردد قائلاً:

– هكذا يزدهر البؤس والشقاء!

ما أفضع القوة التي كانت تتعقبهم وترميهم في الحماة وتمرغهم بأوحالها.

ما أقصى القوة التي كانت تضطهدهم وتمثل بهم! في مدينة كيف الجميلة التقيت على شاطئ دنيير رجلاً قوزاقياً لفت نظري.

كان هذا الرجل يناهز الخمسين، أصلع الرأس كث اللحية متجعد الوجه، كبير الهامة، تدل هيأته على أنه مفكر رصين. جلست قربة على الشاطئ وأرخيت لأفكاري العنان فقلت في نفسي:

– إن أحداً لا يذكر أرومته وأصله، لقد انصرفت إلى البحث عن الإيمان الحقيقي وها أنا الآن أسائل نفسي: أين هو الرجل؟ أين هو؟ إنني لا أراه، رأيت فلاحين وعسكريين وموظفين وكهنة وتجاراً، ولكني لا ألقى إلا ناساً غرباء عن الشؤون الجارية والاعتيادية، كل من الناس يخدم رجلاً آخر، وكل واحد يأتذر أمر رئيسه وفوق الرؤساء رؤساء وفوق هؤلاء من هم أسمي فأسمى، إلى أن تصل إلى علو شاهق لا يدركه الطرف، فهل الله مختبئ هناك؟

وبعدما جهدت فكري عبثاً ملت إلى القوزاقي وأخذت أحدثه
فأعجبته دقة تصوراته وشاقتني صراحته، وما زلنا نتجاذب أطراف
الحديث إلى أن قصّ عليّ شيئاً من أخبار بلاده القوزاق فقال:

- تسعرت منذ ثلاث سنوات نيران الفتنة في مايكوب، وهل تعلم
السبب؟

سقط الأوبئة على البقر والتمته فسخط الأهالي، واندفعوا بعامل
اليأس إلى الانتفاض على الحكومة فسيرت إليهم كتيبة من الفرسان
لإعادة الأمن إلى نصابه ففتك النصارى بالنصارى، وقتل بعضهم بعضاً
بسبب الأبقار فمات عدد كبير.

فأنا الآن أسألك: ما دام واحدنا يقتل الآخر بسبب بقرة، فما هو
معتقدنا؟ ما هي ديانتنا في روسيا؟ ألم يقل الله لا تقتل؟
إن شريعة الله هي بمثابة مصبل روحي تكفيننا منه نقطة واحدة نلتجح
بها فتطهرنا.

لقد جاء في الكتاب: إن أنقياء القلوب يرون الله، ولكن كيف
يستطيع أحدنا أن يكون نقي القلب، على حين أنه لا يستطيع أن يعيش
كما يشاء ويرضى؟

إن البشر وقد امتنعت عليهم الحرية وانسدت في وجوههم أبوابها،
لا يتمكنون أن يملأوا قلوبهم بالإيمان الحقيقي، ولكن بمسحة منه.

ثم وقف القوزاقي واعتمر قبعته وودعني بهذه العبارة:

- نحن لا نملك شيئاً من الحرية لخدمة الله، هذا ما يلوح لي.

وقد حاولت أن أدرك معنى كلماته وأجلو غوامضها جلاءً تامًّا فلم أستطع.

مع هذا لم يسعني إلا أن أعترف بأنها تتضمن شيئًا من الصحة والحقيقة.

جلست وحدي على الشاطئ وكانت الشمس قد مالت إلى المغيب فأرخت خيوطها الصفراء النحيلة فوق الأرض، وتكسرت أشعتها على زجاج القباب الكنسية القائمة على الهضبة، فتبدى لعيني مشهد جميل خيل إليّ أن الأرض تنافس السماء بجمالها، ثم أخذت أفكر قائلاً في نفسي:

- ألا يتجلى جمال النفس البشرية إلا في ساعات الشدة والأسى يا ترى؟

أين هو المحور الذي تدور عليه الجماعات البشرية؟ وما هو معنى هذا الاضطراب؟

ما أكثر ما يتردد على النفس من الأفكار والخواطر!

كنت في خلال السنوات الست التي قضيتها جَوًّا، كنت إذا اقترب الشتاء توجهت إلى الجنوب حيث تعتدل الحرارة، ولكن إذا فاجأني البرد والثلج في الشمال أويت إلى أحد الديارات هربًا من القَرّ. وكان الرهبان في بادئ سيئون استقبالي، ولكنهم لا يلبثون بعد قليل

أن يهشوا لي ويهشوا عندما يرونني عاكفًا على العمل. ولا غرابة فهم يحبون الرجال المجتهدين الذين يخدمونهم مجانًا دون أن يتقاضوا أجرًا وقد كنت أحد هؤلاء الرجال.

كانت قدماي تستريحان في الدير، أما يداي فتشتغلان ودماعي لا ينفك عن التفكير. كنت أستعيد إلى خاطري ما شاهدته في فصل الصيف، فأغذي بتذكاراتي الماضية روعي.

كنت أستحث ذاكرتي وأستخرج منها ما خبأته الأيام السالفة من حلول وحامض وأجهد نفسي لكي لا أضيع كلمة سمعتها أو مشهدها رأيته. كنت أشعر أنني متخمة بأنات العذاب والألم على الأرض، وأن عزيمة خائفة فينتابني سبات روعي وأحس مدى أيام كآني نائم فلا أرى شيئًا ولا أشتهي شيئًا ولا أعني على شيء.

وكنيت عندما تخمد حماسة الحياة في صدري، أسأل نفسي: أليس الأفضل أن أرجع عن هذه الحياة التائهة وأعيش كما يعيش سائر الناس دون أن أهتم بحل أحاجي الحياة وألغازها، خاضعًا للشرائع التي لم أسنّها؟

كان النهار في نظري مظلمًا كالليل، وكنيت أراني على الأرض كالسماك الأعزل في السماء، أغريب أنا عن العالم؟ وما هذه العزلة؟ وكان يخيل إليّ في بعض الأحيان أنني فتى ضائع في بيداء الحياة فينتابني اليأس وأقول: وعلام الحياة وقد انفصلت عن العالم؟

الفصل الثامن عشر

صوت الأمومة... إني أطلب ولدًا لا لذة!

ألقيت عصا الترحال بعد تطواف شاق في أحد ديّارات النساء الواقع على ضفاف فولجا فحللت فيه وانصرفت إلى الاحتطاب. واتفق بعد وصولي بأسبوعين أن هوت الفأس على قدمي بينما كنت أحتطب فجرحتها ولزمت الفراش، فأشفقت عليّ راهبة عجوز واعتنت بأمري إلى أن نلت البرء.

لم يكن هذا الدير النسائي كبيرًا ولكنه كان غنيًا يكفل لراهبته بشيء من الرخاء وصفاء البال.

وكانت مظاهر الراهبات وزينتتهن وأحاديثهن وتكلفهن تثير سخطي واشمئزازي.

وفي مساء أحد الأيام سمعت صوتًا ملائكيًا طربت له نفسي، فدنوت لأرى صاحبة الصوت فإذا هي راهبة طويلة القامة ممشوقة القدّ سوداء العينين، معسولة الشفتين، وردية الوجنتين. كانت هذه الراهبة

الصبية ترسل ترنيمتها بصوت قوي ولهجة شديدة عليها مسحة من اليأس.

وفي أصيل اليوم التالي بينما كنت أجرف الثلج عن الطريق إذ مرّت هذه الراهبة بقربي دون أن تنتبه لي، فأخذت أتأملها وأنعم فيها النظر فرأيتها شاحبة اللون متجهمة الوجه. ولما دنت مني حيتها فرفعت رأسها وشمخت بأنفها ورشقتني بنظرات الغضب كأنني أسأت إليها. فتأثرت وحزنت ولم أدر كيف أفسر هذه الغطسة مع أنها مسترهة لا راهبة فليس لها عليّ سلطان.

ولكنني مع هذا لم أتمالك أن خاطبتها قائلاً:

- الحياة شاقة أليس كذلك أيتها الفتاة؟

فاشمازت وردت سائلة: ماذا؟ ماذا تقول؟

- أقول إن الحياة شاقة وإن مقاومة نوااميسها صعبة.

فأجابت بصوت منخفض: اسكت يا شيطان!

ومضت في طريقها لا تلوي على شيء فترأت لي وقد اتشحت بالسواد أنها سحابة تسوقها الرياح.

أخذت أسائل نفسي قائلاً: لماذا خاطبتها بهذه الجراءة؟ أسأت إليها؟

لقد كنت في ذلك العهد غريب الأطوار، وكثيراً ما كانت تزدهم الأفكار في خاطري ثم تنطلق كالشرارة الكهربائية فتصيب من أحدثه وتدميه.

ولا بدع فقد كنت أرى الناس كلهم مرآئين كذبة.

وبعد أيام قابلت الراهبة الحسنة مرة ثانية، فما كاد يقع نظري عليها حتى ثار سخطي وقلت في نفسي: ما الذي حداها على ارتداء السواد؟ ما الذي أرغمها على دخول الدير؟ لماذا تنكرت للعالم واختبأت في هذا المنسك؟

وما كادت تمر أمامي حتى ابتدرتها قائلاً: أتحبين أن نهرب معاً أيتها الصبية؟

فوقفت كالمصعوقة. ترى ما كان وقع اقتراحي في فؤادها؟ لا شك أنها ستصب جام غضبها على رأسي وتنادي رفيقاتها للإيقاع بي. ولكن ما مضت دقيقة حتى التفتت إليّ وأجابت: مساء أرد على سؤالك.

وما رنّ جوابها في أذني حتى وقفت كالمشدوه أسائل نفسي: أتراني أسمع أذني ما لم تسمع؟ إن المغامرة الغرامية تروقني وتسليني ولكنها تقلقني أيضاً.

غير أن اضطرابي لم يلبث أن زال وحلت محله الطمأنينة إذ حسبت الراهبة الحسنة تمازحني وتضحك عليّ وإلا فكيف أصدق أنها جادة لا مازحة أو متهمكة.

كانت قيّمة الدير قد أمرت بنقلي بعدما جرحتم قدمي إلى غرفة صغيرة تقع تحت الدرج في المضاف ثم بقيت فيها ولم أزل.

وفي هذه الليلة نفسها استلقيت على سريري وأرخيت لأفكاري
العنان وبعدها استعرضت الماضي عزمت على أن أضع حدًا لحياتي
التائهة، وقررت أن أمضي إلى إحدى المدن واشتغل في فرن ما، فهذا
خير لي من أن أعيش شريدًا طريدًا تسوقني الرياح من دير إلى آخر
وتتقاذفني يد الدهر في البراري والمهامه.

أما الراهبة الحسنة فلم أشأ أن أفكر فيها، وكلما خطرت ببالي
تشاغلت عنها بموضوع آخر. وفيما كنت منصرفًا إلى التأملات إذ
سمعت قرعًا خفيفًا، فوثبت عن السرير وفتحت الباب، وإذا براهبة
عجوز تهمس قائلة: سر ورائي.

فلم أسألها شيئًا بل تبعتها مطيعًا لأنني أدركت غرضها وعرفت
المكان الذي تقودني إليه، فمشيت رابط الجأش غير حافل بالعواقب.
سترى الراهبة إنني لست جبانًا!

وبعد أن اجتزنا أروقة شتى وقفت العجوز أمام أحد الأبواب وفتحته
ودفعتني إلى الداخل وهي تهمس: سأرجع وأعود بك إلى غرفتك!
وما كدت أطفأ العتبة حتى أضاء الثقاب «الكبريت» في تلك
الحجرة المظلمة فرأيت وجهًا أعرفه، لقد صح ما قدرته وهذه هي
الراهبة الحسنة.

وبعدما انصرفت العجوز قالت لي الراهبة: اقفل الباب.
فأطعتها ثم أخذت أعيث في الظلام فما اهتمتني إلى الموقد حتى
سألتها:

- لماذا لا تشعلين النور؟

فضحكت وأجابت: أي نور تعني.

فسكت وقلت في نفسي: هذه وقاحة.

كانت الراهبة تبدو لعيني في تلك الظلمة كأنها غيمة سوداء في سماء دكناء.

ولما رأته ساكتًا عادت فسألته: لماذا لا تجيب عن سؤالتي؟

فرددت عليها قائلاً: هات ما عندك أولاً.

- أكنت مخلصًا في اقتراحك عليّ الهرب من الدير؟

فخطر لي آنئذ أن أسلقها بلسان سليط ولكنني ترددت وغلب عليّ الجبن فأجبتها بهدوء:

كلّا، وإنما شئت أن أمتحن شعورك الديني.

وعلى الأثر أشعلت ثقابًا آخر فسمح لي آنئذ أن أتأمل هذه المتدينة الحسنة المنتصبة في وسط الحجرة وأكحل عيني بجمال وجهها الفتان.

لم يكن جوابي معبرًا عن الحقيقة ولم تتوقع الراهبة أن أفاجئها بهذه الصدمة، فما عتمت أن قالت:

ما دعوتك لمتحن شعوري الديني، فإذا كنت لم تدرك قصدي فانصرف!

كان صوتها قاسياً ولهجتها خشنة، إنها جادة لا مازحة، تبأ لي لماذا أوقعتها في التجربة.

وتابعت كلماتها فقالت:

- إذا شئت أن أهرب فلا أدري إلى أين أمضي. لقد حبسني عمي في هذا الدير على الرغم مني. وأنا لا طاقة لي على الحياة بين هذه الجدران السوداء المظلمة، لذلك أؤثر الانتحار. ثم سكنت فجأة كأنها سقطت في هاوية...

كانت فرائصي ترتعد وجسمي يهتز ويرتعش وقلبي يخفق خفقاناً شديداً، لقد اختلط عليّ الأمر وحرّت وانتابني انفعالات نفسانية قوية: أين أنا؟ أفي حلم أم يقظة؟ إنني أغمض عيني ثم أفتحهما فلا تقعان على غير الظلام!

وكانت الراهبة تدنو مني شيئاً فشيئاً إلى أن حاذتني وكادت تلتصق بي، فسمعت دقات قلبها والتفح وجهي بأنفاسها المضطربة.

وبعد أن فكرت قليلاً سألتها:

فماذا تبغين مني إذا؟ أفصحني.

فأهوت عليّ وضممتني إلى صدرها، فقلت في نفسي إن بها شيطاناً! ثم انتحبت وزفرت وأرسلت من صدرها أنيناً عميقاً ومن عينيها دراً مصهوراً وقالت:

كان لي ولد فسلبوني وسجنوني في هذا الدير حيث أقضي الحياة

كثيرة حزينة يائسة. ثم قيل لي إن ولدي مات. وجاء عمي وامرأته يؤكدان لي الخبر، فاسودّت الدنيا في عيني وازدادت كآبة على كآبة. كيف مات؟ لا أدري، أحسبهم تعمدوا قتله أو انتهوا منه ورموه في إحدى زوايا الشوارع!

فتأمل حالتي يا صديقي، إني لا أزال قاصرة ولا أبلغ سن الرشد إلا بعد سنتين، آه! ما أطول هاتين السنتين، وبعدئذ أخرج من الدير فيحتضنني عمي.

لقد قضى عليّ أن أظل سجينة سنتين طويلتين هما كناية عن سلسلة من العذاب والألم، وأنا لا طاقة لي ولا أقوى على المعيشة في هذا المحبس.

ثم استسلمت للعبارة واستخرطت في البكاء وأرسلت من صدرها زفرات نارية، وقد شعرت آنئذٍ أنني مسؤول عن هذا المشهد المؤثر الذي يستدر الشؤون، أحسست أنني أذنبت نحو هذه المرأة وحملت في عنقي خطيئتها.

كانت هذه الفتاة المسترهة تبث في قلبي الشفقة والخوف معاً، رثيت لحالها وخشيتها، خيل إليّ أن بها مسأً من الجنون فوقفت حائراً لا أدري أأصدق كلماتها أم لا؟ وبعدما كفكفت دموعها وخفت نشيجها تابعت حديثها فقالت:

- ليت لي من يعطيني ابناً... إني أريد ولدًا فمن ينكر عليّ حق الأمومة. إني أحتاج إلى ولد أقتطعه فلذة من كبدي وأشطره نسمة من

روحي، إذا كان ابني الأول، إذا كان بكري قد مات، فهذا أغذيه بدمي
وأعكس على مرآة قلبه أشعة روعي آه، ليتك تعطيني ابنًا. حبذا لو
شفقت عليّ ورثيت لحالي وشعرت بعذاب قلبي، ألا تتحرك شوارعك
أمام استغاثة أم؟ انجدني وأشفق عليّ. ساعدني بقوتك. أعطني ما
انتزعوه مني قهراً. أستحلفك باسم يسوع أن تمد يدك إليّ وتنتشلني
من هوة اليأس. أقسم لك أنني أم لا عاهرة تمضي وراء الخطيئة. أنا أم
تبحث عن ابنها لا عن لذتها، أنا أنشد الأمومة، الأمومة وحدها حتى إذا
بدت تباشيرها وأخذت تضفر إكليلها على رأسي، طردوني من الدير.
فأنجو من هذا السجن.

كان يخيل إليّ وأنا أسمع كلماتها كأني في حلم. أعجبتني جرأتها
وصدّقتها، وكيف أشك في نزاهة امرأة تطالب بحقها الطبيعي وتستغيث
برجل مجهول وتصرح له علناً بقولها: «إنهم يمنعونني أن ألد ابناً، إنهم
ينكرون عليّ حق الأمومة فساعدني».

ثم ذكرت أُمّي التي لم أعرفها وقلت لنفسي: من يدري إنها لم تكن
كهذه المرأة؟ من يدري أن أمنيّتها لا تشبه أمنيّة هذه المرأة، من يدري
أنها استسلمت لأبي مدفوعة بعامل الأمومة؟

فلم يسعني آنئذٍ إلا أن أعانق هذه الصبية وأستغفرها قائلاً:

- سامحيني، لقد أسأت ظني بكِ فسامحيني باسم والدتي يسوع.

ثم أهويت عليها فضممتها وضممتني وطبعتُ على فمها قبلة نقية
مقدسة وما زلنا متعانقين وقد امتزجت روعي بروحها إلى أن أنشدنا

آية الحب والحياة.

وما إن صحوت من هذه السكرة وأفقت من حلمي المبحّ حتى
اعترضني خاطر شيطاني أقلق فكري فقلت في نفسي:

- من يدري أنها لم تخدعني؟ من يدري أنها قصت قصتها على
كثيرين قبلي؟ من يدري أنها احتجت بالأمومة فأوقعني في أشراك
حب شهواتي؟

قصت عليّ ماضيها فقالت إن أبويها توفيا عندما بلغت الرابعة
فاحتضنها عمها وكان سكيراً شريراً، يقضي الصيف على سطح الماء
والشتاء في الغمقات «المستنقعات» كالضفادع، وفي السابعة عشرة
خدعها شاب سروي فولدت ابناً.

كانت تقص عليّ ماضيها بصوت حنو شجي يحرك شواعر النفس،
وكانت يدها الحارة مطوقة عنقي ورأسها متوسداً كتفي.

وكنت أصغي إلى حديثها وقد تجاذب قلبي الشك واليقين.

إننا كلنا ننسى أن امرأة هي التي ولدت المسيح ورافقته إلى الجبلجلة
متجلدة صابرة. إننا ننسى أن المرأة هي أم القديسين وكل العظماء وكل
الرسل والأطهار.

لقد أضاعت مطامعنا النافهة وشهواتنا السخيفة إدراكنا وشعورنا،
فلم نقدر المرأة قدرها ولم نوفها حقها من الإكرام، بل اتخذناها مطية
واستعبدناها وأذللناها، فعادت لا تلد لنا المخلصين الفداء بل المسوخ

الذين هم ثمار ضعفنا وبلادتنا.

ثم أخذت تحدثني عن الدير، فعلمت أنها ليست الوحيدة التي أرغمت على المكوث في الحبس، وفيما كانت ماضية في حديثها إذ سكنت فجأة وأسرت قائلة:

- لي صديقة عذراء نقية طاهرة تنتمي إلى أسرة غنية وقد سجنتها أسرتها في هذا الدير على الرغم منها، واهًا لها كم تتألم وتتعذب، لو كنت تشعر بمرارة روحها لأشفقت عليها، إنها تتمنى أن تلد ابنًا، هي مثلي تسعى وراء الأمومة، وهكذا يطردونها من الدير فتسترد حريتها المفقودة وتعود إلى أسرتها.

وما كادت هذه العبارة ترن في مسامعي وأستوعبها حتى قلت في نفسي:

- رباه، ما أشقى هؤلاء الفتيات! إن ما قصته عليّ هذه المسترربة انتزع من قلبي الإيمان بعظمة الله وعدالة شرائعه. أين هو الله الكلي القدرة لا يرمق مخلوقاته بعين الرحمة والرافة؟ أمن العدل، أمن الإنصاف أن تقف المخلوقات البشرية موقفًا قاسيًا فظيماً لتجري الشريعة وتفوز؟

ثم همست كريستينا وأسرت قائلة: إذا شئت، إذا استطعت أن تنقذها..

ذهبت هذه الكلمات بما كان قد علق في قلبي من الشك، وأدركت

بعد سماعها أن كريستينا نقية طاهرة، وأنها لو لم تشعر بعظمة الأمومة لما طلبت مني أن أساعد صديقتها كما ساعدتها وحققت أمنيتها.

لقد كانت كريستينا مخلصمة في كل ما قالتها، وكانت توسلاتها صادقة، وأنا أسأت بها الظن وحسبتها تخدعني لتنال مأربها الشهواني. لذلك لم يسعني إلا أن أعترف لكريستينا بما خامرني من الشبهات والظنون وكيف أنني ارتبت في تصديق قصتها، فاستاءت وأخذت تبكي، فلم أجسر أن أوجه إليها كلمة أطيب بها نفسها.

قالت موبخة معنفة: أظن أنني لم أذب حياء عندما دعوتك؟ أم تحسبني همت بجمال طلعتك وقوة عضلك فجئت كالمستعطية أشحذ منك اللذة الجسدية؟ كلاً، إنك مخطئ، فأنا إنما دعوتك لأنني رأيتك قويم الأخلاق وقوراً ذا نظر سديد، رصيناً في قولك وعملك بعيداً عن التحرص بالمسترهبات الفتيات، رأيت الشيب وقد وخط شعرك مع أنك في شرخ الشباب، فاستدللت على أنك كريم نبيل الأخلاق. عندما وجهت إليّ عباراتك الأولى المملوءة بالخبت حسبتك تخدعني وتسخر مني فبكيت ولكني أعملت فكري وعزمت على أن أدعوك.

فتضرعت إليها قائلاً: سامحيني واصفحي عني.

فعانقتني وأجابت: غفر لك الله.

وفي هذه اللحظة قرعت الراهبة العجوز باب الحجرة وهمست:

- لقد حان وقت الانصراف وقریباً تفرع أجراس صلاة الفجر.

فخرجت وتبعتها وفيما كنا نجتاز الأروقة إذا بها تسألني: ألا تعطيني روبلاً، فكظمت غيظي وكبحت جماح غضبي لكي لا أضربها. قضيت برفقة كريستينا أربعة أو خمسة أيام، كنت أود أن أقضي مدة طويلة ولكن الراهبات المرتلات (صف الخورس) والمسترهبات أخذن يضايقني ويتحرشن بي وأنا لا طاقة لي بهن ولا رغبة في الإشراف. وكنت في الوقت نفسه ميلاً إلى العزلة والانفراد للتأمل بهذه المغامرة الغرامية التي فاجأني على حين غرة. أليس في قصة كريستينا ما يدعو إلى التفكير والتأمل؟

كيف استطاع أن يمنعوا المرأة من ولادة الأبناء ما دامت هذه رغبته وما دام الأبناء مبدأ حياة جديدة؟ أليست الأمومة مصدر الحياة؟ وهناك أمر آخر رأيت أن أحول دون وقوعه.

كانت كريستينا قد عرفتني بصديقتها التي رغبت إليّ في مساعدتها على الخروج من الدير وكانت هذه الفتاة المسترربة تدعى جوليا وهي نحيفة الجسم شقراء الشعر، زرقاء العينين فيها ملامح من أولغا قرينتي المتوفاة.

كانت ذات محيا رقيق وطلعة وضاءة ونظرات تفيض كآبة ولا أنكر أنني ملت إلى هذه الفتاة التي كانت تدفعني إليها كريستينا بالحاح، فقد كان جمالها عميقاً صامتاً يجتذب القلب والبصر غير أنني اعتفتت وأبيت أن أدنس طهارتها وهي عذراء نقية لم تعرف رجلاً خلافاً لكريستينا.

ودَّعت كريستينا فاستعبرت وطلبت مني أن أواصلها برسائلي لتوافيني بأخبارها وتطلعني على ما يجد من حَبَل أو سواه. وبعد مغادرتي الدير كتبت لها فجاوبتني بكتاب لطيف، ثم بعثت لها برسالة أخرى ولكنني لم أتسلم جوابًا.

وبعد سنة ونصف جاءني كتاب منها أخبرتني فيه أنها أطفلت وولدت ذكرًا جميلًا يفيض صحة وجذلاً دعتة مائفي باسم أبيه، وأنها تعيش مع امرأة عمها لأن عمها توفي. وقد أوردت في رسالتها هذه العبارة التالية: «أنا الآن مالكة زمام أمري وسيدة نفسي، فإذا جئت أستقبلك على الرحب والسعة».

وأنا كنت مشتاقًا إلى رؤية ولدي ومعانقة امرأتي التي قضيت معها بضعة أيام ولكنني في هذه الأثناء قد اهتديت إلى الطريق القويم فلم يتيسر لي أن أجيب النفس إلى رغباتها فكتبت إلى كريستينا أقول لها إنه إذا تعذر عليّ القدوم حاليًّا فسأسعى إليها في الفرصة الأولى. ولكنني علمت بعدئذ أنها تزوجت بأحد التجار وسكنت مع قرينها في رينسك.

وكريستينا هي أول من رأيتها من المخلوقات البشرية التي كانت تقابل مصاعب الحياة بجرأة وتشمر عن ساعديها وتجمع كل قواها للنضال لنفسها وفي سبيل حياتها نفسها دون خوف أو تردد، غير أنني لم أقدر آنئذٍ هذه الصفات العالية قدرها، ولو قدرتها لما أفلتت من يدي.

قصدت على إثر مغادرتي الدير إلى المدينة حيث عزمت على البقاء فيها، غير أنني رأيت معيشة المدن شاقة مرة صعبة مع أنه لا تنقصني

القوى اللازمة للكفاح.

كانت بلواي برفقائي العمال فوق ما تحتمله نفسي. خمول
وجمود فكري وصغارة وعبودة لصاحب العمل، فكأن واحدهم يقول
لمستخدمه: هو ذا أنا رهين أمرك، التهم جسدي واشرب دمي، فلا
أعلم ما يصيبني في هذه البلاد.

إن عشرة قوم كهؤلاء تقلق فكري وتنغص عيشي. كانوا يتعاطون
الخمرة ثم يتخاصمون على التوافه، كانوا ينشدون الأغاني الشجية
الكثيية، مع هذا لا ينفكون عن العمل ليلاً ونهاراً إشباعاً لمطامع
صاحب العمل الذي كان يجمع الثروة فوق الثروة على ظهورهم
وبعرق جباههم.

كان هؤلاء العمال يعيشون كالصحناء (سمك السردين) في
صناديق تشبه التوايت وبيوت قذرة ضيقة تعافها الحشرات، فكانوا
ينامون مختلطين. أما اللذائذ التي انصرفت إليها أفكارهم فهي تنحصر
في النساء وتعاطي الخمر.

وكنت إذا وقفت بينهم مندداً بالتنظيم الاجتماعي السيئ أصغوا إليّ
واهتموا بقولي ووافقوا على رأيي، ولكنني إذا أرشدتهم ونصحت لهم
وهديتهم الطريق القويم فقلت لهم: «مع الله يجب أن نتفاهم، وعن الله
يجب أن نبحت» تنهدوا وأعرضوا عن كلماتي التي لم يكن لها في قلوبهم
صدى. وكثيراً ما كانوا يسخرون بي ويتهكمون علي بكلمات قاسية.

لم أحب المدينة ولا طاب لي العيش فيها. حركة دائمة وضجة

دائمة ونزاع دائم. والكل يركض وراء الرزق، وراء بلغة من العيش
مجبولة بدم القلب ومرارة الروح، وكان في المدينة حانات لا تحصى،
وكنائس لا تُعد وعشرات الألواف من المساكن والمحال والدور، مع
هذا كله، فقد كان يخيل إلى الناس أن المدينة ضيقة مزدحمة لا تتسع
لساكنيها الذين يعدون بالألواف.

لم أر بين هؤلاء السكان واحدًا يعيش لنفسه. كان كل منهم يسير
مقيّدًا بواجباته ومهامه، كان الجميع يجتازون طريق الحياة في خط
واحد وعلى أعناقهم نير العبودية، فذكرت حياتي التائهة في البراري
والقفار، والليالي القمراء التي كنت أقضيها في الخلاء، تحت سماء
زرقاء صافية مرصعة بالنجوم والدراري.

ما أجمل الحقول وما أحلى الأرض التي تطأها أقدامنا مخملية
ونفترشها وثيرة!

في الحقول تبدو الأرض مستديرة جليلة غير غامضة، فإذا استلقى
المرء فوقها شعر كأنه توسد صدر أمه، وكأنه عاد إلى أيام الطفولة
ببساطتها وسذاجتها ونقاها.

يستلقي المرء على الأعشاب بين الأزاهير والورود، فتنتعش قواه
بروائحها الذكية ويحس كأنه مضطجع على مهد الطفولة فيبتسم وكأن
يد النسيم البليل تدغدغه، ثم تترآى له عرائس الغابات وحوريات
الليل راقصة حوله عازفة منشدة أغاني الحياة وترانيم الجمال والفن
وتتفتح أمام باصرته كوى السعادة غير المتناهية، ويشاهد كوثر الحب

ويسمع خريره الرقيق، إذا أفاق من نومه خجل أن يطاء الأرض التي
افترشها، وأقبل على الأعشاب والأزاهير وسائر النباتات التي كست
الأرض حلتها الخضراء يشبعها تقيلاً!

ما أجمل الحياة في الخلاء، في الحقول، في الهواء الطلق، لا يصد
هبوبه حاجز، ولا يقف في وجهه سدّ.

ما أحسن الأرض، وما أحلاها يتكى عليها المرء فيشعر كأنه متكئ
على صدر حبيب يحبه ويغار عليه ويشكو إليه ما يجول في صدره
فيصيح.

- مباركة أنتِ أيتها الأرض الحبيبة!



الفصل التاسع عشر

وميض نور... في الظلام الحالك

ما كادت تبدو تباشير الربيع حتى غادرت المدينة مولياً وجهي شطر سيبيريا وهي المنطقة التي توسمت بها خيراً بعدما سمعته من أوصافها المشوقة وفي طريقي إلى سيبيريا قادني رجل في السبيل الذي يؤدي إلى معرفة الله وينير النفس.

قابلت هذا الرجل الذي كشف لعيني فجراً جديداً ما بين برن وفيرخوتوريه.

جلست في منعطف الطريق أمام حرجة أستريح من وعناء السفر ثم أضرمت النار وهبأت الشاي. وكان الحر شديداً والهواء ثقيلاً كثيفاً فيصعب عليّ التنفس.

وما انتصف النهار حتى نظرت رجلاً قادماً من برن وهو يغني بصوت أجش مرتجف فرفعت رأسي وجليت إليه بصري وأرهفت

أذني متصفحًا فاحصًا، فرأيته قصير القامة يرتدي جبة وقد شد إلى
منطقته إبريقًا وحمل على ظهره كيسًا وقديرة.

كان هذا الرجل يمشي مسرعًا، وما كاد يراني حتى هش لي وحياني
ملوحًا برأسه، فاستدلت بمظهره على أنه أحد أولئك الحجاج الأفاقين
الأفاكين الذين يضربون في طول البلاد وعرضها استدرارًا للرزق
والكسب. وكنت أحتقر هؤلاء الطرارين لأنهم قوم كسالى لا يأنفون
من الكذب ولا يتورعون عن السكر والسرقه وارنكاب الفحشاء،
متسترين بمظاهر التورع والزهد الكاذب.

وما إن دنا مني حتى رمى أثقاله وحياني قائلاً: سلام لك أيها الأخ،
ما أشد هذا الأوار! إن نار الجحيم أخف وطأة من هذا الحر.

فسألته: أمضى على مجيئك من الجحيم زمن طويل؟

فأجاب: أكثر من ستمائة سنة.

كان صوته رنانًا ولهجته جذلة ورأسه صغيرًا وجبينه عريضًا متسعًا،
أما وجهه فكثير التجعدات والأسارير دقيقتها حتى يخال إلى من يراها
أنها خيوط العنكبوت.

وكان الشيب قد وخط لحيته التي اعتنى بتسريحها وصقلها، أما
عيناه السوداوان فكانتا تلمعان كعيون الفتيان.

ثم مضى في هذره فقال: ما أجمل أورال (جبال في روسيا على
تخوم سيبيريا) إن الله رسم الأرض على أجمل شكل وأحسن ذوق،

فأبدع كل الإبداع وتجلّى فيه العظيم في هذه المناظر الطبيعية الفتانة،
حرجات وأنهار وجبال!

كان يتكلم وهو ينفض غبار السفر عن جبته ويصلح من شأنه.
ولما رأى الماء يغلي في إبريقي رفعه عن النار وسألني بلسان من
له دالة على الآخر:

- تعال نتناول الشاي، أتحب أن تشرب مما أحمله؟
وقبل أن أجيبه تابع قائلاً: إن الشاي الذي معي حسن جداً وقد
أعطتني امرأة تتجر بالصنف. هيا، تذوقه..

فلم أتمالك نفسي آنئذٍ عن أن أقول له ضاحكاً:
- ما أطلق لسانك في الكلام وأسرع يدك في العمل.
فأجابني دون أن يرتبك: أنت لم ترَ شيئاً بعد، إن الحريق قلني، دعني
أسترح وبعدئذٍ ترى مني ما يسرك.

فتذكرت آنئذٍ سافيلكو وخطر لي أن أمارحه، بيد أنه ما مضت
خمس دقائق حتى سمعت منه ما حيرني وأدهشني، فملت إليه بسمعي
أصغي إلى أقواله وأنا أمامه كالمشدوه، مضى في حديثه فقال:

- تأمل هذه المشاهد الطبيعية الفتانة، ألا تذكرنا بالفردوس؟ ألا
تراها رافلة بحلل العيد، انظر إلى الجبال المرتفعة بجلال إلى السماء،
وإلى الغابات تمتد فوق قممها مرتلة أغاني البهجة والجور، انظر إلى
الحياة تتدفق من بطن الأرض بصورها وأشكالها المختلفة، فعلام أنت،

أنت أيها الرجل، سيد الأرض والمخلوقات، علام أنت كئيب حزين؟
فأردت أن أمتحنه وقلت له:

- وما يصنع الرجل إذا ساورته الأفكار الكئيبة الشجية وتغلبت عليه؟

فأومأ بأصبعه إلى الأرض وقال: ما هذا الذي أمامك؟
- أرض.

- كلاً، انظر إلى ما فوق الأرض.

- أعلك تعني الأعشاب؟

- كلاً، انظر إلى ما فوقها.

- إنني أرى ظلي.

- أصبت، هذا ظل جسدك، وإنما أفكارك ظل روحك، وخيال نفسك فماذا ترهب؟

- لا أرهب شيئاً.

- كذبت، لولا خوفك لجاءت أفكارك جذلة تفيض حبوراً. الخوف يلد الحزن وهو ينشأ عن نقص الإيمان، أفهمت القضية؟ اشرب الشاي.

وكثيراً ما كان يخاطبني ويضحك وهو لا يرفع بصره عني، فكنت أصغي إليه كما يصغي المسافر التائه في الغابات إلى قرع جرس بعيد فيرهف أذنيه وهو يحسب سمعه قد خدعه، فإذا رن صوت الجرس

واستيقن أن سمعه لم يخدعه امتلأت نفسه غبطة وبهجة وقام يتبع الصوت مسترشداً به.

سألته عن عرفته فأجابني:

- يدعونني ليغوديل، القصاص الطروب، وأحسن الأصدقاء لنفسى.

- أكنت كاهناً؟

- نعم ساموني كاهناً ولكن مدة كهنوتي لم تطل، إذ انتزعوا مني السلطة الروحية وكفوا يدي عن خدمة القداس والوعظ في الكنائس. وهل تدري ما الذي حملهم على معاقبتي؟

كنت ألقى المواعظ على الشعب وأخطب فيه محرراً شعوره الساذج مفسراً له آيات الإنجيل بمعناها الحقيقي، فما مضت مدة حتى استعذب الشعب عظاتي وأقبل على سماعها بارتياح شديد؛ فساء الرؤساء نجاحي الذي لم ينله كاهن مثلي، واندفعوا بعامل الحسد فجرموني واشتدت نقامتهم على الرعية، ولولا القليل لسجنوا كل من تحمس لي!

كان يقص عليّ حكايته وهو يضحك، فيبدو لناظره أن ضحكه يتراقص في أسارير وجهه. كان يضحك فتضحك كل جوارحه.

وكان إذا ألقى نظرة إلى ما حوله من الغابات والجبال، شمع بأنفه وأخذته نشوة الإعجاب كأنها من صنع يديه.

ولما خفت وطأة الحر تابعنا سيرنا، وفي الطريق سألتني: وأنت من أنت؟

فأخذت أستعرض الماضي أمامه كما استعرضته أمام أنتوني، وشرعت أقص عليه حياتي وأخبار لاريون وسافيلكو فكان يضحك ويقول:

- ما أحسن هذين الرجلين، حقاً إنهما من أبناء الله، هكذا فلتكن الرجال وإلا فلا، هما من نخبة الأرض الروسية، من رجالها العظام.

وإنني والحق أقول، لم أدرك معنى إسراره في الشناء على لاريون وسافيلكو، واستغربت أن يلقبهما بهذه الألقاب العريضة التي رأيتها كالشوب الفضفاض.

وكنت أستغرب كثرة ضحكه وشدة جذله، كان يأخذه الضحك فلا يستطيع السير، فيقف متلوياً ويرفع نظره إلى السماء هاتفاً طروباً حتى يخيل إلى من يراه أن له في الجو صديقاً يريد أن يشركه معه في اغتباطه وابتهاجه.

ولما قلت له إنه يشبه سافيلكو تعجب وأجاب:

- أصحيح؟ إن لي في هذه المشابهة فخرًا ومباهاة، آه يا صديقي، لو أن الكنيسة لم تقس علينا وتحطمننا، لتغيرت الأشياء كلها.

وعندما حدثته عن تيتوف ترأى لي أن رفيقي يعرف حميَّ فانهال عليه بالشتائم وقال: لقد تعرفت بكثيرين من الأوغاد اللؤماء الجبناء

الذين يمتصون دماء الشعب، تيتوف ليس إلا نزافة بشرية يعيش كالعلق من دماء الآخرين!

غير أنني بعدما أطلعته على حكايتي مع أنتوني، أعمل فكره وأجاب:
- أنتوني كان جاحداً زنديقاً، ولكن كثيرين يندفعون بعامل الغباوة ويكفرون. وهذا أسوأ أنواع الكفر.

كنت أصغي إلى أقواله بانتباه فلا أترك كلمة واحدة دون أن أستوعبها في ذهني، لقد رأيت داهية يافعة ذا فكر ثاقب ورأي سديد. ولذلك ما عتمت أن خاطبته كما يخاطب المعترف كاهنه، فبحث له بما يجول في خاطري، غير أنني لم أجسر أن أفشي له ما يخامرني من الشك في الله، فكنت كلما حدثتني النفس ببسط ريبتي وظني، عقل الخوف لساني فأسكت.

كانت صورة الله المرسومة في روحي قد اعتراها الصداً واكمدّ لونها فكادت تمحى، وأنا أريد أن أجلوها وأنزع عنها ما علق بها من غبار الأيام والحوادث فتبرز جلية واضحة زاهية، ولكنني لاحظت أنني كلما حاولت جلاءها ازدادت إمحاء ودروساً، فأشعر بقلبي يرتجف ويهتز متلهفًا.

وكان رفيقي يلح عليّ بالكلام ويدعوني إلى إفشاء أسراري قائلاً:
- لا تخشش شراً، إذا كنت تخفي عني شيئاً فإنما تخدع نفسك، تكلم، تكلم وبع بمكنونات صدرك.

فكنت أنشجع وأقص عليه ما يحضرني من دفائن قلبي، وما يخابني من أفكار فلا يلبث أن يجيب عما ألقيه عليه، وما زلنا نتجاذب أطراف الحديث إلى أن أدركنا الظلام، فأخذنا نبحث عن مكان يصلح لمبيتنا فيه إلى أن وجدنا صخرة عظيمة هبطت من الجبل فغلت حولها الأشجار وافترشتها الأعشاب.

وبعد أن جلسنا على كتفها واسترحنا، شرعنا نضرم النار ثم هيأنا الشاي.

وملت إلى رفيقي فسألته: والآن ماذا تقول فيما قصصته عليك يا صديقي؟

فضحك وأجاب: سأروي لك كل ما أعرفه دون أن أخفي عليك شيئاً، أنا لا أعلم وأعظ بشر، وإنما أقص دون أن أؤكد أو أثبت.

إن التوكيد لا يلجأ إليه إلا أولئك الذين يهددهم مجرى الحياة بخطر عظيم، أو أولئك الذين يضر بهم انتشار الحقيقة وترويجها.

هؤلاء إذا علموا أو وعظوا أكدوا اضطراباً، إذ إنهم يرهبون عظمة الحقيقة الآخذة بالانتشار والنمو والمالئة القلوب نوراً، فلا يلبثون بعدئذ أن يتناولوا جزءاً موافقاً لمصالحهم من الحقيقة، وبعد أن يضعوه ويسبكوا عليه في قالب خاص يقدمونه كتلة صغيرة صارخين:

- هذه هي الحقيقة، الغذاء الروحي النقي الطهور، هذه هي كما هي الآن وكما ستكون في مدى الأجيال.

وعلى هذا يشوهون جمال الحقيقة ويخنقونها ويضيقون نطاقها
منعاً لها من النمو والانتشار.

إن هؤلاء الرجال هم أعداؤنا، وأعداء كل ما هو جوهري حيوي،
أما أنا فلا أستطيع إلا أن أقول شيئاً واحداً: الأمور هي اليوم كما نراها.
أما ما تصير إليه غداً فهذا أجهله؛ ذلك لأن الحياة لم تعرف حتى الآن
سيداً حقيقياً وأنا لا أدري ما يصنعه عندما يأتي، ولا ما يعدله من الأنظمة
وينقضه من القوانين ولا ما يتبينه من الهياكل، أنا أجهل ما يخبئه للعالم
هذا السيد الحقيقي.

وكانت هذه أول مرة أسمع فيها هذه التعابير التي بدت لي غامضة
مبهمة.

فقد تخيلت رفيقي واقفاً بي أمام باب مقفل، أراني الباب ولكنه لم
يرد أن يفتحه لي ولا شاء أن يكتشف ما وراءه.

كانت أقوال ليغوديل صعبة الفهم يستعصي إدراكها عليّ، وكنت
إذا قدحت زناد الفكر مستفسراً تطايرت من تعابيره شرارات نورانية لا
تضيء ظلمات روحي حتى تنطفئ.

كانت الأطلال تحرق بنا، القمر تكبد السماء وأرسل أشعته
الفضية، وفوقنا الغابة وقد امتدت إلى الجبل، وفي الأعالي لمعت
النجوم بين أفانين الأشجار كأنها طيور من نار. كنت أدير لحظي فيما
حولي فلا يقع إلا على جمال صامت فتان وجلال ناطق بعظمة الكون.

وبعد أن كحلت عيني بمحاسن القبة الزرقاء سألت رفيقي أن يجلو لي تعابيره ويفسر ما أغلق عليّ، ولكنه كان يحاذر الجواب عن أسئلتني ويجتنب الإيضاح والتبيان، مع هذا لم أعدم سبباً أتوسل به لأقتبس من نوره هدايته وحكمته، قلت له:

- أكد لي أحدهم أن الإيمان لا يخرج عن التخيلات والأوهام فما قولك؟

- لقد أخطأ من وصف لك الإيمان بهذا الوصف، ذلك أن الإيمان شعور مبتكر خالق ينشأ من أعماق قوى البشر الحيوية، هذه القوة الهائلة التي تحرك العقل وتدفعه إلى العمل. والأسوأ أن البشر يعيشون مغلولين مقيدتين تصدهم الحواجز عن الانطلاق، ترغمهم على أن يصنعوا الخبز والحديد بدلاً من أن يكونوا أحراراً يستطيعون أن ينقبوا عن الثروات الحية الكامنة في النفس.

إن البشر لم يعرفوا حتى الآن كيف ينقبون عن كنوز النفس الثمينة وكيف يستخرجونها ويستخدمونها؛ ذلك لأنهم يخشون أن تضطرب أرواحهم وتهب عليهم عواطف نفسانية شديدة لا قبل لهم بها، وهذا ما يحدوهم على صياغة تخيلات المسيخة وتصنيف الخرافات والأوهام. فسألته: ولماذا تحاذر أن تفضي برأيك في الله؟ لماذا تتجنب الخوض في هذا الموضوع؟

فنظر إليّ محملاً مذعوراً وأجاب:

- ما هذا السؤال؟ إن الله كان دائماً محور كلامي يا صديقي!

ثم ركع أمام النار المشبوبة فانعكست أنوارها على وجهه، وبعد أن بسط يده قال بصوت خفيت ولهجة عذبة: من هو الله صانع العجائب؟ أهو أبونا أم ابن روحينا؟

فارتعدت وشرعت أنظر إلى ما حولي قلقاً خائفاً وقد عيل صبري فأرهفت أذني وأصغيت إلى كلماته أستوعبها واحدة واحدة. وما عثم الكهل أن رفع صوته كأنه يناقش أحداً فقال:

- كلا، كلا، الله لم يخلقه ضعف البشر وإنما جاوزت قواهم حدها وطغت فابتدعوا الله. كلا كلا، إن الله لا يعيش منفصلاً عنا وإنما يعيش في داخلنا.

لقد أخرجوه منا لأنهم يتخوفون على القضايا الروحية، فوضعوه فوقنا ليروا إلى أي حدّ تصل أنانيتنا، وهي دائماً على خلاف مع قيود إرادتنا، أقول لك إنهم حولوا القوة بعنف إلى ضعف ليؤخروا نموها ويحولوا دون اشتدادها. إن مثاليات الكمال مصنوعة على عجل وفي هذا من الضرر ما فيه.

أما البشر فقد انشطروا إلى قسمين: الأول لا ينفك عن اختراع الآلهة وتزييفها والثاني كان ولا يزال عبداً لنزعتة إلى السيطرة على الأرض كلها حتى إذا استولى عليها وتسلم مقاليد السلطة استخدمها ليؤكد وجود إله خارجي عدو للبشر مستقل عنهم، فشوه سيد الأرض

وقاضيتها محاسن يسوع ومسحا تعاليمه، لأن المسيح كان عدوًّا لهما.
كان مقاومًا لاستعباد البشر.

كان رفيقي يتكلم وملء قلبه إيمان حار فيفيض وجهه سرورًا
ونورًا.

وتابع فقال: بيد أن أولئك الذين يبتدعون الألوهيات هم قوم
خالدون؛ لأنهم يصنعون سرًّا دون انقطاع إلهًا جديدًا كاملاً يقبله العقل،
إله عدل ومحبة.

كانت عباراته تشحذ عزمته وتملأ قلبي نورًا، فأشعر بأن طرق
الهداية انفتحت أمام عيني وأحس كأني كمي لا أعزل.

أخذت أتأمل ما حولي وأدرت لحظي في الأخيلة فاستولى عليّ
شيء من الخوف وخيل إليّ أن الأرض تدور بي فقلت في نفسي: «وإذا
صح ما يقال وكان الشياطين حقًا يستهون الناس بخطبهم الساحرة؟
من يدر أن هذا الكهل لم ينصب لي فخًا من الأكاذيب ليلقيني في جحيم
الخطيئة الكبرى؟ من يعلم أنه لا يحاول أن يلقي عليّ غشاء من
الكلام المزوق ليزين لي الخطيئة؟ من يدري أنه ليس بطاغوت جاء
يضللني بأكاذيبه العذبة؟

وما عمت أن ملت إليه وسألته:

- ومن هم أولئك الذين يصنعون الآلهة، وأي الآلهة تنتظر أنت؟
فأخذ يضحك غير عابئ بشيء وأجاب: إن الذي ابتدع الله هو

الشعب، الكثير العدد المنتشر في كل الأرض، الشعب الذي هو أعظم من كل الشهداء الذين تقدسهم الكنيسة. إن الله صانع العجائب هو الشعب الحي الخالد وأنا بروحه أومن، وإلى قوته أتوسل، وباسمه أبشر، الشعب هو مبدأ الحياة الوحيدة الحقيقية. الشعب هو أبو الآلهة الغابرة واللاحقة.

سمعت كلماته فقلت في نفسي: «إنه مجنون».

كانت مواعظ ليغوديل كقبس أهتدي به إلى سواء السبيل. كانت كلماته تلقي في نفسي نورًا فتنحجب ظلمات الشك والريبة، غير أنني شعرت فجأة بصدمة الخيبة وأنا لا أزال في منتصف طريق الهداية، فأحسست قلبي ينقبض وخفت أن أكون مخدوعًا واهمًا فرفعت رأسي إلى رفيقي وسألته مستفهمًا:

- ماذا تعني بالشعب الذي تتحدث عنه؟ أهؤلاء الفلاحون؟

فشمخ بأنفه وأجاب: إنني لا أعني طبقة معينة، وإنما أقصد المجموع كله دون استثناء. الشعب هو ينبوع الألوهية الأوحد ومعينها الخالد.

إن إرادة الشعب تستيقظ وهذا المجموع الكبير الذي انشطر بعامل الشدة والقساوة سيعود إلى اتحاده. إن عددًا كبيرًا من الأفراد يبحث عن طريقة يسبك بها كل القوات الأرضية في قالب واحد. وهذه القوة الموحدة هي التي تؤلف إله الأرض الهادي العظيم، الإله العالي الذي يدرك كل شيء.

كان يتكلم بصوت جهوري كأنه يقول للجبال والغابات وكل الكائنات الحية اسمعي كلماتي وعي ما أقول.

كان يتدفق بكلماته وهو رافع يديه كأنه طائر على أهبة الطيران. أما أنا فكنت أسمع وأرى فأحسبني في حلم ويخيل إليّ أن جاثومًا ثقيلًا يضغط صدري فتطير نفسي شعاعًا.

ناديت إلهي وتأملت صورته العظيمة التي رسمتها نفسي له، ثم استعرضت أمامي أظلال المخلوقات البشرية الجاهلة الغاشمة وقلت:

- أهؤلاء هم الذين ابتدعوا الله؟

ثم ذكرت الأحقاد الحقيرة والجشع والأهواء السافلة ونظرت إلى الظهور التي قصمها الذل والعمل والعيون التي قرحتها الدموع الحرّري و ذكرت عُمه البصائر وخفاف الحصاة والحمقى والأئمة، فقلت بنفسي لنفسي:

- أمثل هؤلاء يستطيعون أن يبتكروا إلهاً؟ هذا لا يجوز أن يكون!

فابتسمت روحي ابتسامة مرّة وشعرت كأن رفيقي رمانى بسهم سخريته ومهزأته فقلت له عابثًا غاضبًا:

- آه يا عزيزي، لقد هشمت روحي، أهكذا تخاطب الناس كلهم، وهكذا تعلمهم؟ إنك في عرفي ترتكب خطيئة كبيرة، أنت قاسٍ لا تشفق على البشر، عن التأساء والعزاء يبحث الناس لا عن الشكوك، وأنت إنما تزرع الريب والظنون.

فضحك وأجاب: ستمضي مثلي في الطريق نفسه! ستتبعني في سبيلي!

فغاظني ضحكه، ورددت عليه قائلاً:

- كلاً كلاً! إني لن أضع الإنسان في مصف الله؟

- ولا ينبغي لك أن تضع الإنسان والله في مرتبة واحدة، وإذا ساويت بينهما فإنك تبتدع سيّداً، وأنا لم أحدثك عن الإنسان وإنما عن الشعب.

فثار ثائري على هذا الكهل عندما رأيته يضع الشعب في مصف الله، وما الشعب عندي إلا أجرب مقل سكير ذليل مهان يجلد نفسه إذا لم يجد من يجلدّه، ويستعبد روحه إذا لم يلقَ من يستعبده، فأين له أن يؤلّله ويخلق الآلهة؟

ولذلك ما عمت أن رددت عليه بلهجة شديدة قاسية: هذا مين وبهتان، وما أنت إلا كهل أحمق وجاحد مجدف فما هو الشعب؟ وما عسى أن يكون؟

إن هو إلا قدر الجسم سافل الأخلاق سخيّف الفكر بذيء اللسان فقير الحال والنفس، لا يستحي أن يبيع روحه للأبالسة بأبخس الأثمان، فكيف يستطيع بعد هذا أن يؤلّله أو يفكر في تصنيف الآلهة؟

فما كاد الكهل يسمع هذه العبارات حتى تقهقر وانتصب وصبّ عليّ نظرات ملؤها الحنق والغضب وصرخ: ألا فاسكت!

ثم بسط ذراعيه وحركهما وضرب الأرض برجله ونظر إليّ متهدداً
وتابع قائلاً:

- ألا فاسكت أيها الثرثار المهدار، تلقحت بدم نبيل وما هو إلا
فاسد، فجرت في عروقك المصالة كسائر الأشراف، أتدري على من
تطعن يا فأر العنابر؟

أنتم كلكم معشر النبلاء مقدودون من أديم واحد لا فرق بين الواحد
والثاني، كلكم متغطرس عيل على البشرية يعيش بالسلب والنهب.

لقد سطوتم على الحزاني والمساكين وسرقتموهم ثم امتطيتموهم
كالعير وسقتموهم إلى حيث شاءت لكم الأهواء، مع هذا تشتمونهم
وتطعنون عليهم ولا تخجلون أن تقذفوهم بكل عوراء وسواة!

كان الكهل يرتعد ويرتجف فابتعدت عنه حذرًا من أن يضربني.
لقد كنت أبدن منه وأقوى ولو لكمته لكمة واحدة لفضيت عليه، ولكني
رهبته ورأيت يدي القوية أعجز من أن تمتد إليه بسوء.

ذكرت آنئذ الشتائم التي وجهها إليّ رئيس الأساقفة والأخ ميخا
وسواهما من رجال الدين ولكن شتان ما بين شتائم الكهل وشتائمهم.

أولئك كانوا أقوى مني مع هذا كنت أشتم في عباراتهم رائحة
الخوف والجبن، بيد أن هذا الكهل الذي هو أضعف مني كان جريئاً
جسوراً غير هياب فخاطبني كما يخاطب الرجل فتى من الفتيان،
وغضب عليّ غضب الأب الكهل على ابنه الشاب، فلم أجسر أن أحرك

ساکناً أمامه، على حين إني ثرت على الذين شتموني من رجال الدين
وكلت لهم الكيل كيلين.

كان الكهل ينهال عليّ بالقوارص واللواذع والتوبيخ فأصغي إليه
مشدوهاً خاشعاً.

وتابع كلماته قائلاً: وماذا تعرف من أمور الشعب وأحواله أيها
الغبي الأعمى؟ أدرست تاريخه ووقفت على نشوئه ومجرى حياته؟
طالع إذن وأنعم نظرك، فأبونا الشعب الشهيد العظيم هو أيضاً قديس
بل هو أعظم القديسين والشهداء.

تصفح تاريخ الشعب وسرّح فيه رائد الطرف، تتجلّ أمامك عظمته
وتدرك أنتذٍ معاني قواه وتحل ما استغلق عليك فهمه أيها الشريد الطريد
التائه في صحراء الحياة!

أتعلم ما هي روسيا؟ وما هي اليونان ورومية؟ أتدرك العوامل
والأسباب التي قضت بتأليف الحكومات؟ أفهم الروح والإرادة اللتين
دفعتا إلى إنشائها؟ أتعرف اللغة التي يتكلمها الحكماء؟ إن كل ما تراه
على الأرض وكل ما تحفظه في ذاكرتك أو تطبعه على صفحات قلبك
إنما هو من صنع الشعب و تصنيفه!

وقفت جامداً وكلي آذان و عيون. وكان الكهل يخاطبني بحدة
وحماس، فرأيت العرق يتصبب من وجهه وشاهدت الدموع تنحدر
من مقلتيه، فشق عليّ هذا المشهد المؤثر وانفطر قلبي حزناً. إني لم أر
واحدًا بين المعلمين الذين وعظوني يبكي. إني لم ألق واحدًا من أولئك

الذين علّموا ووعظوا يغضب للحقيقة الممتحنة فيكي كما بكى هذا
الكهل الزري المظهر الجليل المخبر.

وعندما همّ بمتابعة الكلام قلت له: طب نفسًا يا رفيقي ولا تتأثر.
فانتهرني غاضبًا ورفع يده متهددًا وقال: اسكت أيها الغبي، اسكت
أيها السبروت وإلا ضربتك.

فغلب عليّ الضحك وأجبت: يا لك من رجل صالح! سامحني
إكرامًا ليسوع واصفح عن ذنبي إذا كنت قد أذنبت وأسأت إليك.
فسكنت ثورة نفسه وأجاب:

- أنت لم تسيء إليّ ولا أهنتني، ولكنك ظلمت الشعب بمطاعنك
وشتائمك، فإذا جاز للنبلاء أن يمتهنوا كرامته ويطعنوا به ويخنقوا
صوته ويجلدوه، فلا غرابة لأنهم ليسوا من الشعب ولا الشعب منهم.
هم طبقة ممتازة. أما أنت فمن أنت؟ ألسنت من عامة العامة، من صميم
الشعب؟ فعلام تسدد سهام مطاعنك إلى صدرك؟

ثم جلس يستريح بعدما مسح عرقه وقال: اسمع ما أقصه لك عن
روسيا.



الفصل العشرون

على مفترق الطرق...

أصغيت إلى أقوال رفيقي الكهل كل الإصغاء، فأعجبني نعمته العذبة وصوته الندي الذي كان يقع في نفسي أجمل وقع.

كان يسترسل في كلامه عن تاريخ روسيا بلهجة بليغة مؤثرة كأنه يقرأ الإنجيل فيملاً قلبي خشوعاً وجلالاً.

رأيتُه وقد جثا على قدميه، ورفع وجهه إلى السماء وشخصت عيناه كأنه رسول سماوي يناجي إلهه، خُيل إليّ وهو راکع أنه كبيرٌ عظيم وأن في جسمه الهزيل الزري المسبر نفساً علوية نورانية.

مضى في حديثه يقص عليّ تاريخ روسيا، فذكرت ما طالعتُه في كتاب أنتوني وترأى لي وأنا أسمعه أن الكتاب مفتوح أمامي أطلع صفحاته سطرًا سطرًا، وأخذت أقابل بين كلماته وعبارات الكتاب فرأيت أنها متشابهة إلا في المعنى.

وبعدما شرح لي أسباب انحطاط روسيا سألني:

- أسمعت التفاصيل ووعيتها؟

- نعم، وإنني أشكر لك هدايتك.

- وهل استيقنت بعد هذا أن أولئك الأبطال لم يوجدوا قط، وأن الشعب هو نفسه قَمَصَ أعماله العظيمة في أشخاص خرافيين إحياء لذكرى جهاده واستبساله في بناء الأراضي الروسية ونشر العمران؟
ثم تابع حديثه عن الروس القدماء، عن النواة التي انبثقت منها روسيا الحاضرة.

ها قد ذر قرن الغزالة من وراء الجبال وشرعت جيوش الظلام تتقهقر أمام أشعة الشمس الزاحفة عليها فتختبئ في الغابات وتلقي الذعر في قلوب الأطيّار فتستيقظ من رقادها قلقة، ثم لا تلبث أن تطمئن فتغرد وتصدح. وكانت السحائب تمر فوقنا متراكضة متسابقة تسوقها الرياح وتذر بها في الجو البعيد.

وكنت أنا ورفيقي متكئين على الصخرة وقد افترشنا العشب المخضوضل بندى السحر. كان هو يبعث الأجيال القديمة وينشر أنباء القرون الماضية، وكنت أنا أصغي إليه مدهوشاً بأعمال السلف متردداً في تصديق فتوحاتهم العمرانية في بلاد كُشِّرت لهم فيها العناصر الطبيعية عن أنيابها وناصبتهم العداء.

كان يقص عليّ تاريخ استعمار روسيا وصف شاهد عيان كأنه رأى

رأى عينيه وسمع سمع أذنيه. قال:

- كانت الفؤوس الثقيلة تحركها السواعد القوية تسطو على الغابات المترامية الكثة التي امتدت في كل الآفاق فتجندل الأشجار وتترك الحرجات أثرًا بعد عين، وتنشئ فيها المدن والأديار والقرى ثم لا تلبث بعدئذ جنود العمران أن توغل في الداخلية مرافقة مجرى الأنهار المتجمدة وهي تنشد أغنية النصر هازئة بالعناصر الطبيعية.

هؤلاء هم رسل العمران يكتسحون المجاهل المتمردة الثائرة ويرتادون المفاوز والبوادي، وينشرون فوقها ألوية العمران، ويبثون فيها حياة جديدة.

ثم قام الأمراء سادة الشعب فأقطعوا مواليمهم الأراضي التي قسموها إلى حصص صغيرة، وكانت هذه الإقطاعة بمثابة عبودية المجموع للأفراد.

وكان الأمراء يحاربون بلا انقطاع ويرسلون إلى ساحات الموت عبيدهم أبناء الشعب دون شفقة.

ثم جاءت قبائل التتر من سهول ستيب غازية فاتحة، فماذا صنع الأمراء للدفاع عن حرية الشعب؟ إن واحدًا منهم لم يتحرك ولا اهتم بصد الغزوة التتريّة، بل العكس جبنوا وخافوا وخانوا الشعب الذي أهرق دمه في سبيلهم، وقاموا يساومون أمراء التتر «الخانات» على أولئك المساكين الذين بيعوا كما تباع المواشي، وهكذا اشترك الأمراء الغرباء في استعباد الشعب الذي سامه سادته خسفًا وذلًا.

ومضى في حديثه ينشر مطاوي الماضي ويستعرض حوادث
السلف إلى أن قال:

- أرايت ماذا صنع الشعب؟ أوعيت كيف اضطهدوه وظلموه
وأرهقوه؟ فكيف أجزت لنفسك بعد هذا أن تحتقره وترذله وتنهال عليه
بالشتم والمطاعن؟

لقد قصصت عليك ما قام به الشعب من الأعمال العظيمة مسيرًا
بإرادة أمرائه، وبعد أن أستريح أحدثك عن حياة روحه وأخبرك كيف
بحث عن الله وكيف ابتدع الألوهية. ثم استلقى على العشب وأغمض
عينيه ونام كالأطفال.

أما أنا فلم أجد سبيلًا إلى النوم، ولا شعرت بسلطان الكرى،
فأقمت أحرس رفيقي وقد أطلقت لأفكاري وتأملاتي العنان.

كان يمرّ بالقرب منا بعض المسافرين فينظرون إلينا شزراً ولا
يكلفون أنفسهم بتهادي التحية، فقلت في نفسي: «أهؤلاء يا ترى هم
المنحدرون من أولئك الرجال الصالحين الذين بنوا روسيا؟ أهؤلاء
يا ترى أحفاد أولئك الجدود العظام الذين روى لي تاريخهم رفيقي؟».

كانت الحقيقة والخيال يتلبسان على روحي المتعبة الواهنة،
لقد تركت مقابلي لليغوديل أعمق أثر في نفسي، فاستنارت بصيرتي
وسلكت في الحياة طريقاً جديدة.

لقد أقلقت نفسي آراؤه في الله ابن الروح الإلهية فاستولى عليّ

الاضطراب بعدما سمعته يترنم بمآثر الشعب وأعماله ويعزو إليه ابتكار الإلهيات.

ثم استعدت إلى الذاكرة ما سمعته من المواعظ والتعاليم السالفة وتخيلت الرجال الذين تعرفت بهم واقفين أمامي يلقون الخطب ويعلمون ويشرحون الحقائق وينيرون الأذهان، فلم ألقَ في كل أقوالهم إلا خيالاً بديعاً، أما الأفكار والآراء فكانت سخيفة تافهة.

ثم انتقلت إلى الحياة أستعرض مشاهدها، فتجلى لي شقاؤها في الشغل الإجباري لكسب الخبز الضروري الممزوج بالدم، وفي أشية الجوع الطويلة القاسية وفي الأمراض والأوبئة والآفات الفتاكة، وفي غموم الأيام العصيبة وسائر ما هنالك من العوامل العنيفة التي تنغص عيش البشر وتذلهم وتعبث بأرواحهم فتغمرها في حمأة المهانة.

تجلت لي هذه المشاهد التي أوجدها النزاع في سبيل الحياة، فقلت بنفسي لنفسي أين الله في حياة كهذه الحياة؟ وأي مكان يشغله فيها؟ فملت إلى رفيقي فخطر لي أن أوقظه وأصرخ به قائلاً: تكلم. أين الله؟

وبعد قليل استيقظ الكهل فشكرني بابتسامة عذبة ثم رفع بصره إلى السماء وقال:

- لقد استغرقت في النوم وها الشمس تكبدت السماء، ولا حيلة إلا متابعة السفر.

- إلى أين تمضي والحرّ يخنق الأنفاس، معنا خبز وشاي وسكر،
فابق إلى أن تخف وطأة الأوار. وفضلاً عن هذا فأنا لا أتركك يا صديقي
قبل أن تفني بوعدك وتخبرني كيف بحث الشعب عن الله؟

فضحك وأجاب: طب نفساً فسأطلعك على ما تريد.

ثم قطب وخاطبني جاداً فقال: ماتني، حتام تعيش شريداً طريداً؟
لقد حان لك أن تعكف على العمل والدرس.

فأجبت: ألم يفتني الوقت؟

فقال: تأملني جيداً، انظر إلى وجهي لقد بلغت الخمسين ولا أزال
أدرس على رفقائي وأعني بهم عمال المصانع. توجه إلى أحد المعامل
واختلط بالعمال وعش معهم سنة أو سنتين، واقتبس منهم كما اقتبست
أنا.

على بعد مائة كيلومتر تلقى مصنعاً كبيراً لي فيه أصدقاء كثيرون
فسر إليه ولا تتوان.

فقاطعته قائلاً: قص عليّ أولاً ما وعدتني به، وبعدئذ أفكر في ما
يجب عمله، فأطرق مفكراً ثم رفع رأسه وقال بلهجة عذبة وصوت
رنان:

- إن يسوع هو الإله الشعبي الأول، ولد من روح الشعب كولادة
العنقاء من رمادها.

ثم تحمس وبسط ذراعيه أمام وجهه ورفع بصره إلى العلاء كمن

يبحث عن تعابير جديدة يصوغها وقال:

- لقد طالما حمل الشعب على عواتقه أفرادًا مختارين وأعطى هؤلاء الأفراد عمله وحريته، ثم رفعهم إلى ما فوق مرتبته وانتظر بفارغ الصبر أن يدلوهن على طريق العدل. ولكن هؤلاء الذين اصطفاهم الشعب لم يلبثوا أن سكرُوا بخمرة المجد وما إن هودتهم نشوة العلا حتى تنكروا للشعب الذي رفعهم وامتهنوا كرامة أنفسهم بمطلق سلطانهم، وظلوا في علاهم غافلين عن الذين سموا بهم، وهكذا أصبحوا عبثًا ثقيلاً على الأرض بدلاً من أن يكونوا عزاء وبلسمًا.

ولما رأى الشعب أن أولئك الذين غذاهم بدمه واختارهم ليخففوا آلامه تحولوا إلى أعداء، أضاع ثقته بهم وارتد عنهم وترك أصحاب السلطان في عزلتهم، فلم يلبثوا أن هـووا وهوت معهم عروش مجدهم وعظمتهم.

وقد أدرك الشعب بعدئذ أن ناموس الحياة لا يقوم على العمل بمقتضى ما سنّه أولئك الأفراد الذين تساموا على أكتاف الشعب وبمطلق إرادته، بل إن الناموس الحقيقي يقضي بأن يكون التسامي عامًّا والارتفاع شاملًا للجميع، وأن يشاهد كل فرد من المجموع بعينه طرق الحياة.

ويوم شعر الشعب أن لا غنى له عن المساواة في الرفعة والعلو ولد يسوع فقمّص عدد كبير من الشعوب ما يحلمون به من العدالة في كائن حي وابتدعوا منه إلهاً مساويًا للجميع دون تمييز بين هذا أو ذاك.

وهكذا اندفع البشر مرة أخرى بهذه الفكرية الشعبية وعملوا على ربطها بغاياتهم القصية ووصلها بمنازعهم الروحية الشديدة؛ لكي يستبقوها بينهم إلى الأبد وتعيش في قلوبهم على الدوام. وعندما اجتمعت هذه الأفكار واتحدت برز منها إله حي هو يسوع المسيح ابن الشعب المصطفى!

كل ما ذكره ليغوديل عن يسوع فهمته ووعيته، غير أن كلماته المتعلقة بالشعب الذي استنبط يسوع أبهمت عليّ واستعصى إدراكه. وعندما اعترفت له بالأمر أجابني: إذا شئت أن تفهم فستفهم وإذا شئت أن تعتقد فستعتقد.

فزادني جوابه غموضاً في غموض.

وبعد مسيرة ثلاثة أيام قصّ عليّ فيها عبر التاريخ وأموره وشرح لي تاريخ الشعب في الماضي والحاضر، ووصف لي الاضطرابات العظيمة واضطهاد الدين للأحرار المجّان الذين كانوا يوقظون خواطر الشعب ويزرعون الحقيقة تحت ستار الدعابة والمزاح مثل سافيلكو، فأناز ذهني بمشكاة إرشاداته وتعاليمه، بعد ثلاثة أيام وصلنا إلى فيرخوتوريه، فلم يلبث رفيقي أن قال لي:

– علينا الآن أن نفترق لأنني ماضي في طريق آخر.

فأطرقت حزينا وقد صعب عليّ أن أفارقه وهو الذي قادني بيده إلى سبيل الهدى وبث فيّ روحاً جديدة، وأزال ما علق بنفسي من الأوهام والريب.

ولما رأي مطرقاً مفكراً سألتني: ما الذي تتأمل؟ بماذا تفكر؟ اذهب إلى المعمل فاشتغل وباحث أصدقائي العمال. أوكد لك أنك ستجني أحسن الفوائد. فالعمال قوم لطفاء يستقبلونك على الرحب والسعة، وأنا تثقت بينهم. فاذهب.

ثم تناول قصاصة ورق وكتب عليها بعض العبارات وبعدما أعطانيها قال:

- اذهب وعش بين العمال ولا شك أنك ستذكرني بالخير، هم رجال أحياء منبعثون، ألا تصدق ما أقوله؟ فرفعت رأسي وأجبتته سائلاً:

- إن البصر الحسير يرى أشياء كثيرة، ولكن أتراه يحسن تمييزها؟

فصرخ بي قائلاً: انظر إلى داخلك. افحص ببصيرتك. بعيني قلبك وعقلك، إني لم أقل اعتقد وإنما قلت تعلم وابحث واستقص.

ثم تعانقنا وسار. كان يمشي بقدم ثابتة كأنه شاب تملأ رأسه وقلبه الأحلام والأوهام. أما أنا فوقفت حزيناً أشيعه بنظراتي، إلى أن غاب عن عيني ذلك الطائر الصдах الذي كان يتنقل من مكان إلى آخر منشداً أغاريده العذبة التي تملأ القلب نوراً والروح حكمة ومعرفة.

وقفت حزيناً مطرقاً وقد تجاذبتني الأفكار وانتابني الهواجس فاختلطت عليّ الأمور ورأيتني عيباً كليلاً، فضحكت من نفسي ورثيت لها معاً، وشعرت كأني انشطرت إلى اثنين كلاهما عدو للآخر.

ثم مضيت في طريقي إلى أن قابلت أحد العمال فسألته: إلى أين يؤدي هذا السبيل:

فأجاب: إلى معامل إيزوتسكي.

فلم ألبث أن حولت وجهي شطر ناحية أخرى لأنني لا أريد الذهاب إلى حيث أرسلني ليغوديل. أخذت أطوف في البراري تائهاً متنقلاً من قرية إلى أخرى، فما وقعت عيني على ما تراح إليه نفسي، كان الشعب غليظاً جافاً فلم آنس به ولا ملت إلى محادثته ومعاشرته. وكان الناس يرموني بنظرات الارتياب والحذر كأنهم يرون فيّ لصاً أو مجرماً فكنت أضحك منهم وأقول في نفسي متهمكاً:

«أهؤلاء هم الذين يبتدعون الآلهة؟».

وكنت كلما سألت أحداً: إلى أين يؤدي هذا الطريق؟ أجبني: إلى معامل إيزوتسكي، فقلت لنفسي: يلوح لي أن الطرقات كلها تؤدي إلى معامل إيزوتسكي!

وما إن سرت قليلاً حتى برزت أمام عيني المصانع المعهودة، غير أن دخانها الكثيف لم يجتذبني ولا استهواني. لقد خيل إليّ أنني فقدت نصف كياني، فلم أكن أدري ما أريد، وشعرت أنني تاعس بائس وأن الخيبة أخذت مني مأخذها.

وكانت تتتابني بعض الأحيان ابتسامة شريرة، وتتفجر مراجل الحنق في صدري، فأود لو قذفت حمم شتائي على العالم كله وعلى نفسي أيضاً.

ثم عزمت فجأة على الذهاب إلى المصانع دون أن أنتبه إلى ما أصنع.

الفصل الحادي والعشرون

في طريق المعرفة والهداية

ما زلت أسير حتى رأيتني أمام جحيم هائل يقع على سهل قائم بين جبال جرداء قاتمة. وكانت تنجم من الأرض بنايات شتى تندلع من سطوحها ألسنة النيران وتنفث مداخنها المرتفعة صعدًا إلى السماء البخار والدخان.

وكانت قرقرة الحديد وجعجعة الآلات وضوضاء العمال تصم الأسماع وتوقر الأذان. وكنت كيفاً أدركت طرفي لا أبصر إلا الحديد والفحم والحطب والدخان والبخار. وإذا تنشقت فالرائحة الكريهة.

وكثيراً ما كان يقع نظري على وجوه سوداء كالفحم تنتقل هنا وهناك كأنها سحببات دكناء تتماوج على الأرض.

هذه هي مصانع إيزوتسكي!

وكنت كلما تأملتتها قلت في نفسي متهمكاً:

- شكراً لك يا ليغوديل! لقد أرسلتني إلى أجمل بقعة في روسيا!

هذه أول مرة رأيت فيها مصنعًا عن كثب.. ولا غرابة أن يترك في نفسي أثرًا سيئًا، فما تعودت أن أتنشق الهواء ممزوجًا بالدخان، ولا ألقت رؤية الوجوه السوداء المطلية بالفحم، ولا مرنت أذني على سماع القرقة والجمعجة والضوضاء.

وبعد أن تأملت المصانع مليًا انحدرت من زقاق سائلاً عن بيير باجيك، والغريب أن كل الذين سألتهم عن هذا العامل كانوا يجيئونني بلهجة خشنة فظة، فكأنهم استيقظوا من نومهم على أثر جاسوم ثقيل هاج أعصابهم ولما يزل، فكنت أغض عن خشونتهم قائلاً في نفسي: هؤلاء هم الذين ابتدعوا الله؟

وفيما كنت أفتش عن باجيك إذا بي أمام رجل يشبه الدب، كان هذا الرجل يلبس مبدلة لماعة لكثرة ما علق بها من الدهن و الزيت.

وبعدما سألته عن بيير باجيك أجابني: أنا هو فماذا تريد؟

فحييته قائلاً: أنعم صباحًا. إني أحمل رقعة إليك.

كان باجيك ضخم الجثة طويل القامة عريض المنكبين ذا لحية كبيرة علتها الأقدار. أما عيناه فصغيرتان لا يكادان يريان وقد غشيهما حاجبان كثيفان.

وبعدما سلمت إليه الرقعة نشرها وأخذ يقرأها، فلحظت من حركات وجهه وتقطيب حاجبيه واهتزاز سباله أن قراءتها ليست بالأمر السهل. غير أن باجيك لم يلبث أن هش وبش وترقرقت على ثغره ابتسامة الارتياح والسرور ولمعت عيناه الصغيرتان وانبسبت أسارير

وجهه وسألني:

- أحيّ هذا الرجل الصالح؟ آه كم أنا مشتاق إلى رؤيته، كيف حاله، حسن حسن، والآن تابع سيرك في هذا الطريق حتى إذا انتهيت توجه يسارًا حيث تقع الغابة، ففي سفح الجبل ترى بيتًا أخضر اللون فادخل وسل عن ميخائيل معلم المدرسة ونسيبي، وإذا قابلته فأطلعه على رقعة ليغوديل وأنا بعد قليل أتبعك.

ثم مد لي يده مودعًا وسار مسرعًا فنظرت إليه مشدوهاً وقلت في نفسي: ما أعظم هذا الرجل..

وبعد أن سرت قليلاً وصلت إلى البيت المعهود فاستقبلني شاب لطيف الهيئة يرتدي قميصاً ومئزرة قذرة وكان قد شمر عن ساعديه صيانة لكمي قميصه من الأوساخ التي تلطخت بها يده. وما إن قرأ رقعة ليغوديل حتى سألني:

- وكيف حال الأب يونا؟ ألم يقل لك إنه سيأتي لزيارتنا؟

- كلاً لم يقل شيئاً ولكني لم أعلم أن اسمه يونا.

فرماني بنظرات الريبة وأعاد قراءة الرقعة وقال: ما عسى أن يكون اسمه إذن؟

- ليغوديل على ما قال لي.

فضحك الشاب وقال: هذا لقب أطلقته عليه، أما اسمه الحقيقي فالأب يونا.

كان محدثي ذا شعر طويل صقيل مسترسل كأنه أحد الشمامسة أما وجهه فشاحب اللون وعينه زرقاوان لامعتان.

وكان يصعد في نظراته ويتأملني كأنني قطعة من القماش بين يدي تاجر.

وبعد ن فكر قليل سألني، أمن زمن طويل تعرفت بيونا؟

- تعرفت به منذ مدة قصيرة جدًا وقضيت بصحبته أربعة أيام وأربعة ليال.

وقد استغربت المئزرة التي ارتداها فسألته: علام هذا الإزار؟

- كنت أجلد كتابًا فلبسته وقاية لثيابي.

ثم تابع كلماته فقال: إن عمي بيير باجيك لا يتأخر ثم تتعشى. ألا تريد أن تغتسل؟

فاستنكرت سؤاله وحسبته يحتقرني فأجبت: وهل جرت العادة عندكم أن تغتسلوا؟ فاستغرب وأجاب: ما هذا السؤال؟ إننا كلنا نغتسل؟

فرددت عليه قائلاً: ذلك أني لم أرينكم حتى الآن رجلاً نظيفاً. فعبس وقطّب حاجبيه وأجاب بهدوء ورزاق: ليس عندنا بطّالون وكسالى، الكل يشتغلون باجتهاد، وكثيراً ما يمنعهم ضيق الوقت عن الاغتسال.

وقد دلني جوابه على أنه أقوى مني. وفيما كنت أهيئ الجواب إذا

به يخرج فشعرت آنئذٍ بخجلي الشديد.

كان البهو كبيراً نظيفاً بسيط الأثاث والرياش. في أحد جانبيه مائدة الطعام وفي الجانب الآخر مكتبة حوت فضلاً عن الكتب العلمانية نسخاً من التوراة والعهد الجديد وسواهما من الكتب الدينية.

ولما خرجت إلى ساحة الدار كان يبير باجيك قد عاد من المصنع فلما رأيته أغتسل دنا مني وقال: وأنا أيضاً سأغتسل فهلاً صببت الماء على يديّ، فأجبتته إلى طلبه وما إن أزال الأوساخ حتى رأيته نقي البشرة ذا وجه أبيض مشرب حمرة.

ثم جلسنا إلى المائدة فدار الحديث بين العم وابن أخيه على أمور خاصة بهما دون أن يسألاني من أنا وما أريد، ولكنهما كانا يرحبان بي ويتلطفان بتقديم المآكل ويرمقاني بنظرات العطف. ولما رأيتهما لا يشركانني في الحديث، قلت لهما إني طالب معرفة وهدى وقد جئت لأطلع على أفكاركما وآرائكما.

فرد عليّ ميخائيل قائلاً: إن غرضك من المجيء إلينا لم يخفَ عليّ بل أدركته حالاً. ولست أنت أول من أرسله يونا إلينا، إنه يقدر الرجال قدرهم ويعرف كيف ينتقيهم.

شئت أن أناقشهما وأجادلهما، ولكنني لم أهتدِ إلى الذريعة التي أتوسل بها لفتح الباب. وفيما كنت أعمل الفكرة إذ دنا مني ميخائيل وسألني بلطف: أتؤمن بالله؟

- نعم أو من! غير أنني ما لفظت جوابي حتى شعرت بطيشي، لم أكن رصيناً في جوابي، فهل أو من حقاً بالله؟

وتابع ميخائيل سؤاله فقال: وهل تحترم البشر وتخافهم؟
- كلاً.

- ألا تعترف إذاً بأنهم خلَقوا على صورة الله ومثاله؟
فلمعت أسارير عمه سروراً وأشرق وجهه جذلاً وحبوراً، أما أنا فكظمت غيظي، وقلت في نفسي: ليضحك مني الآن، ولكن ليثقفني ويقوم أودي إذا كان حكيماً.

ثم ملت إلى ميخائيل وأجبت قائلاً:

- إن احترامي للناس يؤدي بي إلى الشك في قوة الله.
ولكني شعرت حالاً بأنني أخطأت التعبير في هذا الجواب أيضاً، فقد شككت في الله قبل أن أعرف البشر.

كان ميخائيل ينظر إليّ محملاً وهو هادئ رصين، أما عمه فكان يتنقل في البهو من ناحية إلى أخرى وهو يصقل لحيته ويتمتم.

لقد أوقعت نفسي في مأزق حرج لا أدري كيف أنجو منه، لماذا هويت إلى حماة الكذب فأبدت ما لا أعتقد؟

خجلت من نفسي، وأدركت أن روحي كانت كالنهنهة شديدة الشفوف وأن أفكاري وخواطري القلقة كخشارم النحل المذعور تجري تائهة.

ولكنني مع هذا لم أهن ولا استسلمت للضعف، بل أخذت أجمع أفكارى المضطربة لأصّب كل ما يُثقل قلبي، فعدت إلى المناقشة وأكثر الكلام دون أن أكثرث لوقوعه من نفسي العم وابن أخيه. إذا كانا حكيمين فليأتيا بالبرهان وليرداني إلى السبيل القويم، وبعد أن تعبت ومللت الكلام سألتهما قائلًا:

- والآن كيف تعالجان روحي المعذبة السقيمة؟

فرد عليّ ميخائيل دون أن يرفع نظره وأجاب: أنا لا أعدك مريضًا.. فلم يلبث عمه أن قهقهه، فخیل إليّ عندما سمعت قهقهته أن شيطانًا هبط من سقف البهو وسقط على الأرض. وعطف ميخائيل على كلماته فقال:

- إنما المريض من يغيب عن رشده ويعمى عن رؤية ما يرتكبه من سوء وشر وهو في عرف نفسه رجل يعيش. ولكنك على ما أرى سليم العقل والجسم، فأنت تبحث عن أفراح الحياة وكل ما ينزع إليه أصحاب الأبدان.

- فمن أين لي إذا هذه الروح المعذبة المتألّمة؟

- لأنك ترتاح إلى هذا العذاب وتغتنب به.

فصرفت أسناني غيظًا وأثار حنقي هدوء هذا الشاب ورصانته التي لا تحتمل، مع هذا كظمت ما يخالجنى وسألته:

- أواثق أنت بما تقول؟

فرشقني بنظرات هادئة وردَّ عليَّ بسكينة وقعت في صدري وقوع الحراب وقال: لو كنت مخلصًا لا اعترفت بأنه لا غنى عن آلام روحك. إن هذا العذاب يضعك في مصاف سائر البشر وقد احتفظت به وسهرت عليه سهرك على الكنوز والأعلاق، بل حرصت عليه حرصك على وسام ثمين أليس كذلك؟

كان يخيّل إليَّ وأنا أسمع هذه الكلمات أن ميخائيل يصنع بي ما يُصنع عادة بالنحاس لصقله وجلائه، أي يحكني بالرممل والرماد ليزيل الصدأ.

ثم أردف فقال: يلوح لي أنك تخشى الاختلاط بسائر الناس فنشأت فيك عن هذه العزلة دون أن تعي فكرة المرض وقلت في نفسك: «أنا مقروح الروح ولكن قروحي لي وحدي وليس بين الناس من تضارع جراحه جروحي فأنا لا أحاشي بي أحدًا!!».

فشئت الرد عليه ولكن خانني الخاطر، كان ميخائيل أحدث سنًا مني وأضعف جسدًا، بيد أنني لم أشأ أن أكون غليظًا خشنًا أمامه. وكان عمه يئن ويتنهد كأنه دب مسجون في القفص.

وعاد ميخائيل إلى الإرشاد فقال: بيد أنك مخطئ يا صاح. إن الآلام لا تجعل لك ميزة على سائر الناس وهذا الوهم، هذا الغرور، البشر كلهم فلا ينجو منه أحد ولهذا السبب أصبحت الحياة مسيخة عاجزة. الجميع يسعون في الفرار من الحياة، فيحفرون ثقبًا ينفذون من

ورائه إلى العالم وهم في عزلتهم. والحياة تبدو باطلة سخيفة عندما ينظر إليها الناس من خلف الكهوف والحفائر، باستثناء النساك المتوحدين. ومضى في حديثه فتكلم عن الرجال الذين لم يجسروا لسبب أو آخر على امتطاء الآخرين وقيادتهم إلى حيث يستمرئون الطعام ثم قال: - إن هذه الحياة التاعسة الشقية الترايبية الروح بدأت يوم انفصلت الفردية الإنسانية عن قوة الشعب العجائية، عن أمها الكتلة البشرية. ولما أذعرها العجز والعزلة تحولت أو انتسخت في كبة أي لفيفة من الأهواء والشهوات المدعوة «أنا».

هذه «الأنانة» أسوأ أعداء الرجل، ذلك لأنها سحقت سدى بلا جدوى كل القوى العقلية المفكرة وكل ما في البشر من طاقة على ابتكار الروحيات، بحجة الدفاع عن كيانها وإثبات وجودها على الأرض.

إن الخمول الفكري في «الأنانة» أعجزها الابتكار والابتداع، وهي أمام الحياة عمياء خرساء بكماء، فأنحصرت غايتها في الدفاع عن كيانها والتنعم بأسباب الراحة والهناء، وإذا كانت قد شذت عن غايتها في بعض الأحيان، فابتدعت أشياء جديدة إنسانية قلبًا وقالبًا، فلأنها اندفعت على الرغم منها بعوامل خارجية قوية كانت تهمزها بلا انقطاع.

كنت أصغي إلى خواطره وأنا كالمشدود، إن هذه الأفكار التي ألقاها على مسامعي فوعيتها كل الوعي وفهمتها كل الفهم، كانت تلامس روحي وتدغدغها، وقد طالما تخيلت هذه العرائس الفكرية ماثلة أمامي

تهمس بأناشيدها وأغانيتها حتى إذا ما سمعت أقوال ميخائيل وتذكرتها وتذكرت تلك النغمة السحرية التي كانت تحرك أوتار فؤادي، أما الآن فقد ألبس ميخائيل هذه الخواطر حلة قشبية من الألفاظ والتعابير الجلية وعرضها أمامي منضدة منظومة باتساق وائتلاف وانسجام كعقود الدر.

مضى ميخائيل في كلامه إلى أن انتصف الليل، فافتادني إلى بيت يشبه الكوخ واستلقينا فوق الهشيم فما هو إلا القليل حتى استسلم لسلطان الكرى فنام نومًا عميقًا، أما أنا فلم ألبث أن نهضت وخرجت إلى عرصة الدار فجلست على مقعد خشبي وأرسلت طرفي في ما حولي.

أخذت أنأمل السماء فرأيت النجوم تتلألأ في كبدها، غير أن القمر كان يرسل أشعته الفضية حينًا ثم لا يلبث أن يتنقب بحجاب سحابي كأنه عذراء حياء قدعة، فتختفي أنواره وينتشر الظلام. وسرحت رائد الطرف في الغابة القريبة التي امتدت إلى قمم الجبل وكسته بردها الأخضر المعلم.

وكانت المصانع الواقعة في سفح الجبل مكشورة عن أسنانها الحمر مدممة طورًا مهمهمة مرة، وقد اندلعت ألسنة النيران من كواها العليا، فلعب بها الهواء كأنه يحاول أن يختطفها ويطير بها، فلا يلبث أن يرتد عنها قانعًا بدخانها ورمادها.

أعملت فكري فيما ألقاه عليَّ ميخائيل فرأيت في تعاليمه قبس هدى وإرشاد أنه على صواب فيما شرحه، ولكنني مع هذا لم أستطع أن أمزج روحي بروحه بل بقيت روحي على عزلتها كأنها في بيداء لا

مؤنس لها أو رفيق.

أخذت أستعيد على نفسي ما سمعته من كلمات يونا وميخائيل
محاولاً درسها ومعرفة ما علق منها في خاطري، وما انطبع في روحي،
ثم شرعت أقابل بينها وبين أفكارى الناشئة عن شعوري الخاص على
أمل أن أقرن بعضها ببعض وأصل بين أجزائها، ولكني لم ألبث أن
حزنت. فما هي أفكارى؟ ما هي خواطري؟ وهل أستطيع أن أبني على
شعوري الخاص فكرة كبيرة عامة؟

مضت الساعات فتخاوصت النجوم وكادت الشمس تمج شعاعها
دون أن يُفتح عليّ بما يرضي نفسي القلقة المضطربة. ها هو الليل
يرتد أمام جيوش النور وقد حمل معه نقابه الشفاف الذي نشره فوق
الأشجار.

ها قد بدأت الأرض تبرز للعيان فتبدو لرائيها بشكلها الفوضوي
كأن جباراً مدّ يده إلى ذلك السهل فانتزع الأشجار وحفر الأخاديد
وبعثر الصخور والحجارة.

ها هو المصنع كأنه لحد قائم إلى جانب الجبل وقد تراكمت فوقه
الأقذار وكساه الدخان بحلته السوداء. ها هو يستقبل العمال القادمين
إليه فيبتلع في أحشائه الواحد بعد الآخر. تأملت هذا المشهد فقلت في
نفسي:

- هؤلاء هم الذين يصنعون الآلهة. وما أحسن ما صنعوه!

ثم مضيت إلى الكوخ ونمت نوماً عميقاً.

الفصل الثاني والعشرون

صعب على العبيد أن يؤمنوا بالله ويستوعبوا فكرة الله

أفقت صباحًا على ضجة هائلة فمن صراخ شديد إلى ركض وقفز،
ومن صفير إلى غناء كالخوار، فحسبت أن الجحيم فتح أبوابه وأطلق
ما فيه من الأبالسة.

وما إن خرجت من مضجعي وألقيت نظرة على عرصة الدار حتى
رأيت عشرات الفتیان وقد انتصب بينهم ميخائيل وهو مرتد قميصه
البيضاء فيخيل إلى ناظره كأنه زورق نشر شراعه الأبيض وقد أحاطته
القوارب.

كان ميخائيل جامدًا ضاحكًا يهش للفتیان ويرمقهم بحنان وعطف،
وكان هؤلاء يلعبون ويقفزون حوله وقد ارتدى بعضهم القمصان
البيضاء والآخرين الأحمر وسواهم الزرق، فما لبثت أن شعرت بشيء
يجذبني إليهم فوقفت بالقرب من الساحة أتأملهم ولكن أحد الصغار
رآني فحذر رفقاءه مني قائلاً:

- انظروا هو ذا كاهن أمامكم!

وعلى الأثر اجتمع حولي جمهور منهم وأخذ يصيح بملء صوته:
كاهن! كاهن!

وكان الصغار يدورون حولي ويتأملونني فيقول أحدهم: إن شعره
شديد الشقرة، ويقول آخر: وما أطوله!

فيرد عليه رفيقه: إياك أن تدنو منه وإلا قرص أذنك.

ويصيح سواه منبهًا محذرًا: ابعدوا عنه. هيئته تدل على أن المداعبة
لا تحلو له، فينتهره آخر قائلاً: علام الخوف وهو ليس بكاهن، إنما هو
قندلفت.

ثم يتجادل الفتيان ويتتهي بهم الأمر إلى سؤال ميخائيل عن حقيقة
عرفتي «هويتي» فيقول أحدهم: أيها المعلم، ما هذا الرجل؟

غير أن ميخائيل كان مضطربًا حائرًا لا يدري ما يقول لتلامذته،
فبقي ساكنًا، أما أنا فلم أدر ما الذي دعاهم إلى الاهتمام بشأني وما الذي
لفت نظرهم إليّ بهذه الصورة الغريبة، حتى حسبني بعضهم غولًا كما
عدني سواهم ألعوبة، مع هذا سررت بمرآهم فلم ألبث أن ضحكت
لهم وصرخت مداعبًا: تفرقوا أيها الطيور الكواسر!

ثم سار إليّ ميخائيل ومد يده محيياً وقال:

- إننا منصرفون إلى الغابة، أتحب أن ترافقنا؟

فأجبت به إلى سؤاله مسرورًا بهذه الفرصة التي أتيت لي، لقد كان

ابتهاج الصغار يملأ صدري جذلاً وجبوراً، فكأن سرورهم يحرك أوتار قلبي المنقبضة فتفيض نفسي غبطة.

ذهبنا إلى الغابة برفقة هؤلاء العفاريت الصغار الذين انتشروا في طريق الجبل كريش نثره الهواء. إني لن أنسى هذا اليوم، وكيف أنساه وقد انطبع في قلبي، كنت أسير إلى جانب ميخائيل وقد فاض قلبي سروراً بهؤلاء الفتيان الذين لم يعرفوا آلام الحياة وشقاءها.

كانوا يسرحون ويمرحون ويلهون فيتسابقون طوراً ويتخاصمون تارة، ويهزلون أخرى حتى إذا ما أخذ العياء منهم التفتوا حول ميخائيل وانهالوا عليه بالأسئلة:

- ما هذه الزهرة؟ ما هذا النبات؟

فلا يلبث أن يشرح لهم ما غمض عليهم بلهجة ملؤها العذوبة والركة. وبعد أن تفرغ جعبتهم من الأسئلة ويرتوي ظمأهم إلى المعرفة وينالوا قسطهم من الراحة، يجددون الكر والفر وينتشرون هنا وهناك مغتبطين مبتهجين لا همّ يثنيهم عن اللهو ولا غمّ يقعدهم عن اللعب، ولا اضطراب يزجرهم عن تساقى كؤوس الصفاء الساذج، وما إن ابتعدوا قليلاً حتى قال لي ميخائيل:

- أتراهم لم يخلقوا إلا للعمل والسكر؟ ربما كان الأمر كذلك، ولكن كل واحد منهم مستقرّ لروح حي. أتراهم يستطيعون الإسراع في إنماء أفكارهم فيتحروا من ربة الشك والتردد؟ ربما استطاعوا ولكن لا شك في أنهم سيسلكون الطريق المظلم الضيق الذي سار فيه

قبلهم آباؤهم. إن آباءهم يأمرونهم قائلين: اشتغلوا. كما يأبون عليهم أن يعملوا الفكر.

كثيرون من هؤلاء الفتیان إن لم أقل كلهم سيخضعون للقوة البليدة الخاملة ويقيدون أنفسهم بقيودها. ألا فاعلم أن مصدر الشرور أن لا تكون للنفس حرية النمو والنضج والنشوء.

وبعد أن كحل ميخائيل عينيه بجمال الطبيعة استطرد قائلاً:

- الحياة حافلة بالرعب والإرهاب. إن الحقد المتبادل يلتهم قوى النفس البشرية والحياة لا قالب لها فلترك للأطفال الوقت اللازم لينمو أحراراً بدلاً من أن يتحولوا إلى حيوانات تجر الأثقال. فلا تلبث حياتهم الداخلية والخارجية أن تستضيء بنور اللهب المتصاعد من نفوسهم الفتية الجريئة الحرة.

كنت كيف ألتفت رأيت أمامي رؤوساً شقراء وعيوناً زرقاء ووجوهاً زهراء ووروداً حية توشي بساط الطبيعة السندسي، تأملت هذه المشاهد الفتانة فقلت في نفسي:

أمن الصواب أن يتشوّه هذا الجمال ويدوسه الجشع بأقدامه الثقيلة؟ أمن العدالة أن تهدم يد الطمع هيكل الحياة؟ وماذا يعني هذا؟ يلد الطفل ويربى بين الملاهي والمسليات حتى إذا نما وصار رجلاً جمل اللعنة في فمه والألم في صدره والشراسة في خلقه، فلا يستكف من ضرب امرأته. ولا يأنف من التمرغ في حمأة الرذيلة محاولاً سلوان أحزانه وآلامه بما يفرغه في جوفه من المسكرات.

وكان ميخائيل أدرك ما يجول في خاطري وتردده نفسي فأردف قائلاً:

- إنما الشعب هيكل الله الحي. هو هيكل الألوهة الحقيقي الوحيد، فالذين يقوضون دعائمه وينقضونه لا يلبثون أن يسقطوا تحت جدرانهم فتهشمهم وتسحقهم، حتى إذا عادوا إلى رشدهم وأنعموا النظر في عملهم السيئ، غلب عليهم الخوف والذعر فصرخوا يائسين: «أين هو الله؟».

وقد نسي هؤلاء الهدامون الأشرار أنهم هم أنفسهم قتلوا الله! فذكرت آنئذ ما قاله لي يونا عن سقوط الشعب الروسي في عهد الانحطاط، وطارأت أفكاري مسرعة فرحة لاستقبال كلمات ميخائيل. بيد أن محدثي كان يتكلم بطمأنينة وسكينة، عجباً ألا يثور ثائره فيغضب للشعب المظلوم المقهور الذي يعاني مرارة الحياة؟

كان النسيم يداعب الأزاهير والرياحين فيحمل شذاها في الفضاء وينشر رياها في الخلاء فينعش النفوس بأريجها. وكانت العصفير تزقزق مبهتجة مغتبطة متنقلة بين الأشجار طوراً عاكفة على نقد الحبوب تارة. أما الصغار فكانوا يلعبون ويمرحون وقد أكسبهم الهواء النقي الطلق صحة ونشاطاً وقوة وجمالاً.

إني لم أدرك قبل اليوم ما في الطفولة من الجمال الساذج والقوة الصامتة.

وعيت ما أفضى به ميخائيل فملت إلى العزلة وقلت له مبتسمًا:

- سأترك ساعة ثم أعود، إن في نفسي حاجة إلى التأملات.

فرمقني بعطف وحنان وتجلت في حركات وجهه معاني الصداقة وأنا الذي قلما حظيت بصديق حقيقي. فلم أستطع إخفاء ما يخالجني من الجذل وقلت كأني أشكر له شعوره الطيب:

- إنك رجل عظيم يا ميخائيل!

فخفض بصره حياء وتواضعًا ثم غادرته إلى الغابة، فانتحيت مكانًا قصيًا جلست فيه وأرخت لأفكاري العنان. أردت أن أجمع في روعي كل ما أعرفه وكل ما سمعته في الأيام الأخيرة فرأيتني كأني محاط بقوس قزح، وشعرت أن روعي كبرت وعظمت إلى ما لا نهاية له، وبعد قليل أحسست كأني غارق في لجج الأفكار والتأملات ولولا القليل لنسيت نفسي.

وفي الأصيل رجعت وقلت لميخائيل إنني أرغب أن أعيش معه ومع عمه إلى أن آخذ عنهما عقائدهما وآراءهما، وإنني أريد أيضًا أن يُسهل لي عمه العمل في المصنع، فلم يلبث أن أجابني:

- وعلام السرعة، استرح وطالع أولًا فأنت لا تستغنى عن قراءة الكتب.

- إنني لم أقرأ كتبًا علمانية قط فاعطني ما لا أستغنى عن مطالعته كتاريخ روسيا مثلاً. فأدار لحظه في الكتب وألقى عليها نظرات العطف

والحنان كأنها أولاده أو قطعة من كبده وأجاب: على الرجل أن يطلب العلم والمعرفة ويطالع كل ما تصل إليه يده من الكتب.

عكفت على المطالعة فقضيت أيامًا كثيرة بقراءة الكتب، ولكنني كنت دائم القلق والاضطراب، فليس بوسعي أن أناقش الكتب وأجادلها وكيف نتناقش وهي تجهل وجودي. وطالعت ذات مرّة كتابًا أقلق نفسي وعذبها. موضوع الكتاب يدور حول تكوين العالم ونشوء الحياة البشرية، كل ما جاء في هذا الكتاب مناقض لرواية التوراة مخالف لتعاليم الدين.

أكبت على قراءته فلم تفتني شاردة أو واردة، وراجعته مستقصيًا متحرّيًا فرأيت كلماته بسيطة جلية معقولة، غير أن هذه البساطة نفسها أغرقتني في لجج التأمّلات فانتصب في ذاكرتي جيوش مؤلفة من قوات متفرقة كانت تتجاذبني وتتخاطفني فعدت إلى الكتاب مفتشًا عن حل يقضي على ترددي وحيرتي، ولكنني لم أفر بطائل ولما استعصى عليّ الأمر سألت ميخائيل أن يجلو لي غوامض النشوء قائلًا:

- كيف يمكن أن يكون الأمر هكذا؟ أين الإنسان في هذا الكتاب؟

فأجاب: يلوح لي أيضًا أن في هذا التعليم خطأ، ولكنني لا أعلم أين هو، أرى الفكرة جميلة مع هذا، ففي مسألة إنشاء العالم مجال واسع للنظر.

ما سألت ميخائيل مرة فأجاب لا أدري، أو لا أستطيع أن أقول، بل لبي سؤالي حاليًا وشرح لي آراءه. وهذا ما دلني على أنه غزير المعارف

أهل للإجلال والإكرام.

وكان إذا اعترف بجهله وهذا نادر، فلأن ما يعرفه في الموضوع مناقض لما يسمعه، لقد كان واسع الاطلاع فعلمني أشياء كثيرة كنت أجهلها وشرح لي بأسلوبه البسيط الشائق أمورًا عويصة.

وقف يومًا وألقى عليّ درسًا في مبادئ علم الفلك ووصف كيفية تكوين الشمس والنجوم والأرض، فخیل إليّ وهو ماضٍ في الشرح أنه رأى بعينه حدوث هذا العمل النوراني. وكنت أحاول أن أقف على رأيه في الله فلم أستطع، غير أن هذا لم يمنعني عن فهم ما يقوله. كان يؤكد أن المادة هي القوة الأساسية في العالم فكنت أضع الله محل المادة وهكذا أطبق أفكاره على أفكاري. المادة عنده بمقام الله عندي فإذا تغير الاسم فالمدلول باق.

وكثيرًا ما كانت تدور المجادلات بينه وبين عمه حول الله. فإذا لفظ مرة كلمة الله أهاب به عمه فرد عليه متهمًا قائلاً:

— ها قد عاد إلى الخبط والخلط لا تصدق ما يقوله يا ماتفي.

فلا يلبث ميخائيل أن يلفت نظر عمه إلى خطورة القضية في نظري فيقول:

— لا تنس يا عمي أن مسألة الله قضية جوهرية في نظر ماتفي.

فيتنهره عمه وينكر عليه هذه التعاليم ويأبى إلا التصريح الجازم القاطع قائلاً:

- لا تكذب يا ميخائيل! وأنت يا ماتفي لا تغتر بأقواله! أما الدين والكنيسة وسائر ما يتعلق بهما، فقد تحولت إلى ضرب من ضروب الاحتيال والغش والخداع باسم الله وتحت ستار التقوى والورع والوعظ والإرشاد.

فأخذ ميخائيل يشرح نظريته وقال:

- إن الله الذي أعنيه في كلامي وجد عندما اتفق البشر على ابتداعه بقوتهم الفكرية، وذلك لكي يضيئوا ظلمات الحياة. ولكن عندما انشطر الشعب إلى عبيد وسادة، عندما فقد إرادته وقوة تفكيره تحطم هذا الله ومات!

فلمعت أسارير عمه والتفت إليّ ضاحكاً وصرخ: أسمعت يا ماتفي! أسمعت؟

واستطرد ميخائيل فقال: إن أعظم جريمة ارتكبتها سادة الحياة هي في خنقهم قوة الشعب المبتدعة المبتكرة. ولكنه سيأتي يوم تتجه فيه حرية الشعب إلى نقطة واحدة كما اتجهت سابقاً، وعندئذٍ تنبثق قوة عظيمة لا تقهر فينبعث الله، وهذا الله سيكون الإله الذي تبحث عنه.

ولكن عمه لم يرتح إلى هذا التفسير ولا استحسّن الفكرة، فرفع ذراعيه مشدوهاً وقال: لا تصدقه يا ماتفي، لا تصدق ما يقوله.

وكان العمال يترددون إلى منزل ميخائيل ويصغون إلى ما يدور من الأحاديث والمجادلات فكان المعلم يحدثهم عن الحياة وينتقد

الشرائع والنظم، كان واسع الاطلاع متبحراً في الشؤون التشريعية التي كان يحللها تحليلاً جلياً وافياً.

وكان العمال وجلهم من الفتیان الأقوياء الذين لفحتهم نيران الأفران الحديدية يصغون إلى ما يلقيه عليهم ميخائيل من التعاليم والآراء، ويستعذبون خطبه وأقواله التي كان يصقل معانيها ويوشي حواشيها.

حسبت هؤلاء العمال لأول وهلة حزاني يغلب عليهم الحياء والخجل، غير أنني لم ألبث أن رأيتهم يميلون إلى الغناء والرقص ومغازلة الفتيات.

كانت الموضوعات التي يطرقها ميخائيل وعمه على مسمع العمال تدور حول نقطة واحدة، وهي سلطة المال وظلم العمال وجشع أصحاب المصانع وإلغاء الحواجز القائمة بين الطبقات.

أما أنا- ولم أكن عاملاً ولا صاحب عمل ولا غنياً أو باحثاً عن ثروة- فقلما اهتممت بهذه الموضوعات..

كان يلوح لي أن البشر يعقدون على رأس المال شأناً خطيراً فوق ما يستحقه، وذلك يتهاكون في سبيل الحصول عليه غير حافلين بما يرتكبونه من السفالة والصغارة في هذا السبيل. وفي ذات مرة دارت مناقشة شديدة بيني وبين ميخائيل.

كانت نظرتي في هذه المناقشة منطوية على أن الرجل يجب أن

يبحث أولاً عن وطنه الروحي، حتى إذا وجد ضالته، استطاع أن يرى المكان الذي يجب أن يحتله على الأرض وتمكن من الوصول إلى الحرية.

كانت المجادلة حامية فدافعت عن نظريتي بحماسة وصلابة وكان العمال ينصتون إلى ما يلقي في هذا الموضوع وهم سكوت كالقضاة الذين يسمعون حجج المتخاصمين، وقد سرّني أن العمال الأكبر سنّاً ذهبوا مذهبي ووافقوا على نظريتي.

ولكن ميخائيل كان يقرع الحجة بالحجة وبعدهما يفند أقوالي يذريها كما تذري الرياح النثر، فأستجمع قواي وآتيه ببراهين جديدة فلا يلبث أن يهدم كل ما بنيته، وعندما فرغت جعبتي علق على ما أبديته من الآراء قائلاً وفي قوله فصل الخطاب:

- أنت على حق يا ماتفي عندما تقول إن الرجل يعيش محاطاً بالأسرار التي يجهلها فلا يدرك كنهها وصفتها ولا يدري أمخاصمة هي أم موالية. ولكنك تخطئ إذ تؤكد أننا نستطيع أن نحطم نير الجشع بعد إذ قيدتنا سلاسل العمل اليومي الثقيلة، دون أن يطير في الهواء السجن الماديّ.

علينا أن نعرف أولاً قوة عدونا الأقرب ونزن طاقته وندرس مداوراته وأحاييله ونسبر غوره. ولإصابة هذا الهدف يجب علينا أن نتعارف تعارفاً وثيقاً، أن نعرف واحدنا الآخر كل المعرفة وأن نوحّد ما عندنا ونسبكه في قالب واحد، فهذا الاتحاد يأتي بقوتنا التي لا تقهر بل

التي تصنع العجائب.

إن العبيد لم يكن لهم إله قط، ذلك لأنهم ألهو الشرائع البشرية التي سنّها لهم ساداتهم. ولن يكون لهؤلاء العبيد إله؛ لأن الله لا يستطيع أن ينشأ قبل أن يشعر كل من البشر بقرابته الأدبية لمثيله. فتبادل الشعور بالنسب الأدبي بين البشر شرط جوهري للتفكير في الله.

لا يشيد الهيكل بالصلصال وبقايا الأبنية المتهدمة بل بالصخور الصلبة والجير. والرجل عضو من أعضاء المجتمع، فإذا انفصل عنه وانفرد، فما أمامه إلا التلاشي. الانفراد والعزلة دليل على عجز الروح وعمّه البصيرة، أما الوحدة والتماسك ففيهما الخلود.

من عاش منفردًا فما في عزلته إلا العبودية والظلمة والعجز والموت، وشتان بعد هذا ما العزلة والوحدة، ما التماسك والتفكك أو ما البعضية والكلية.

خُيل إليّ عندما كان ميخائيل يتكلم أن عينيه تريان عن البعد نورًا عظيمًا فما أحسست إلا وقد اجتذبتني إليه بسحر بيانه وجمال فكرته وصفاء خياله.

كانت أقوالي في بادئ الأمر تقابل بعدم الاكتراث، فكنت إذا شرحت أمرًا أو أبديت رأيًا، قابله الحضور بالسكوت غير حافلين بما أقوله خلافًا لأقوال ميخائيل، إذا كانت تحوم حولها أفكار الجميع فلا تفوتهم منها شاردة. فلا ألبث أن أنسل من بينهم حزينًا وأنتحي مكانًا خليًا فأحدث إلى نفسي.

ولكن العمال أنسوا بي بعدئذٍ وتمكنت بيني وبينهم صلات الولاء الناشئة عن المعاشرة، فصار لكلامي بعض الوزن والقيمة في عيونهم وقدره قدره، فكان لي في هذا أعظم تعزية.

وكانت الصداقة التي نشأت بيني وبين تلامذة المدرسة قوية. كنت أعجب بهؤلاء الصغار وأرتاح إلى الاختلاط بهم ومحادثتهم كلما سنحت لي فرصة. حتى إذا جاءت أيام الأعياد التفوا حولي وحول العم وأحاطوا بنا إحاطة الهالة بالقمر فكان يصنع لهم الألاعيب، وكنت أنا أقص عليهم ما رأيته في موسكو وكيف وسائر المدن فيصغون إليّ إصغاء شديداً ويذهلون عما حولهم.

وكثيراً ما كان هؤلاء الصغار يلقون عليّ أسئلة غريبة تدهشني كل الدهشة.

ففي ذات يوم بينما كنت ماضياً إلى الغابة برفقة فيديا ساتيهكوف وهو فتى رصين إذ سألتني عن يسوع فقصصت عليه ما حضرني، ولما أنهيت كلماتي أطرق مفكراً وقال:

لو أن المسيح ظل صغيراً فلم يكبر لأحسن صنعاً، لو أنه عاش عمره كله وهو في سنّ كسني هذه مثلاً لكان خيراً له إذ استطاع أن يحكم ويجازي الأغنياء ويغيث الفقراء وينشر تعاليمه دون أن يصاب بأذى ودون أن يصلب؛ لأن سنه تشفع به وتستمطر عليه الشفقة والرحمة ولكنه نشأ وكبر وصار رجلاً فقتلوه وكأنه لم يأت إلى العالم!

كان هذا الغلام في الحادية عشرة، صاحب الوجه شفاف البشرة

قلق النظرات.

وهناك غلام آخر اسمه مارك ليوف وهو من تلامذة الصف الأعلى.
وكان هزلاً ماكرًا لعبًا قاسيًا لا ينفك عن اضطهاد رفقاءه فيقرصهم
ويدفعهم ويدفرهم ويصدمهم راكضًا وهو عاكف على الصغير خداعًا
وتضليلًا، كأن لا شأن له بهم.

رأيت ذات يوم يقسو على أحد الصغار ويعذبه فبكى واستعبر، وبعد
ما أنقذته قلت له: ألا تخشى أن يكون أقوى منك فيؤدبك؟

فأجاب: إنه مسكين لا طاقة له أن يخاصم أحدًا.

فسألته: وعلام إذن تعذبه وتقسو عليه؟

— أنا أقسو عليه لأنه ضعيف لا يؤذي أحدًا!

— أتضربه إذن لأنه ضعيف؟

— وما عسى أن يكون شأن الضعفاء ولأي شيء خلقوا وهم لا
يستطيعون أن يمدوا يدهم إلى أحد بسوء؟

كان يخاطبني بحماسة كمن يدافع عن عقيدة راسخة. كان يعتقد
وهو في الثانية عشرة من عمره أن المخلوقات الضعيفة، المخلوقات
الصالحة التي لا تؤذي ولا تخاصم إنما جاءت إلى العالم ليضطهدها
الأقوياء.

كل من هؤلاء الطلبة الصغار كان بارعًا في فنه، فلذلك كنت
أعني كل العناية بدرس ذهنياتهم ومنازعتهم، وكنت كلما فكرت في

مستقبلهم شعرت بانقباض وقلت في نفسي رائيًا لهم: أتراهم يستحقون الحياة الشاقة الذليلة التي تنتظرهم؟

ولا ألبث بعدئذ أن أذكر كريستينا وابني الصغير الذي ما عرفته فتنتابني فكرة سيئة، فكرة شريرة تغمر روحي وأقول: أيها الرجال! لأنكم تخشون ولادة كائن فيه خطرٌ عليكم تمنعون المرأة عن حرية الولادة؟ أنعبثون بحرية المرأة لأنكم تخافون الابن الذي يلدده الحب الحر المطلق فلا تربطكم به رابطة شرعية؟

نعم هذا هو الواقع، إنكم تخافون الابن الذي لا أب له وتخشون أن ينمو ويتزعزع وهو بعيد عن إشرافكم ووصايتكم فيتحول إلى عدو دائم العداء.

إنكم لا تستطيعون أن تصنعوا به ما تصنعونه بأبنائكم الشرعيين الذين تستحلون لأنفسكم أن تجعلوهم عميًا عندما تلقنوهم فن المعيشة وأبواب الحياة...

آه واشوقي إلى ولدي، ماذا خبأ له المستقبل، وما عسى أن يكون شأنه؟



الفصل الثالث والعشرون

في طريق النضال والتحرير

مرت الأيام فأخذ ينمو فيَّ شعور جديد دغدغ نفسي فأيقظها من هجعتها على أنوار أفق يملأ العين جمالاً وجلالاً، فقد أحسست بعد معاشرتي للعمال كأن بذرة حية سقطت في روحي فنمت واجتذبتني شيئاً فشيئاً إلى الإنسانية.

كنت في هذا الوقت قد باشرت العمل في المصانع الحديدية بجعل يومي قدره أربعون كوبكاً، آه! ما أمرّ الحياة في هذا المصنع الجهنمي. كان شغلي شاقاً قاسياً فقد طالما جررت الأثقال وحملت الحديد وسحالته والآجر والرماد وسائر الأشياء، آه! ما أقسى الأيام التي قضيتها في هذا العمل المستوحل الذي لا تنقطع ضجته وصخبه!

أنشبت الأفران برائتها في جوف الأرض وخنقتها وكانت تمتص، بظماً لا يرتوي، دماء الأرض الملتهبة وتبتلعها في أحشائها النارية وهي لا تكاد تستطيع التنفس.

وكانت تنطفئ حيناً فتبدو سوداء جافة منقبضة ولكنها لا تلبس بعد قليل أن تدب فيها الحياة فتعود إلى عملها الخائق القاتل.

وكان العمال لا يبالون بصلصلة الحديد وضجيج المطارق وجعجعة الآلات والنيران المتأججة والشرارات المتساقطة والوحول المنتشرة والأقذار المتراكمة والحرارة المستنزفة للدماء، بل يشتغلون بطمأنينة وسكينة، مع أن الأخطار محدقة بهم من كل الجهات، يشتغلون ولا يخافون؛ لأن ثقتهم بأنفسهم أعمت عيونهم فكأنهم أبالسة اعتادوا الجحيم وألفوه فلا يكثرثون.

وقد صعب عليّ في بادئ الأمر أن أعرف أي العمال يفوق الآخر جرأة وبراعة ورشاقة وأيهم أشد جلدًا وأصبر على المكروه، فقد كانوا كلهم آلات صماء عمياء تحركهم يد النزاع في سبيل الحياة.

وكنت أشاهد بعض الأحيان رجلاً يرسل إلى المصانع وآلاتها وعمالها وما فيها نظرات الزهو والغطرسة، فيبتسم ابتسامة الظافر ويجر ذبول الخيلاء والته.

هذا الرجل إن هو إلا سيد المصانع التي أنشأها الجشع وسيد العمال الذين استعبدتهم الحياة. وكان العمال إذا حانت ساعة الكفاح قال واحدهم للآخر:

- هيا، لقد دنت ساعة العمل فهلم إلى المصنع.

ولكن أكانوا هم الذين يذهبون إلى العمل، أم كان العمل هو الذي

يناديهم.

وكانت ترتفع من حين إلى آخر أغان مطربة مرقصة تمتزج بجمعجة الآلات وضجج المطارق فكنت إذا سمعت هذه الأناشيد المفرحة ضحكت في داخلي، وذكرت أسطورة جوان نيغرد، وهو الرجل الذي امتطى حوتًا ليطارده به عقابًا في السماء!

مع هذا كله، كنت أعجب بخشونة العمال ورشاقتهم، كانوا أجرياء جفاة خشانًا وطورًا سكيرين، ولكنهم كانوا من ناحية أخرى أحرارًا مستقلين شجعانًا خلافًا للحجاج وزوار الأماكن المقدسة أو شبان المزارع والقرويين الذين غلب الحياء والجبن والحزن والسكونة المستترة بالمكر.

كان العمال على جانب عظيم من الإقدام يتهالون على العمل، وكثيرًا ما يتخاصمون ويتشاحنون ولكنهم متى رأوا أن رؤساءهم يحاولون أن يظلموهم أو يعذبوا بهم توحدت قلوبهم وثاروا على المستبدين متماسكين.

وكان لرفقاء ميخائيل الكلمة المسموعة النافذة بين سائر العمال فهم يتكلمون بجرأة غير هيايين. وكنت قبل أن أختلط بالشعب وأفكر فيه لا أميز رجلًا عن آخر، أما الآن فكنت أدرسهم وأراقبهم لأقف على الفروق القائمة بين الواحد والآخر، فأعطي كلًا منهم مكانه الخاص في روعي.

وها أنا أدنو شيئًا فشيئًا من النتيجة، فإذا كانت التعابير والوجوه

مختلفة متباينة فالعقائد والنزعات واحدة في كل شيء. لقد كانوا
يينون، كانوا يزرعون، كانت لهم محبة بعيدة، فساروا إليها بولاء
وإيمان ولكن على مهل.

كان أصدقاء ميخائيل على جانب عظيم من الرقة وحسن العشرة،
هم كالأنوار في وسط الظلمة والمصاييح الهادية في الغابة الكثيفة
التي يتوه فيها المسافر ويضل فما وقعت عينهم على رفيق ذكي لبيب
إلا اجتذبه إلى كتلتهم فأنشأوا في العمل مجتمعا روحيا تعرض فيه
الأفكار النورانية والآراء المشرقة. ما أسمى هذا المجمع الروحي وما
أعظم غايته التثقيفية، وما أضمن خدماته للعمال التائهين في ظلمة الحياة!
عندما دخلت المصنع للعمل نظر إليّ العمال شزرا فناصروني
العداء وسلقوني بالسستهم السليطة وانهالوا عليّ بالشتائم والإهانات
وأخذوا يتهددونني ويتوعدونني، ولكنني قابلتهم بالصبر وطول الأناة
ولم أفكر قط في مقابلة الشر بالشر.

وفي أحد الأيام كمن لي خمسة أو ستة وحاولوا الإيقاع بي
ليحملوني على الخروج من المعمل، وبعدما احتاطونني وقد كسروا
لي عن أنيابهم، إذ بشاب قوي البنية كريم الأخلاق وقف إلى جانبي
مدافعا عني.

يدعى هذا الشاب كوستيني وهو من أصحاب الكلمة النافذة بين
العمال.

سأه أن يعتدي عليّ الرفاق دون أن أجني ذنبا، فهب إلى نجدتي

وصرخ في العمال:

- علام تضطهدون هذا الرجل أيها الرفاق، أليس عاملاً مثلكم؟
إنكم ظالمون تسيئون بأنفسكم إلى أنفسكم دون أن تفقهوا، ألا تعلمون
أن قوتنا تقوم على ولائنا الأكيد واتحادنا الوثيق!

وما رنت كلماته في آذانهم حتى أمسكوا عني، وقد طأطأوا
رؤوسهم حياء وخجلاً وانصرفوا كالطفل وقد آتبه أبوه.

وكان أصدقاء ميخائيل يغتزمون كل ما يلوح لهم من الفرص لنشر
تعاليمهم ونزعاتهم بين العمال، أما خصومي فعادوا يجرون أذيال
الندامة والخيبة بعدما اتضح لهم أن لا معنى من اعتدائهم عليّ. وأنا
نفسي تأثرت بكلمات كوستيني، فلذلك لم ألبث أن وقفت خطيباً بين
العمال وشرحت لهم أمري فقلت:

- ما انتظمت في السلك الإكليريكي رغبة في العظمة أو حباً
للمجد، وإنما شعرت أن نفسي جائعة وروحي ظمأى فارتديت الثوب
الإكليريكي لأسد جوعي وأروي غلتي.

لقد ذقت الفاقة وغمرتني الأحزان وذرفت الدموع وقاسيت التعس
والبؤس، وشاهدت الشرور والمصائب على تعدد أشكالها، ورأيت
الشقاء باسطاً جناحيه فوق البشر.

رأيت هذا كله فأردت أن أعرف من هو الذي هباً هذا الوجود
وأداره. أحبيت أن أعرف أين هو إلهنا العادل الحكيم. أردت أن أبحث

عنه وأستقصي أخباره وأجلو أسرار حكمته وعدالته، ألا يرى بعينه ما
تعانيه مخلوقاته من العذاب الدائم وما تكابده من الشقاء المستمر؟

وما مضى إلا القليل حتى رأيتني محاطاً بعدد غفير من العمال الذين
أصغوا إلى كلماتي كل الإصغاء ووعوها، وقد أعجب أحدهم وهو
كهل اسمه كريوكوف بما ألقيته فقال لكوستيني: إن هذا الراهب ذو
نظر نافذ ورأي ثاقب، وهو إذا عالج الأمور أحاط بها من كل الجهات
ونظر فيها نظرة الحكيم الذي يستأصل الشر من أرومته.

فوقع هذا المديح في نفسي أجمل وقع، ثم إن كريوكوف مال إليّ
وقد أخذت منه الحماسة مأخذها فقال:

لا فض فوك أيها الأخ، ثابر على الخطابة وانشر أفكارك وبث
تعاليمك الصالحة وحارب الظلم والظلام، فقد رأيتك مصيباً في كل
ما قلته.

وكأنه شاء بعدئذ أن يداعيني فتابع قائلاً: ولكن لا تنس أن تقص
هذا الشعر الطويل المسترسل، احلقه فهو يحمل على الضحك فضلاً
عن أنه قبيح!

وقد أضحكت الحضور هذه المداعبة فالتفت حولي العمال
يمارحونني وقد رمقوني بعين الولاء والمحبة. وكنت أنتهز الفرص
فأخاطب العمال لأبث فيهم روحاً جديدة وشعوراً جديداً ونزعة جديدة.
وفي ذات يوم اختلى بي كوستيني وأسر إليّ قائلاً:

- إني أحذرك يا ماتفي من غوائل خطبك وتعاليمك. ألا تعلم أن الذين يطرقون الموضوعات التي طرقتها تلقي بهم السلطة في غياهب السجون؟ حذرًا يا ماتفي ولا تعرض نفسك للسجن.

فدهشت وسألته: ماذا تقول؟ وما هو الذنب الذي جنيته؟ ألا يحق لي أن أعبر عما أشعر به وعما أفكر فيه وعما أراه صالحًا لرفقائي، فأسدّد خطواتهم إلى سبيل الهدى والرشاد!

- كلاً، إن السلطة تحظر علينا حرية التفكير والشعور.

- أراك تمازحني يا كوستيني!

- إذا لم تصدق فسل ميوهايلو فعنده الخبر اليقين.

ثم انصرف وتركني مشدوهاً حائرًا مضطرباً.

لم أرد أن أصدق ما قاله، ولكنني عندما قابلت ميوهايلو مساءً، وقص عليّ ما يلاقيه المصلحون من الاضطهاد والتعذيب، وما يعانيه المفكرون من الظلم والاستبداد، زالت شكوكي وتجلت لي الحقيقة الرهيبة.

قضى ميوهايلو الليل كله يقص عليّ مظالم الحكومة وانتقامها الفظيع من رسل الحرية والنور. ألوف من الناس ماتوا في أعماق السجون ومجاهل سيبيريا. ألوف من الناس لاقوا حتفهم تحت سياط الجنود أو برصاص البندقيات أو بين أنياب البرد والثلج، دون أن يجنوا ذنباً أو يرتكبوا وزراً، سوى جهرهم بالحق لأن الدفاع عن الحق في

عرف الحكومة جنانية لا تغتفر.

ولكن هؤلاء الشجعان الذين رذلوا الظلم ودولته والاستبداد
ورجاله كانوا يزدادون يومًا فيومًا غير حافلين بما كابده رفاقاؤهم في
ظلمات السجون ومهالك سيبيريا وبما ينتظرهم من العقاب القاسي.
وما لفظ ميوهايلو عبارته الأخيرة حتى اغتبطت نفسي وغمرتها
أنوار جديدة.

لقد أدركت الآن معنى الخطب التي ألقاها ميخائيل ورفقاؤه وفقهت
ما تنطوي عليه، وحللت رموزها وإشاراتها. لقد كانوا مخلصين كل
الإخلاص في كلماتهم. إن الذين يعرضون أنفسهم للهلاك في سبيل
الحرية والحق هم شجعان مخلصون أنقياء، بل ما أشبههم بالشهداء
القدماء الذين ماتوا لأجل يسوع.

فهل أقف موقف الجبان الرعديد فأسكت على الظلم والظالمين.
أأرضى لنفسي ما لا يرضاه لنفسه بطل الحرية والنور، ما أجمل
التضحية في سبيل الحق العام، وما أعظم الاستشهاد في سبيل الحياة
الحرّة التي تبعث شعبًا ميتًا.

خُيل إليّ بعد أن وعيت كلمات ميوهايلو أن الأرض ليست إلا بيت
لحم صبغتها يد الظلم بنجيع أبنائها. وأدركت آتئذ شدة رغبة العذراء
في العذاب أمام مرأى الجحيم، إذ طلبت من رئيس الملائكة ميخائيل
أن يدعها لتعذب نفسها في تلك النيران المتأججة. أيستهويها العذاب

في الحطمة وهي العذراء الضعيفة ولا يستهوي الرجال الأقوياء! كلا،
حبذا العذاب والنار.

أنا أيضًا أحب أن أجتاز الجحيم وألهب نفسي بجمراته المستعرة.
لم يكن الذين رأيتهم من الخطاة، بل رجال عدل وحق يريدون
أن يحطموا الجحيم الأرضي متأهبين غير هيابين ليدوقوا كل أشكال
الآلم والعذاب، مؤثرين الموت في سبيل الحرية على حياة ملؤها الظلم
والظلام.

وفي ذات مرة سألت ميخائيل: أقضي على القديسين النساك لأن
الإنسان التصق بأخيه الإنسان ولزمه بدلاً من أن يعتزله ويتنحاه، فلم
يظهر أحد منهم في هذا العصر؟

فأجابني: إن الإيمان الحقيقي هو معين العمل في كل العصور.

فسألته: كرسني إذا للعمل وافتح أمامي باب الإيمان.

فرد عليّ قائلاً: كلاً، لم تحن ساعتك بعد. انتظر وفكر. إذا وقعت
الآن في فخاخ العدو، فلا يسهل عليك أن تنجو منها وهذه طباعك
وأخلاقك، بل تمكث سجيناً مدة طويلة بلا جدوى. وعليه خير لك أن
تنصرف عنا بعدما ألقيت تلك الخطب المثيرة لغضب السلطة.

غادر المصانع قبل أن تصاب بأذى ودون أن يجني أحد فائدة من
تضحيتك. إن أمامك مشاكل كثيرة للدرس والحل. ولست طليقاً مدرّباً
لتشارك في عملنا الذي يغويك جلاله ويستهويك جماله.

وكأنني بك قد وقفت أمام سهل يُبنى فيه هيكل فخم متسع جليل
حيث تقوم أعمال البناء بسكينة وهدوء على طريقة واحدة منظمة،
فإذا شممت عن ساعدك الآن قبل أن تعرف الخطة الهندسية والفكرة
المولدة وتدرس التفاصيل، فلا تلبث خطوط الهيكل ورسومه أن تمحي
من عينيك، والرؤيا، وهي لم تنقش بعد في روحك، تتلاشى وتضمحل،
فيبدو لك العمل فوق طاقتك.

فسألته: علام تطفئ جذوة حماسي بماء التزهيد؟ لقد لقيت مكاناً
في الحياة فما أسعدني إذ أراني نافعاً.

- إنني أعدك غير كفاء لتعيش وفقاً لفكرة لم تنجل لك، فنفسك
لم تدرك معنى الصلة الروحية التي تربطها بنفس العمال، إنما أنت على
ما يلوح لي دماغ شعبي أرهقته الندامة الدينية فدفعته الحياة إلى الأمام،
وخيل إليك أنك بطل مقدم متأهب لتعطي الضعفاء صدقة قوتك غير
النافعة، وإنك شيء ممتاز في حين أنك لست إلا البداية وإلا النهاية، لا
تتمه سرمدٍ جليل جميل. عليك أن تمضي في الطريق الذي قدمت منه
لترى حياة الشعب بعين جديدة، لتلقي عليها غير نظراتك السالفة.

إن القراءة لا تجديك نفعاً ولا تروي ظمأك، إنك لا تحب أن تعتقد
أن الكتب تحوي العقل البشري، بل تعبر باختلاف لا حد له نزعات
الروح الأهلية إلى الحرية. لا يسعى الكتاب أن يسيطر عليك، وإنما
يقدم لك سلاحاً لم تعرف أن تستخدمه للدفاع عن نفسك.

وقد أصاب في ما قاله: فإني كنت غريباً عن مطالعة الكتب إذ

تعودت أن أطلع المؤلفات الدينية، لذلك كان يصعب عليّ أن أفهم المؤلفات العلمانية.

فالآراء التي كنت أقتبسها من هذه الكتب لا تكاد تعلق بروحي فلا يمضي القليل حتى تتلاشى وتمحى.

وفضلاً عن هذا كله، فهذه المؤلفات لم تستطع أن تجيبني عن سؤال الرئيسى وهو: ما هي الشريعة التي وضعها الله في أحكامه؟ ولماذا، بعدما خلق الإنسان على صورته ومثاله خفض قدره وخط من شأنه مخالفاً إرادة مخلوقاته؟

فما هي إذن إرادة الله وما الذي نستنتج من أعماله؟

وهناك سؤال آخر كان يراودني دائماً ويقلق روحي وهو لا يعاكس السؤال الأول. كنت أتساءل قائلاً:

كان يتنازعني آنئذ عاملان، كنت أحب أن أبقي إلى جانب ميخائيل أدرس عليه وأستقي من ينبوعه الصافي، كما كنت في الوقت نفسه أميل إلى الانصراف لأدرس تأثير أفكارى الجديدة وأفتش عن «المجهول» الذي غل حريتي بقيوده وأثار قلقي الروحي. وكان العم يحثني على السفر قائلاً:

- ينبغي أن تغرب عن هذا المكان إلى حين يا ماتفي. لقد انتشرت أخبار خطبك وتناقلتها الأفواه وفي هذا خطر عليك.

وبعد قليل انحلت المشكلة دون أن يكون لي رأي في إحدى الليالي

قدم من مصنع مجاور رجل ممتطيًا جوادًا ليحذر العمال أن الشرطة
كبست المصنع وأنها تنوي أن تأتي إلى مصانعنا. فاستاء ميخائيل إذ
وقف على الخبر وتمنى لو أن الشرطة أخرت زيارتها غير المرغوبة
شهرًا أو شهرين إذ يتسنى لي أن أدرس وأطالع.

وانتشر القلق في البيت وأجمع الحضور على وجوب سفري حالًا،
وكان العم يصرخ بي قائلاً: اذهب يا ماتفي، اغرب عنا فلم يبق لك ما
تصنعه عندنا.

ونصح لي ميخائيل أن أسافر وقال: الأفضل أن تنصرف، إن بقاءك
بيننا لا يفيدنا بل يأتي بنتائج سيئة.

فأدركت أنه لا بد لي من السفر ولكن ساءني أن أنصرف على هذه
الصورة، وفي الوقت نفسه دب الوهن في قلبي وخشيت الشرطة. إنها
لم تصل بعد، مع هذا كنت أرتعد فرقًا. لقد علمتني المروءة أن التخلي
عن الرفاق في ساعة الخطر منتهى الجبن، ولكن ماذا أصنع وقد أبوا إلا
أن أفارقهم وأنصرف عنهم.

ما أنبل شعور هؤلاء الرفاق! لقد اختاروا أن يعرضوا أنفسهم لشرّ
الشرطة وينقذوني، فآلحوا عليّ بالسفر.

الفصل الرابع والعشرون

الشعور بالخوف، لا تكن جباناً...

توقلت في الجبل متجهاً إلى الغابة وأنا أسير بين النباتات المرتفعة وأغصان الأشجار وكان يسير ورائي غلام اسمه إيفان فيكوف، وقد أرسلوه ليخبيء في الغابة مجموعة من الكتب. وما زلنا نجد السير حتى وصلنا إلى الغابة، فاختار الغلام مكاناً مناسباً متفقاً عليه، وبعدما حفر التراب دفن مجموعة الكتب، فارتاحت نفسه واطمأنت كأنه ألقى عبئاً ثقيلاً عن عاتقه، أما أنا فكان القلق يساورني والهلع يتتابني فترتعد فرائصي. بيد أنني كنت أتجلد فأسترد رباطة جأشي شيئاً فشيئاً، وبعد أن قام بمهمته سألته:

- أتراهم لا يأتون هذا المكان؟

فأجاب: من يعلم، إن الشرطة ترصد خطوات العمال وتتعبهم وتحصي عليهم أنفاسهم، والآن هيا بنا نمضي مسرعين.

كان هذا الغلام قوي البنية كأنه جذع سديانة، كبير الهامة عريض المنكبين طويل الذراعين أجش الصوت، وبعدما تأملته ملياً سألته:

- ألا تخاف أن تأتي الشرطة وتلقي عليك القبض؟

- لا يهمني أن يقبضوا عليّ بقدر ما يهمني أن يبقى ما خبأته مدفوناً.

وبعد أن أخفى أثر الحفرة التي طمر فيها الكتب وغطاها بالأغصان جلس وقال لي:

- انتظر قليلاً، فسيرسلون إليك رقعة مكتوبة.

رفعت بصري فترأى لي أن في شوارع المدن وفي وسط الظلام رجالاً يضطهدون رجالاً وقد امتلأت قلوبهم بالأحقاد فسحق الواحد عظام الآخر.

وبعد قليل تهيأ إيفان للانصراف وأخذ يمشي على مهل فسألته:

- إلى أين أنت ذاهب؟ ماذا تصنع إذا قبضت عليك الشرطة؟

- إني حديث العهد في هذه الأمور والشرطة لا تشتبه بي، وعلى كل إذا وقعت في قبضة الجنود فالمصيبة هينة. فالسجن يعلم ويثقف.

وبغته خيل إليّ أنني أسمع صوتاً ندياً جلياً يسألني قائلاً:

- كيف تخشى شر الشرطة يا ماتفي وأنت لا تخاف الله؟

فأرهفت أذني ورفعت بصري إلى إيفان وكان جامداً ساكناً يتأمل الوادي فسألته: ماذا قلت، ماذا قلت؟

فأجاب: قلت إن السجن يعلم ويثقف وأن السجين يطالع الكتب أيضًا.

- ولكن الكتب التي تطالعها تختلف عن التي خبأتها.

- لا بأس، فالمطالعة مفيدة دائمًا.

وانتبهت إلى نفسي فأدركت أن الصوت الذي رنَّ في أذني مؤنبًا إنما كان صادرًا عن ضميري. لقد كانت مخبئة في روعي أكذوبة، ومن هذه الأكذوبة كانت تتساقط عليَّ كالشرارات أسئلة شائنة.

ولما رأيت إيفان مصرًا على الانصراف قلت له: إنني سأذهب معك. فأجابني: كلاً، أنت لا تستطيع العودة معي، ولا شك أنهم يعتقلونك حالاً لأن خطبك التي ألقيتها على العمال هي التي حملت الشرطة على كبس المصانع.

فسألته مستغرباً: وكيف هذا؟

فأجاب: إن كاهن المصانع وشى بك إلى شرطة فيرخوتسورين.

فاغتممت وتأثرت وقلت له: إذاً يجب أن أهرب حالاً.

ولكن الذعر شل قدمي فلم أستطع أن أحرکہما.

كان الوقت ليلاً والقمر يحتجب طورًا وراء الغيوم ثم يسفر عن وجهه المشرق، وكان الوادي أمامي كتلك الحيوانات الخرافية الهائلة فاغراً فاه لابتلاع فرائسه.

جمدت في مكاني فلم أترشح، وفيما كنت أفكر في أمري إذ

برز بين الأغصان رأس عرفه إيفان فلم يلبث أن صفر وقال لي: هو ذا كوستيا قادم إلينا.

وكان هذا فتى في الخامسة عشر من عمره أزرق العينين أشقر الشعر رقيق البنية تخرّج على ميخائيل وأنهى دروسه منذ سنتين، ثم أخذ يدرس الشرع.

وما إن رأي كوستيا حتى دنا مني وصرخ قائلاً: لقد وصلت الشرطة إلى المصانع وأخذت تبحث عنك لاعتقالك. هي ذي رقعة أعطاها العم لأسلمها إليك، وقد أمرني أن أرفقك إلى صومعة لوبانوف فتعال واتبعني.

فنهضت وقلت لإيفان: الوداع أيها الأخ، احمل سلامي إلى الرفاق وسلهم أن يصفحوا عني ويسامحوني.

فدفعني كوستيا وخاطبني بلهجة الأمر ذي السلطان قائلاً:

- هيا بنا نسري فما معنى هذه التحيات التي أرسلتها؟ ولمن أرسلتها؟ ألا تدري أن جماعتنا ستعتقلها الشرطة وتزج بها في غياهب السجن؟

فحزنت ومشيت مطأطأ الرأس وكان كوستيا قد تقدمني، وبعدما سرينا قليلاً، أخذ يقص عليّ بصوت منخفض ما جرى في المصانع بعد خروجي.

وكنت أمشي وراءه مصغيّاً إلى كلماته فما إن أتى على الحادث

حتى خيل إليّ أن الأيدي تمتد إلى جبتي من كل الجهات وتشدها أو تهزني هزًّا عنيفًا كأنها تسألني:

- إلى أين تذهب؟ إن أولئك العمال المساكين وقعوا تحت طائلة القصاص بسببك وأنت تتخلى عنهم وتركهم؟
فأخذت أناقش نفسي بصوت مرتفع قائلاً:

- إذًا أنا الذي جنيت على هؤلاء العمال فاعتقلتهم الشرطة بسببي؟
بيد أن رفيقي قاطعني وقال: كلاً، أنت لم تجنِ عليهم وهم لم يسجنوا بسببك أنت، وإنما سجنوا بسبب الحق، دفاعاً عن الحقيقة، فمن أنت؟ أأنت الحق؟ أأنت الحقيقة! أنت لا شأن لك...

كان كوستيا كالصعلوك مع هذا ازدراني وتهكم عليّ. فأردت أن أجلو له ما غمض عليه من أمري وشرعت أفرغ أفكاري فقلت:

- لقد عشت في ظلام الضلال والكذب....

فقاطعني كوستيا وردد كلماتي كأنه ضميري يردد صدى نفسي وقال:

- نعم، أنت تعيش في الضلال والكذب، إنك لا تفتأ عن التبجح،
إنني لا أحبك أيها الراهب. أنت أجنبي...
- وكيف ذلك؟

- أروسي أنت حقيقة؟ أروسي أنت تشعر شعور الروسيين وتحس حسهم.

لو وجهت إليّ هذه العبارات في ساحة أخرى لانزعجت وتأثرت،
ولكنني سكتُ سكوت العاجز، سكوت المعترف بضعفه، سكوت
الحي الميت.

كانت الغابة والظلمة تحدقان بنا. أرخى الليل ذيوله الكثيفة ونشر
أجنحته السوداء فظلللت الأرض، وعدنا لا نميز أغصان الشجرة.
وكانت أشعة القمر تطرد الظلمة فلا نكاد نبين ما حولنا حتى ينحجب
وجه القمر وتنحجب معه أنواره الهادئة.

كان رفيقي فتى جريئاً لا يخشى في الحق لومة لائم، يرسل أقواله
التي تعبر عن شعوره وحسه دون أن يكثرث. رائده الحقيقة لا سواها،
فهو إذن كأولئك الرفاق الذين تركتهم يجهرون بالحقيقة دون خوف
والذين يؤثرون الحقيقة هم الأباة الأجرء ذوو النفوس الكبيرة.

كان كوستيا يسري أمامي فيحجبه الظلام فلا أرى إلا رأسه
الأشهب، ويبدو شعره الأشقر اللامع كأنه أسلاك ذهبية. تبعته وأنا مرخٍ
لأفكاري العنان فذكرت القديس برثلماوس وذكرت يسوع ابن الله
وسواهما ثم ملت إلى رفيقي وسألته:

- أطلعت تواريخ القديسين وقرأت أعمالهم؟

- قرأت سير القديسين يوم كنت صغيراً؛ لأن أُمي هكذا أرادت،
ولكن ما معنى سؤالك؟

- أريد أن أسألك، أتحب القديسين خدمة الله؟

- لا أدري، حقًا لا أدري، يعجبني بونتاليمون، وكذلك جاورجيوس
القديس الذي قتل التنين. بيد أنني لا أدرك ما الذي كسبه العالم بهؤلاء
الرجال الذين ارتفعوا إلى مصاف القديسين.

لقد استشهدت في سبيل الإيمان يسوع كثيرات من بنات الملوك
والأغنياء تحملن العذاب والآلام، وآثرن الموت مؤمنات على الحياة
وثنيات أو جاحدات.

ولكن الملوك والأغنياء آباءهن لم يتقوم أودهم ولا صلح أمرهم،
راجعت سير القديسين فما عثرت فيها على ملك أو إمبراطور يقوم
اعوجاجه فسلك سُبُل الهدى.

ثم مضى في حديثه وقال: ولا أعلم أيضًا لماذا تألم يسوع، أجم
ليقضي على الشر ويبيده؟ ولكن ماذا كانت نتيجة آلامه وصلبه؟ لا
شيء... لقد ذهبت آلامه أدراج الرياح، ولم يجن العالم منها فائدة.

كنت أحدث نفسي بمقاطعة كوستيا والرد عليه ولكني سكت. لقد
كنت أشفق على كوستيا، وعلى يسوع وعلى كل الرفاق الذين غادرتهم
وعلى الإنسانية كلها وعلى نفسي أنا أيضًا. ما هو مقامي في هذا العالم،
وإلى أين أنا ذاهب؟

سرينا وسرينا إلى أن تصرمت أنفاس الليل فتقهقرت جيوش
الظلام أمام أشعة الشمس فقلت لرفيقي: ألم تتعب يا كوستيا؟
فأجابني هذا الفتى المقدام الجريء بابتسامة هزؤ وقال:

- ما أجمل الإسرائ، يخيّل إليّ وأنا أسري في الظلام البهيم أني
بطل من أبطال القصص التي تستهويني مغازيها ومراميها. إني مغرم
بالقصص.

وما كاد يذر قرن الشمس حتى استلقينا على الأرض فاستسلم
كوستيا لسلطان الكرى ونام نومًا عميقًا، أما أنا فلم يغمض لي جفن إذ
كانت حالتي كحالة ذلك التتري البائس الذي كان يطوف حول الكنيسة
في ليالي الشتاء.

كان البرد قارسًا والرياح تهب بشدة منذرة بعاصفة، والتتري يدور
حول الكنيسة دون أن يجسر على دخولها والالتجاء إليها لأن محمدًا
أبى عليه دخول هيكل مسيحي. كانت الكنيسة للتتري بمثابة صومعة
الناسك لي.

كانت الشرطة تتعقبني وتبحث عني لتعتقلني، وملجأى الأمين
صومعة الناسك، ولكنني لن أدخلها لأن نفسي تأبى عليّ أن أكون جبانًا.
وفي الصباح عندما أفاق كوستيا قلت له: اعذرني إذ إني حملتك
مشقة السير بلا جدوى. إني لا أريد الذهاب إلى صومعة الناسك.
لا أحب أن أحتبى.

فنظر إليّ غاضبًا وأجاب: كان بوسعك أن تعلمني سابقًا.

ثم أشاح بوجهه عني وأخذ يلاعب غصن الشجرة.
والآن وداعًا يا صاحبي.

فأجابني بفتور وجفاء: الوداع.

وما إن ابتعدت قليلاً حتى التفت إلى الوراء فرأيتَه جامداً في مكانه
يشيعني بنظراته، فلما شاهدني أرسل وداعي الأخير صرخ بصوت رقيق
مؤثر:

- الوداع... الوداع....!

فطابت نفسي آنئذٍ لأن تحيته الأخيرة كانت صادرة من قلبه لا من
فمه.



الفصل الخامس والعشرون

الشرارات الأولى - ها قد بدأت عملي الإنساني فألى النهاية!

قضيت أيامًا طويلاً طائفاً من مكان إلى آخر، تائهاً هائماً على وجهي لا يقر لي قرار. كنت كالعليل الذي حمل في صدره من الهموم والغموم ما ينوء به.

وكانت أفكاري وقد اختلط عليها ظلي، تجري أمامي طوراً زاحفة زحفاً أو تتبعني كدخان خانق. أكنت ملطخاً بالعار؟ لا أدري، لا أذكر وكل ما أذكره وأعلمه أن فكرة مظلمة عمياء تولدت في دماغي وأخذت تطير حولي كالخفاش.

هؤلاء ليسوا مخلوقات الله، هم قساة طغاة.

وكانت التأثيرات الخارجية قلما تعلق بذهني ولا أتذكر ممن مررن بهم وصادفتهم أحداً فكأنني في حلم لا في يقظة. وفي ذات يوم رأيتني في قرية تقع بالقرب من لومسك فما أفقت من ذهولي الروحي إلا هناك.

اخترقت القرية إلى أن دخلت السوق فرأيت شيخاً أعمى جالساً على الأرض وهو يغني أنشودة رقيقة وكان دليله راکعاً حذاءه يرافقه في الغناء.

رفع الشيخ الأعمى وجهه إلى السماء، وقد انطفأ نور عينيه وغنى بملء صوته، أنشد ترنيمة ناجى فيها الأيام الغابرة ومزق حجب التاريخ ففض ختم الماضي وقال:

- كان في عهد القيصر إيفان باسيلوس.

وكان دليله يرجع اللحن فتقع النعمة وقعاً مؤثراً.

فجلست على الأرض بالقرب من الأعمى الذي مد يده مستعطياً ثم ردها فارغة دون أن ينقطع عن الغناء.

- كان يرماك بن تيموتيو...

وما مضى إلا القليل حتى التف حول الأعمى جمهور كبير أصغى إلى أغنيته متأثراً مفكراً. وكان البعض يصوبون إليّ نظرات الدهشة والفضول، غير أن أحدهم أشار إليّ وسأل رفيقه قائلاً: وهذا الرجل ألا يغني؟

فأجبت على الفور: انتظر قليلاً وأغني.

وقد ذكرت أنتِ تلك الأغاني الأهلية التي تتمثل فيها أعمال اللصوص وقطاع الطرق، ولكني كنت أجهل نصها والروح التي أوحى بنظمها. غير أنني في تلك اللحظة أدركت ما استعصى عليّ، إن ألوفاً من

أصوات الشعب القديم حدثني عن هذه الأغاني... «إني أصفح عنك يا رجل وأغفر لك ذنبك الذي ارتكبته نحوي إكرامًا لخدمتك الصغيرة التي أديتها لي...».

وكانت الأنظار تحوم حولي وتكاد تلتهمني فتلهب روحي.
وما أنهى الشيخ الأعمى أغنيته القصصية التاريخية حتى نهضت واقفًا وقد امتلأ صدري حماسة وقلت: أيها السادة، لقد وعيتم ما سمعتموه فاصغوا الآن إلى ما أقصه.

كان في غابر الزمان لص زنيم يسطو على الشعب وينهب منه ما جناه بعرق جبينه، وما زال هذا شأنه إلى أن استيقظ ضميره فأنبه وزجره. وقد أحب أن ينقذ روحه ويكفر عن آثامه باستخدام قواه لخير الشعب؛ فقام بكفارته ووفى بنذره وصفح عنه الشعب إكرامًا لما بذله في سبيله من الخدمات بعد توبته.

وأنتم اليوم تعيشون بين اللصوص وقطاع الطرق الذين ينهبون أموالكم ويستحلون أرزاقكم ويمتصون دماءكم، بدلًا من أن يساعدوكم ويعينوكم على متاعب الحياة، فقولوا لي بربكم ما هي فائدتكم من هؤلاء الأشرار، ما هي المنافع التي تجنونها ممن يسرقونكم وأنتم صاغرون؟

وما بدأت خطبتي حتى احتشدت أمامي جماهير غفيرة من الشعب الذي أقبل على سماع كلماتي. وقد تحمست أمام ما رأيته من الانتباه والإصغاء فكنت أرسل عباراتي بصوت رنان ولهجة قوية.

ثم اشتدت حماستي فتدفقت كالبحر الزاخر ونسيت ما يتهددني
من الأخطار، وكانت كلماتي تقع في آذان الجماهير فتكهربها فلا تلبث
أن تطالبني بالإفاضة والاسترسال، وترفع الأصوات قائلة:

تكلم... تكلم... قل الحقيقة كما تعرفها ولا تخيئ عنا شيئاً.

واتفق آنئذ أن مرّ أحد الشرطة، فاستغرب تجمهر الناس حولي
وأمرهم أن يتفرقوا ثم مال إليّ وسألني عن أوراق هويتي.

أما الجماهير فلم تلبث أن تفرقت كأنها غمامة صيف وانقضت.
وشاء أحد السامعين أن يدافع عني فرد على الشرطي قائلاً: كان
يتكلم عن الله وعطف آخر فقال: وعن القديسين والرسل.

وتلاه ثالث: إنه يعظ الشعب ويرشده.

وكان على الرصيف الآخر رجل من العمال يحدق إليّ ويتسم
لي ابتسامة عطف فتشجعت، ولما رأى الشرطي أنني لم أجبه إلى طلبه
أمسك بتلابيبي لئلا أهرب.

وكانت العيون شاخصة إليّ كأنها تقول: والآن ماذا تصنع وماذا
تقول؟

فلم أهرب ولا دب الخوف في قلبي بل دفعت الشرطي وتملصت
منه قائلاً:

- أتريد إذن أن تعرف ماذا كنت أقول؟ اسمع!

ثم شرعت أخطب في مظالم الحياة فنددت بالظلم والظالمين

وحملت على الذين حولوا هناء الحياة إلى شقاء.

وما فتحت فمي بالعبارات الأولى حتى تجمهر الناس أمامي وضاع
بينهم الشرطي فتشددت عزائمي وذكرت آئنذ كوستيا وكل رفاقي في
المصنع واستولى عليَّ سرور عظيم ولعبت بي سورة الغطرسه وشعرت
أنني قوي غير جبان ولا مमाذق وخيل إليَّ أنني في حلم.

وعندما رأى الشرطي أنه لا سبيل إلى الوصول إليَّ بين ذلك
الجمهور الغفير الذي وقف أمامي كالبناء المرصوص، أخذ يصفر
بشدة، فما هي إلا لحظة حتى اضطرب الجمع وتحرك وقد أحدق بي
حتى صرت في وسطه وحدة من وحداته.

ثم أمسكني أحدهم بساعدي وهمس في أذني قائلاً:

- اهرب، اهرب، يكفيك ما ألقيته من الخطب.

وأخذ الجمهور يدفعني وأنا أسير معه إلى أن رأيتني برفقة رجلين
في إحدى الساحات. وكان أحدهما شاباً في فجر الحياة والثاني ملتجئاً.
وما إن صرنا بمعزل عن الناس حتى أشار إلى حاجز وقال: اقفز
واهرب.

فخضعت وقفزت الحاجز ثم وثبت عن أحد الجدران إلى الأرض،
وكان في هربي على هذا الشكل ما يضحك ويفكه.

وكان ذو اللحية يحثني على الإسراع قائلاً: أسرع ولا تتوان، اهرب.

فسألته وأنا أمشي: ومن أنت؟

فأجابني: أنا من الرفاق، من الجماعة.

وكان الشاب يجري وراءنا وهو يلتفت ذات اليمين وذات الشمال، وبعد أن اجتزنا بعض البساتين انحدرنا إلى وادي ظليل لا يعكر سكينته سوى خريز ساقية تنساب في أسفله انسياب الثعبان، وقد اشتبكت حولها الأشجار وتعانقت فوقها الأغصان.

فاطمأن حينئذ خاطر رفيقيّ وتقدم الملتحي فمد يده مودعاً وبعد أن تأملني ملياً بنظرات تفيض عطفاً وغيره قال لي:

- خفرتك دون أن تستخفرنني، أما وقد بلغت بك مكاناً أميناً فيني أودعك وأسأل لك صحةً وسلامةً وهذا الشاب سيرافقك إلى أن تدرك المرحلة الأخيرة.

فالتفت إليه الشاب وحثه على الرجوع قائلاً:

- عد حالاً فإنهم قد يشتبهون بك إذا طالت غيبتك.

فعاد الملتحي أدراجه وتابعت السير أنا والشاب.

وما إن مشينا حتى سألت رفيقي: من هو هذا الرجل؟

- هو أحد المبعدين السياسيين.

- إنني أعرف كثيرين ممن نفتهم الحكومة بتهمة الجرائم السياسية.

كان رفيقي شاباً رشيق الحركة قليل الكلام كثير التفكير، إذا مشى أمال جسمه إلى الأمام حتى يخيل إلى من يراه أنه يرهف أذنيه ويصغي إلى حديث يسمعه.

وكان أفطس الأنف مطهم الوجه، أسود العينين، أجش الصوت.
وإذا سار شبك يديه وراء ظهره، فتذكرت حميَّ لأنه أَلَف هذه
العادة.

وبعد أن تأملته ملياً سألته: أمن سكان القرية أنت؟
- إني فلاح أحرث الأرض، وأنا أشتغل الآن في أراضي كاهن
القرية.

ولما كان حاسر الرأس سألته عن قبعته، فرفع يده إلى رأسه وحدق
إليَّ فأجاب:

- ولماذا تسألني عنها؟

فقلت له: إن الليل يكاد يدركنا فيشتد البرد.
فصمت ولكنه بعد قليل لم يلبث أن تمتم وقد طبع جوابه بطابع
فلسفي:

- إن نفقد قبعاتنا وتسلم رؤوسنا ذلك خير لنا!
كنا نسير على ضفة الساقية مرافقين مجرى الماء فتأنس النفس
بخبريره. وكان الليل قد بدأ يكسو الأرض بمعاطفه السود.
وراق لي أن أطارح رفيقي الحديث فسألته: أليس في القرية سوى
مبعد واحد؟

فأيقظه هذا السؤال من غفلته وأخذ يقص أخبار المبعدين
السياسيين فقال:

- عندنا أربعة مبعدين: الأول نبيل من موسكو والثلاثة الآخرون عمال من مقاطعة الدون. واثنان من هؤلاء المبعدين جحدا مبادئهما وكفرا بالحق العام، أما الآخران وهما النبيل وراتكوف الذي رافقنا فلا يزالان يشتغلان سرًا ويمهدان السبيل في بث الدعوة بين الأهالي.

أما المنفيون فكثيرون. لقد مضى عليّ في القرية خمس سنوات قدم في غضونهما أحد عشر منفيًا ثمانية من أوليكن وثلاثة من شيشكوف.

ثم أخذ يعد المنفيين المقيمين في القرية فإذا بهم يبلغون الستين.

وبعد أن سكت عطف قائلاً: وبين هؤلاء المنفيين عدد من الفلاحين وقد أجمعوا كلهم على ترديد عبارة واحدة وهي أن هذه الحياة لا قيمة لها فاقضوا علينا.

وكنت قبل أن أسمع هذه العبارة مطمئن البال قرير العين، أما الآن فقد تغير نظري في الحياة. ها أنا في سن الشباب، مع هذا أراني مضطراً أن أطأ طيء رأسي إلى الأرض. فما هي قيمة الحياة، أليس الأفضل أن نقضي عليها؟

وكان الشاب يجهد نفسه في الكلام حتى يترآى لمن يسمعه أنه يقتلع الكلمات اقتلاعاً من فمه.

ولاح لي أن أمضي في محادثته فسألته: أتحسن القراءة والكتابة؟

- كنت أحسنهما ولكنني نسيتهما، فعدت الآن إلى الدرس، إني محتاج إلى التثقف والعلم لأنهم يعينانا على فهم الحياة؟ ونحن الصغار

أشد الناس حاجة إلى الدرس والعلم. إن الأغنياء ينظرون في الحياة نظرة تختلف عن نظراتنا نحن العمال والفقراء، هم ينظرون إليها من كوى البحبوحة والرخاء والرفاهية، وشتان ما نحن وهم. فهل الحياة أفراح لقوم وأتراح لآخرين، أهي ابتسامة للأغنياء والنبلاء ودمعة للفقراء والعمال.

إني رجل ورجولتي تحمليني على اقتفاء آثار رفاقي العمال الذين أدركوا من معاني الحياة ما لم يدركه سواهم، ولا غنى لي بعد هذا عن الدرس والعلم.

كنت أصغي إلى كلماته وأنا أقول لنفسي: تعلم يا ماتفي تعلم واقتبس.

فأردت أن أغالطه لأسبر غوره وقلت له:

- وعلام الاهتمام بشؤون الحياة ما دام الله هو الذي يقضي بما يشاء؟

وما كادت ترن هذه العبارة في أذنه حتى وقف والتفت إليّ محملاً وأجاب وهو كالمشدوه:

- كيف؟ الله؟ إني لا أرى رأيك ولا أذهب مذهبك. كانوا يقولون: «لا سلطة إلا من الله» ولكن الأيام تغيرت فتغيرت معها الآيات. لكل عصر شريعة فما يوافق هذا العصر لا يوافق ذاك، والعالم يسير إلى الأمام شئنا أم أبينا، والويل لمن يقف. لقد عززوا آيات العصور

الماضية بالعجائب، ولكنهم في هذا العصر ينكرون الإيمان وينسون
أن هذا الإيمان هو الذي صنع العجيبة.

ثم سكت كأنه اكتفى بما قاله.

ولم أشأ أن أستزيده فسكت أيضًا وأخذت ألقى نظري على ما
يحيط بنا من جمال طبيعي فتان.

- إنني لا أحتمل المزاح والدعابة، ولي كل الحق. كان لي أخ جندي
فانتحر شائعًا نفسه، وكانت أختي تخدم في منزل للزراع، فولدت ابنًا
مشلول الساقين وها هو في الرابعة من عمره ولا يستطيع السير على
رجليه.

لقد انخدعت أختي بأحاييل أحدهم فسقطت وجنت على نفسها
وعلى ولدها، فماذا ترتجي هذه الشقية التاعسة؟

أما أبي فرجل سكير خمير لا يعي ولا يهتم بأمر، وأخي الأكبر
استولى عنوة على أراضينا كلها. وأنا لا أملك شيئًا، وكيف أدرت
لحظي أرى اليأس أمامي والشقاء محدقًا بي، فبم أتعزى؟

كنا نسير وسط الغابة وقد سترنا الظلام والأشجار عن العيون.
وكانت الطيور تأوي إلى وكناتها قبل أن يسدل الليل وشاحه الأسود
فوق الأرض.

وكان رفيقي يسير أمامي بخطى متثاقلة ولو استطعت لحثثته على
الإسراع، ولكنني تركته منصرفًا إلى أفكاره وهو اجسه.

وبعد سكوت دام بضع دقائق عاد يحدثني فقال:

- إن راتكوف رجل كريم الأخلاق نبيل الصفات، قصر همه على نجدة الضعيف طبقاً للشرعية الجديدة.

اعتدى عليّ ذات يوم أحد القوزاق وأشبعني ضرباً فما وقعت عينه عليّ حتى هجم على القوزاقي ورماه إلى الأرض، فكان نصيبه السجن خمسة عشر يوماً. وهذا جزاء الأريحية والنجدة في هذا العصر.

لم أكن أعرف راتكوف سابقاً ولكن بعد أن أطلق سراحه سألته: «كيف تجرؤ على مقاومة السلطة؟» فأخذ يشرح لي أفكاره وآراءه التي وقعت في نفسي موقعاً غريباً.

وفي اليوم التالي أطلعت الكاهن عليها فما كان منه إلا أن أجابني «لقد عرفت الآن إلى أين انصرفت أفكارك» والظاهر أنه وشى براتكوف للشرطة فزجته في السجن ثلاثة أشهر؛ لأنه أنار ظلمة روعي بتعاليمه الصالحة، ولم أسلم أنا أيضاً من القصاص فقد اعتقلتني السلطة وبقيت مسجوناً خمسة عشر يوماً...

وكانوا يسألونني بعدما قبضوا عليّ قائلين: ماذا قال لك راتكوف؟ ماذا علمك؟

فكنت أجيبهم أنه لم يعلمني شيئاً! وبعدها أطلقوا سراحه قلت له: - سامحني يا صاح فإنني غبي.

فضحك وأجابني: الأمر تافه سخيف فعلام تطلب الصفح؟ ثم

صمت رفيقي وتنهد وتابع حديثه:

- مهما تكن التضحية عظيمة فهي في نظر راتكوف سخيفة تافهة، فإذا سال دمه لم يعبأ، هذا أمر تافه. وإذا جاع ولم يلقَ ما يأكله لم يغضب. هذا شيء سخيف لا يستحق الاهتمام.

كان رفيقي يقص عليَّ حوادث راتكوف وهو هادئ رصين، ولكنه لم يلبث أن التفت إليَّ وصرف بأسنانه وقذف حمم غضبه وقال:

- إنني أعني أشياء كثيرة، انتحر أخي، والانتحار بين الجنود ليس أمرًا نادرًا وسقطت أختي في حبال الخداع، وسقوط الفتيات ليس نادرًا أيضًا، ولكن ما لا أستطيع أن أدركه وأفهمه هو اضطهادهم لراتكوف، لماذا يعذبونه؟ لماذا يحاولون أن يقضوا عليه ويقتلوه؟ إنني لا أعرف له جناية يستحق لأجلها هذا الاضطهاد الأعمى.

ألأنه يحنو على الضعيف وينجده؟ إنني أحب هذا الرجل وأطيعه طاعة عمياء، وأذهب إلى حيث يرسلني ولا أحتمل أن أراه مضطهدًا معذبًا.

وبعد أن سرنا قليلاً وقف رفيقي وقال:

- لقد انتهت مهمتي، فهو ذا الطريق الذي يجب أن تسلكه، فالوداع يا صديقي.

ثم أشار بيده إلى الطريق الذي يؤدي إلى أومسك، وبعد أن ودعني عاد أدراجه وقد شبك يديه وراء ظهره وطأطأ رأسه، وما ابتعد خطوات

حتى جلست على الأرض وكان الظلام حالكاً ووجه السماء مكفهر فلا
قمر ولا نجوم.

كانت الكلمات التي نطق بها رفيقي ترن في أذني، وما أشبه رنتها
بصوت ناقوس دفن في التراب مدة طويلة فتآكله الصدا. إن صوته
أجش ولكنه جديد لم تألفه مسامعي قبلاً.

ثم أخذت أستعيد في خاطري مشهد الجماهير التي احتشدت
أمامي لسماع خطبتي، وذكرت تلك الوجوه القلقة التي ارتاعت عندما
حاول الشرطي أن يعتقلني فجرفتنني في وسطها كالسيل وسهلت لي
أسباب الفرار.

كنت أستعيد إلى الذهن هذا المشهد فأكاد لا أصدق حواسي،
وأحاول أن أوهم نفسي أن ذلك المشهد لم يكن إلا خيالاً، ولكن كيف
أخدع نفسي وأنا أمام حقيقة راهنة؟

ثم فكرت في دليلي الشاب الذي أيقظته الحياة بإكليلها الشوكي
فقلت في نفسي: أليس هذا الشاب أعجوبة من أعاجيب الحياة؟ إن قلبه
يفيض محبة وحناناً مع أن الشقاء زرع فيه الحقد على الشر.

أولست تلك الجماهير التي أصغت إلى خطبتي بانتباه شديد
والتهمت كلماتي التهام الجائع للخبز أعجوبة من أعاجيب الحياة
أيضاً، فهي ليست بصماء ولا عمياء مع أن الظلم لم يترك وسيلة إلا
تذرع بها ليصمها ويعميها.

وهل من أعجوبة أعظم من عمل ميخائيل ورفاقه؟

ثم رجعت إلى نفسي وأخذت أجلو شعور قلبي وأكشف عما تغلغل فيه، فرأيت مليئًا بالغبطة والهناء، فتهلل وجهي جذلاً وجمدت في مكاني لثلا تفيض عن جوانبه بهجة لم أعرفها منذ سنوات، ولثلا تجفل غبطة حلت فيه قبل أن تأنس به ويأنس بها.

لقد كان يصعب عليّ أن أصدق نفسي، ها قد صرت رجلاً، ها قد بدأت الرجولة تخفق في قلبي، ها قد باشرت عملي الإنساني فإلى النهاية!

لقد استيقظت روحي على ألحان بلبل صداح يغرد تغريدة الفجر والحياة، فوددت لو أنني أمام جماهير لا تحصى أخطب فيها مرجعاً صدى أغنية البلبل الغريد.

وترآى لي وجه يونا ونظرات ميخائيل الوديدة الحنون، وسخرية كوستيا القاسية، هؤلاء كلهم تمثلتهم وقد حلوا في صدري ونزلوا فيه فأتسع بعد ضيقه وقوي بعد ضعف.

كان الظلام حالكاً ولكن وجوه هؤلاء الرفاق لمعت فيه، وكانت السكينة سائدة، ولكن قلبي لم ينقطع عن التغريد والغناء.

وبعد أن استرحت قليلاً وقفت ومضيت في طريقي وما زلت أسير من مكان إلى آخر وأطوف في ناحية وأنتهي إلى سواها، حتى ودّع الخريف الأرض وأقبل الشتاء وكنت في هذه المدة أجمع ما يتصدق

به العالم على روعي من العطايا والهبات الكريمة الجديدة.

ولما وصلت إلى محطة أومسك شاهدت جماعات من الفلاحين يتأهبون للسفر إلى سيبيريا فظفت حولهم أتنسم أخبارهم ولما عرفت أنهم ينوون الهجرة سألت بعضهم:

- ألا تخافون أن تهاجروا إلى مكان سحيق كسيبيريا؟

فأجابني كهل قوي البنية بقوله:

- إننا نتجشم مشاق السفر للحصول على أرض نحرثها ونعيش بجنائها، لقد ضاق بنا وطننا ولم يبق أمانا إلا الهجرة سعياً وراء الرزق. فاستحسننا أن أمضي في محادثة هذا الكهل النشط وقلت له:

- لقد مضت على الشعب قرون كثيرة وهو يتنقل من مكان إلى آخر باحثاً عن قطعة من الأرض يستطيع أن يعيش فيها على ما تقتضيه الأنفة والكرامة البشرية.

لقد مضت عليكم مئات من السنين وأنتم سادة الأرض وأصحابها الشرعيون تطوفون البلدان تائهين تضربون في طول الأرض وعرضها فلماذا؟ من هو الذي اغتصب أملاك الشعب وسلبه أراضيه وانتزع منه سيادته؟

من هو الذي خلع الشعب وحل محله؟

من هو الذي أسقطه عن عرش السلطة وجردّه من حقوقه الطبيعية وأخذ يضطهده ويتعقبه من بلد إلى بلد، وهو هو مبتكر كل الأعمال،

وهو هو البستاني العجيب الذي يرجع إليه كل الفضل في ما نراه من الجمال الذي لا يحد في هذا العالم الواسع؟

أتهجرون وطنكم إلى سيبيريا بعد أن ضاق في وجهكم، وأراضيه ملك لكم، لتبحثوا في المهجر السحيق عن قطعة من الأرض تحرثونها وتعيشون بغلالها؟

وقد كان لكلماتي صدى بعيد في نفوس هؤلاء المهاجرين الفلاحين، فلمعت في عيونهم روح البشرية المستيقظة، وارتسمت على وجوههم آية الحياة، وشعرت أن قلوبهم ارتوت بكلماتي، فانتعشت ودبت فيها الحياة. وأحسست هذه القلوب كلها اجتمعت بعدما جددت قواها واتحدت في قلب واحد.

إن من يقف في الشعب خطيباً ويضرب على وتر إنساني عام مشترك بين الجميع ويكشف عما اختبأ في أعماق الروح، ويهز الشعور الحقيقي الهاجع في ثنايا النفس بفعل الخمول الروحي منشأ الجهل والظلام، إن الخطيب الذي يقف هذا الموقف لا يلبث أن يرى في عيون الشعب قوة ذات أشعة تنفذ إليه وتسمو به إلى ما فوق الجمهور.

ألا لا يتوهمن هذا الخطيب ويحسبن أنه ارتفع بمطلق إرادته ومجرد بلاغته، كلاً، إن القوات المحيطة به هي التي سمت به، وما قوته إلا مستمدة من القوى المتصلة به في هذا الموقف الخطابي.

وعندما يتفرق الشعب يضمحل ذلك الجو المكهرب بالقوى العامة، فلا يلبث هذا الخطيب الذي تسامى أن يعود إلى محله الأول

ويصبح كسائر الناس.

وعلى هذه الصورة بدأت دعوتي الوديدة ودشنت حياتي الجديدة فوعظت وبشرت ودعوت إلى ديانة جديدة باسم حياة جديدة قبل أن أعرف إلهي الجديد.

وعندما وصلت إلى زلاتوست اغتنمت فرصة أحد الأعياد فوقفت خطيباً في الساحة العامة، فلم تلبث الشرطة أن تدخلت ولكن الجمهور سهل لي الفرار كما فعل معي في المرة السابقة.

وقد تعرفت آنئذ برفاق كثيرين نالوا إعجابي، منهم ياشا فلاديكين وهو من طلبة اللاهوت وقد أحببت هذا الشاب حباً جماً كما أحبني فتوثقت بينا عرى الصداقة.

لم يكن فلاديكين مؤمناً بالله، ولكنه كان يعبد الموسيقى الدينية، وقد طالما شنّف أذني بصوته الرخيم وألحانه الشجية التي تحرك الشعور وتثير كوامن النفس.

وفي ذات يوم قلت له مازحاً: أيها الكافر، أيها الجاحد علام تبكي؟ فأجابني: أبكي من شدة الفرح، أفكر في ضروب الجمال الرفيع التي سيبتدعها الفكر الإنساني فيغلب عليّ السرور وأبكي جذلاً.

إذا كانت قوة الجماعات على ضعفها وخوارها في هذه الحياة المضطربة القدرة استطاعت أن تبتدع ضروباً عظيمة من الجمال، فما قولك إذا اتحد العالم اتحاداً روحياً ونفض عنه غبار الوهن والقلق وما

لصق به من حمأة، ما قولك إذا شاء أن يعبر عن حماسة روحه بالألحان والموسيقى، ألا يبتكر أسمى ضروب الجمال والفن؟

وكان ينظر إلى المستقبل بعين العارف المدرك الذي لا يخفى عليه شيء، كان ينظر إليه من وراء زجاج الحاضر فيبدو أمام عينيه جلياً واضحاً لا التباس فيه ولا غموض، وقد طالما أذعرتة هذه الرؤى وطالما أدهشته. ولم تكن دهشتي بها أقل من دهشة نفسه.

إن لهذا الشاب فضلاً لا أنكره، لقد فتح عيني لنور الفن كما غذى روحي ميخائيل بتعاليمه وأقواله.

تعرفت برجال كثيرين مال إليهم قلبي وأعجبني فيهم جلاء آرائهم وصلاح مبادئهم وقوة إيمانهم بالحياة الجديدة، فكانوا يرسلونني من مدينة إلى أخرى حيث أتعرف بسائر الرفاق، فكأنني كنت أسير في طريق موسوم بالنار، نار العقيدة الراسخة الملتهبة في صدور الرفاق كلهم.

يستحيل عليّ أن أصف كلاً من هؤلاء الرجال، وأعبر عن السرور الذي كنت أشعر به، إذ أرى اتحادهم الروحي الوثيق.

روسيا كبيرة عظيمة، وجمال الحياة أسمى من أن يوصف بالكلمات والتعابير.



الفصل السادس والعشرون

ألوهية الشعب العجائبية المبدعة

في ولاية قازان انقشعت عن عيني الغشاوة الأخيرة، وأدركت ما كنت أبحث عنه ولقيت الأساس الذي أبني عليه بنايتي.

كنت أطوف المدن والقرى وأجوب البراري والقفار مفتشاً عن الحقيقة باحثاً عن الله، إلى أن عثرت عليهما في قازان.

لقد وجدت الضالة التي طالما نشدتها وأبت الأيام إلا أن تفض أمام عيني سر الدهور الرهيب ولغز البشر المستعصي الحل.

عندما وصلت إلى منسك سيموزيرنا شاهدت هناك عددًا لا يحصى من الشعب الذي كان ينتظر التطواف الديني «الزياح» الذي حملت فيه قصورة العذراء العجائبية من المدينة إلى مكانها في المنسك.

وقفت في أعلى الجبل فرأيت أمامي خلقاً لا يحصى كأنه موجة
سوداء قذفتها الرياح إلى أبواب الدير.

كانت أشعة شمس الخريف شديدة الاحمرار. وكانت الأجراس
تخفق خفقان الأطيّار وقد تأهبت للطيران بعد التغريد والغناء، وكانت
الرؤوس الحاسرة وقد لونتها الشمس بأشعتها، كأنها خشخاش كبير
مزروع في الطرقات.

وكان الجمهور الواقف أمام باب الدير يتوقع حدوث أعجوبة. فقد
استلقت في عربة صغيرة صبية شلّ المرض المزمن أعصابها فتمدت
جامدة، وقد طبع الألم وجهها بطابعه القاسي وتركه شاحباً تعلوه صفرة
كصفرة الموت.

لقد قاست هذه الفتاة أوجاعاً مبرحة وتقاذفتها يد الداء كما تتقاذف
الهرة كرة، ولما استعصى المرض وعجز الأطباء عن معالجتها جاء بها
أبوها إلى الدير مغتنماً فرصة الزياح، لعل العذراء تشفيها وترد إليها
صحتها.

كان أبوها رجلاً طويل القامة قوي البنية أصلع الرأس ذا لحية
وخطها الشيب وأنف كبير، وأمها امرأة بدينة ذات وجه مستدير.
وقف والداها حولها وهما ينتظران حدوث الأعجوبة، ويتوقعان أن
ترمق العذراء ابنتهما وتشفيها من مرضها.

وكان الشعب يقترب من المقعدة ويتأملها طويلاً راثياً لحالتها.

أما أبوها فكان يرسل صوتًا مؤثرًا مرتجفًا لشدة انفعاله النفساني ويقول بلهجة تفتت القلوب:

- أتوسل إليكم أيها المسيحيون الصالحون، أتوسل إليكم أن تصلوا لأجل ابنتي المسكينة، لقد مضت عليها أربع سنوات مقعدة طريحة الفراش لا تستطيع أن تحرك يديها أو رجليها.

أيها المسيحيون، صلّوا لأجل هذه الفتاة المريضة، واسألوا العذراء أن تخفف آلامها وتشفئها من دائها.

أيها المسيحيون الرحماء، ادعوا لهذه المقعدة بالشفاء، والله يجزل لكم الأجر والثواب ويضاعف الحسنات.

أيها المسيحيون، انظروا بعين الشفقة والرحمة إلى هذه المريضة المسجاة على سرير الألم، وشاركونا في الدعاء بإنقاذها من أياب الداء، صلوا لأجلها والله لا يضيع أجر المحسنين!

كان هذا الأب الرقيق الشعور قد حمل ابنته إلى أديار شتى دون أن يفوز بأمنية ويرى ابنته سليمة معافاة، ولما جاء بها إلى هذا الدير كان اليأس قد تطرق إلى قلبه، ولكنه مع هذا خدع نفسه على رجاء أن تجري أعجوبة وتبرأ فتاته. فلم ينفك عن ترديد توسلاته وتضرعاته ولا سكت له صوت. وكان الشعب يسمع نداء فتأخذه الشفقة ويتنهد وقد أرسل بصراً تائهاً في الفضاء.

لقد شاهدت في أسفاري أكثر من ثلاثين مريضاً بين مقعدين وذوي

قروح وعاهات... إلخ، فكنت أشعر لدى رؤيتهم بخجل، بل كانت
تشور نفسي وتأخذني عليهم شفقة، بيد أن هذه المقعدة أثارت شجوني
وحركت كوامن نفسي وشعرت نحوها بعطف شديد لم أعهد له مثيلاً
في المرات السالفة.

كنت أتأمل هذه الفتاة المستلقية في العربة فأحس أن قلبي يتفتت
شفقة عليها.

كانت مرارة الألم مرسومة بأجلى معانيها على وجهها الشاحب
النحيل العظمي، ماذا جنت هذه الفتاة؟ وماذا أتت من المنكرات حتى
عوقبت بالشقاء والتعس؟

وكانت أمها واقفة إلى جانبها وفي قلبها من اللوعة والحزن ما لا
يوصف. لقد كانت هذه الأم تعاني من الألم الروحي ما لا تعانيه الفتاة
من الألم الجسدي. فمن ذا الذي يستطيع أن يرى أمًّا تتعذب وتتألم
لأجل ابنتها ولا يفيض قلبه حزنًا وعاطفة؟

خرجت من وسط الجمهور وفي القلب غصة وفي العين دمعة،
وقد انطبع في فؤادي هذا المشهد المؤثر.

كانت أبصار الجماهير مصوبة إلى مكان بعيد كأنها ترقب وصول
«الزياح» فما مضى إلا القليل حتى سمعت صوتًا يقول: ها هي العذراء
قادمة!

فردّد الصوت مئات النظّارة وأخذوا يستعدون لاستقبال تمثال

العدراء المقدس.

كانت أشعة الشمس تنعكس على التمثال المذهب فيخيل إلى
الرائي أن شرراً نارياً يتصاعد منه إلى السماء.

وما اقترب الموكب حتى استولى الخشوع على الجماهير،
فطأطأوا الرؤوس متنهدين وصرخت ألوف الأصوات قائلة: تضرعي
لأجلنا يا والدة الإله!

وعلى الأثر ارتفعت أصوات أخرى تدعو الموكب إلى متابعة
السير والإسراع.

كانت البحيرة، وقد أحاطت بها الغابة من كل الجهات كإطار
جميل نفيس وانعكست على صفحاتها أظلال الأشجار، تبدو لمن
يراها مبتهجة ضاحكة.

وكانت الشمس تغيب شيئاً فشيئاً وراء الأشجار على أنغام
الأجراس المعدنية.

وكنت كيفما التفت وأدرت لحظي، أرى حولي وجوهاً تقطر
الماً وحزناً، وعيوناً دامعة، وأيدياً ترسم علامة الصليب، وأفواهاً تتلو
الصلوات همساً وتمتمة.

تأملت هذا الموكب البشري العظيم فحزنت نفسي وأشفقت على
هذا الشعب المتألم الذي يطمع بالعجائب.

رأيت في هذا الموكب البشري يأساً ملأ القلوب، وحزناً فاض في

الوجوه فإلى ما يرمي من وراء هذه الحفلة الدينية؟
ألا يتوقع كل فرد من أفرادها أن ينال حظوة في عيون القديسين
والأولياء ليستطيع أن يمسخ دموع الشقاء والتعس؟
أليس في قلب كل منهم إيمان ثابت بحدوث العجائب؟
كان الموكب يجد السير إلى أن اقترب مني فرأيت وجوهاً علاها
الغبار وتفصّد العرق منها فرسم فيها ما يشبه الأخاديد، وكان المتواكبون
يلهثون تعبًا وعياء، مع هذا كانوا يسرون مسرعين كأنهم لا يشعرون
بكلاله. ما أعظم تأثير الإيمان في القلوب.
تأملت هذه الجماهير يزحم بعضها بعضًا في طلب النعمة، في
رؤية تمثال العذراء، في الدنو منه والتبرك بلمس سدوله، فأشفقت على
الشعب وشعرت بالغصة تملأ روحي.
وظل الموكب متابعًا سيره.
وكانت ترتفع من حين إلى آخر أصوات تقصف كالرعد في ذلك
الفضاء، إلا أنها تحرك الشعور وتثير العواطف:
- تضرعي لأجلنا يا والدة الإله!
- افرحي وتهللي أيتها العذراء المقدسة.
- يا والدة الإله تشفعي لأجلنا!
فلا يلبث بعدئذ أن يرتفع صوت قائد الموكب يأمر الجمهور
بالسير:

- إلى الأمام... سيروا... أسرعوا.

فيتتشر الغبار ويؤلف ما يشبه سحابة تكتنف مئات من الجماهير الذين لم يبالوا بشيء، فكنت أتأمل وجوههم فأرى فيها مظهرًا من مظاهر البؤس والشقاء، ثم أجيل أبصاري في عيونهم فأرى فيها شرًا يتطاير من روح واحدة، كانت تنتظر بفارغ الصبر أن تتمتع بنعمة لم تعرفها قبل اليوم.

لقد توحدت الأماني وتوحدت القلوب وتوحدت الأرواح فأصبحت هذه الجماهير التي تعدّ بالألوف وقد شبك الواحد يده بيد الآخر، كأنها جسم واحد في قلب واحد وروح واحدة.

أجلت الطرف في هؤلاء الألوف المتراصين جسمًا وروحًا، فخیل إليّ أني أرى بناء بشريًا مرصوصًا يسير إلى الأمام، إلى النهاية بعزم وإيمان.

وكان في الوقت نفسه ينتاب روحي اضطراب شديد غامض، ولكنني ما عمت أن ذكرت عبارة يونا القائل: «إن الشعب هو الذي خلق الله كما خلق الله الشعب».

هذه العبارة أنارت روحي وبددت الظلام الذي أقلقها.

إن الشعب هو الذي خلق الله!

نعم، إن الله لم يكن إلا صدى للفكرة البشرية وصورة للروح الإنسانية.

فهببت من مكاني وتوجهت أستقبل الموكب. فانحدرت من الجبل وتبعَت الجماهير وأنا أصرخ بملء صوتي وأغني بكل ما فيّ من قوى قائلاً:

- تهللي وافرحي أيتها القوة المباركة، يا سيدة القوات.

أيتها الأمة، يا مبتدعة الآلهة والجمال ابتهجي واغتبطي!

وما هو إلا القليل حتى حاذيت الموكب فامتزجت بين أفرادهِ الذين أذابتني حرارة أنفاسهم فلم أع بعدئذ على شيء. ولم أدر أكنت سائرًا على الأرض أم طائرًا في الجو، لشدة ما انتابني من السرور الذي لا يوصف.

لقد شعرت وأنا في وسط الجماهير بسعادة سماوية لم أعهدُها قبلاً. كيف هبطت عليّ هذه السعادة؟ وما منشأها؟ ولماذا أخذت مني الحماسة مأخذها؟ هذه أسئلة ما أدركت جوابها إلا عندما ذكرت عبارة يونا:

«إن الشعب هو الذي خلق الله!».

وكان قائد الموكب يصرخ الفينة بعد الفينة:

- إلى الأمام أيها السادة أسرعوا... أسرعوا...

فكان الشعب وهو القدير على اجتياز كل الحدود وكل المهاوي، يتقدم بعزيمة صادقة لا تقاوم، وإيمان يأتي بالعجائب والخوارق.

ثم وقف الموكب فجأة فتداعى هذا البناء البشري بعد أن اصطدم

بعضه ببعض ورأيتني أمام عربية المقعدة.

وكانت الجماهير تنادي متهللة: لنشكر الله! لنشكر الله!

وكانت الحماسة قد أسكرت الشعب بنشوتها فما إن رأى المريضة حتى دفع العربية إلى الأمام فتحرك رأس الفتاة بشكل محزن مؤثر، وفتحت عينيها المعبرتين أبلغ تعبير عن الذعر والرعب.

وما إن شاهدتها الجماهير حتى شخصت إليها الأبصار وصبت عليها عيون المئات، ذلك السائل المغناطيسي القوي، وانصرفت أفكار الجماهير كلها وقواهم إلى مسألة واحدة، وتألفت من تلك القوى البشرية العظيمة قوة واحدة وانتشرت في صدورهم رغبة واحدة: وهي أن يروا هذه الفتاة المريضة المقعدة صحيحة سليمة الجسم معافاة، أن يروها تنهض من الداء وتمشي على رجليها وتحرك يديها!

وكنت أنا كسائر الأفراد الملتفين حول سرير المقعدة مصوبًا إليها نظراتي القوية العميقة، مرددًا في قلبي نفس ما تردده الجماهير، صارفًا كل أفكارى إلى نقطة واحدة وهي رؤية تلك الفتاة المريضة سليمة معافاة!

كنت أريد - كسواي - بكل ما في الإرادة من قوة أن أرى هذه المقعدة تنهض من سريرها وتمشي على رجليها المشلولتين. وكما تتساقط الأمطار في أرض يابسة مجدبة فتحийها، هكذا كانت تتساقط ابتهالات الشعب على تلك المريضة، فتستمد منها قوة جديدة تحيي آمالها وتنهض بها من سرير المرض.

كان الشعب يصرخ بصوت واحد وقلب واحد قائلاً:

- انهضي! قومي! لا تخافي أيتها الفتاة! تشجعي! ارفعي يدك،
ارفعي ذراعيك ولا تخشي! قومي أيتها العليلة، قفي على رجلك
تشجعي!

كانت تضيء في روح هذه المقعدة مئات من النجوم.
انعكست على محياها الشاحب الحائل ظلال وردية اللون كسته
جمالاً وبشراً.

فتحت المقعدة عينيها الجافلتين وشخصت إلى الجمهور المحقق
بها، فترقرقت على ثغرها ابتسامة عزاء وأمل وإيمان!
وكان الشعب لا ينفك عن الصراخ وقد جمع قوته واستضم أفكاره
حول الفتاة.

- انهضي! قومي! تشجعي أيتها الفتاة! أنت صحيحة الجسم
فتحركي وانهضي.

وكان الفتاة كانت نائمة نومًا عميقًا، فأيقظت روحها صرخات
الشعب وأخذت تستعد للنهوض. فبدأت تحرك كتفها شيئًا فشيئًا، ثم
حاولت أن تحرك يديها المرتجفتين.

- تشجعي أيتها الفتاة، ارفعي ذراعيك، لا تخافي..

ثم جمعت قواها فمدت يديها إلى الأمام بين التهليل والهتاف،
فكان يُخيل إلى من يراها أنها فرخ من فروخ الطيور يطير من وكنته

للمرة الأولى.

وعلى الأثر علا الهتاف فكاد يشق عنان السماء ويطبق الأرض
وارتفعت الأصوات، وقد أخذت الحماسة مأخذها من الشعب، حتى
ترآى لي أن الأرض تحولت إلى جرس نحاسي يقرع قرعاً عنيفاً، وأن
جباراً هائلاً من جبابرة الأساطير والخرافات هزّه هزاً شديداً بيديه
العظيمتين.

كان الشعب ينادي المريضة ويحثها ويشجعها صارخاً:

- ساعدوها، انقلوها إلى الأرض، قفي أيتها الفتاة، ارفعوها.

فحملناها من العربة حيث كانت متمددة، وسندناها لتمشي،
فأخذت تحرك قدميها بصعوبة، والشعب يهلل ويصرخ ونحن
نشجعها، فما أن سندناها قليلاً حتى مشت بخطوات ثابتة، وصرخت
وهي لا تكاد تصدق أنها شفيت.

- إلهي... إلهي! يا والدة الآلهة المقدسة! آه يا أصدقائي...!

وكان الشعب متابِعاً صرخاته بلهجة الأمر المطاع:

- سيري... سيري...

يا للإيمان ولأعاجيب الإيمان!

لقد آمن الشعب بقوته، بنفسه، فصنع العجائب!

يا للشعب التعجب الذي يعرف كيف «يريد» وكيف يشفي
المرضى وكيف يأتي بالخوارق!

كانت الفتاة تنقل قدميها ببطء وهدوء، ولكنها كانت تحركهما،
فإذا خانتها قواها انصبت عليها من ألوف العيون سوائل مغناطيسية
أكسبتها قوة جديدة.

كانت تمشي ببطء وهي تبسم، وقد حكى وجهها لون زنايق
الحقل، نعم كانت تمشي، وها هي ترفع ذراعيها في الهواء وكأنها تقول
لمن سندوها:

- دعوني... اتركوني، أريد أن أمشي وحدي...

وبعد أن وقفت لحظة جرّت قدميها ومشت.

كانت يداها ممدودتين إلى الأمام كأنها اتخذت من الهواء عكازًا
اعتمدته؛ لتقي نفسها شر السقوط على الأرض.

كانت وهي تنقل رجليها كالأطفال سرورًا وحياء، كانت ترتجف
ويهتز جسمها، لكنها كانت تمشي بإرادة الشعب الذي أحاط بها
وصوب إليها مئات من الأشعة المنيرة وجعل لها من قواه المتوحدة
غير المنظورة ما يدرأ عنها المرض ويعيد إليها الصحة.

وما زالت تمشي رويدًا رويدًا إلى أن اختلطت بالجماهير ثم غابت
عن الأنظار وراء رتاج الدير...

وكأني كنت غائبًا عن الرشد واستيقظت من سباتي الفكري،
فأخذت أتأمل هذا المشهد الغريب الذي تمثل لعيني على أثر العجبية
الشعبية.

كان الشعب يرقص فرحًا وسرورًا وقد شاهد بأم عينه أعجوبته
العظيمة.

وكانت الأجراس تقرع قرعًا متواصلًا، وتهاليل الشعب وصرخاته
تشق عنان السماء.

كان الكل طروبًا جذلاً، أنى أدرت الطرف فلا تقع عينك إلا على
ثغر باسم وعينين تفيضان نعمة واغترابًا.

وكانت الشمس وقد مالت إلى المغيب تصبغ مياه البحيرة بلونها
الأرجواني وتتكسر أشعتها الذهبية على صفحات الماء الهادئ فتبدو
فتنة للناظرين.

وبينما كنت أتأمل هذه الجماهير، إذ مرّ أمامي رجل لا أعرفه
وسألني ضاحكًا:

- أرايت! أرايت أعجوبة الشعب؟

فلم ألبث أن عانقته وضممته إلى صدري كأنه شقيق أو صديق
حميم قابلته بعد طول غياب. كان شعورنا المتبادل أفصح معبر عما
يجول في خواطرنا، فلم نتبادل كلمة واحدة، ثم افترقنا دون أن يفوه
أحدنا بكلمة.

وما معنى الكلمات في مثل هذا الموقف؟

أليست الألفاظ تستخدم للتفاهم بين الأرواح؟

إن روحنا كانتا متفاهمتين كل التفاهم، مدركتين كل الإدراك

ألوهية الشعب ومقدرته على صنع العجائب والإتيان بالخوارق بقوة إرادته التي لا تقهر.

قضيت الليلة في الغابة بالقرب من القرية، كنت وحيداً منفرداً عن الناس، غير أن روحي كانت مرتبطة أشد الارتباط، موثقة بعروة لا تفصم بالشعب، صانع العجائب ومولى الأرض وسيد المخلوقات. كنت أشعر أن كل ما رأيته وتعلمته كان ينمو فيّ ملتهباً في شعلة واحدة.

كنت أنا نفسي أعكس هذا النور على العالم، حيث كان الكل يضيء وقد اتخذ شكلاً جديداً ومعنى جديداً.

هذه الشعلة التي اضطربت في داخلي أنشأت في روحي رغبة في التهام العالم، كما التهمتني هي.

إن الألفاظ أعجز من أن أصف بها الحماسة التي استولت عليّ في هذه الليلة.

كنت أعانق الأرض بحبي وأباركها وأبارك معها الحياة. لقد ارتقيت أعلى درجات حياتي ونظرت إلى العالم فرأيت يشبه تياراً من نار يتألف من عناصر حية عظيمة تنزع إلى الاتحاد في قوة واحدة لا أدري مراميها وغايتها، ولكنني كنت أستدل على أنها هي نفسها معين لا ينضب لنمو النفس البشرية نمواً لا نهاية له، فتسمو الروح وترتفع إلى

أعلى درجات الكمال.

وفي فجر اليوم التالي عندما ذر قرن الغزالة، نظرت إلى الشمس
فرأيتها قد اتخذت شكلاً جديداً لم أعرفه قبلاً.

كانت أشعها تطرد جيوش الظلام شيئاً فشيئاً إلى أن رفعت عن
وجه الأرض حجاب الغلس، فبرزت الأرض سافرة وبدت لعيني
بأبهتها الخريفية كأنها حقل من الزمرد رصّته أيدي البشر بأعمالهم
العظيمة وميدان قام فيه النزاع لأجل الحرية، ومكان مقدّس للجهاد في
سبيل انتصار الحق والعدالة.

رأيت الأرض، هذه الأم الصالحة، ترفع أبصارها بعيون
أوقيانوساتها، مفتخرة متباهية، إلى كل الأبعاد والأعماق.

رأيتها تشبه شرياناً مملوءاً دمًا بشرياً حيّاً يغلي غلياناً شديداً.

رأيت أيضاً سيد الأرض، رأيت الشعب الكلي القدرة الخالدة،
الشعب الذي رفع شأن الأرض بأعماله العظيمة المجيدة وبإيمانه
وآماله.

رأيت هذا كله فوقفت بخشوع وشرعت أصلي صلاة الإيمان:

- أيها الشعب، أنت هو إلهي! أنت هو خالق كل الآلهة التي
ابتدعتها بصلاح نفسك بين ظلمة الاضطراب والفوضى وبصيص
التنقيب والدرس.

أيها الشعب، لن يكون على الأرض إله سواك، لأنك أنت الإله

الأحد صانع العجائب، فمبارك أنت.

«هذا ما أؤمن به وأعترف به».

والآن أعود إلى الأماكن التي يحرر فيها البشر أرواحهم من ربطة
الجهل وخرافة الأديان.

أعود إلى الأماكن التي تجمع الشعب وتسبك قواه في قوة واحدة
وقالب واحد وتريه من الأمام ما كان يجهله، وتساعد على تثبيت
عقيدته في قوة إرادته وفي ألوهيته.

أعود إلى الأماكن التي تدل البشر على السبيل الوحيد السديد الذي
يؤدي إلى الاتحاد العالمي والتآخي البشري، باسم عمل عظيم، باسم
ابتداع الله العادل الرحيم.

انتهت
